نور الدين يوسف نور الدين

الشعراء الثلاثة

أبو الطيب المتنبي
أبو العلاء المعري
الشريف الرضي

دراسة - تحليل - منتخبات

اصدار
دار الانصاف - منشورات محمد

المقدمة

في تاريخ الفكر الانساني ، حروف ضخمة ، احتلت مكانتها بجدارة ، ومقدرة ، واستحقاق ، وتفتحت امامها ابواب العبقرية فاخلاود .

وحتى الان ، والى الابد ، لن يتحجر الفكر الانساني ، ولن تعدم العبقرية سبيلاً الى الانطلاق ، بل تخطت سنة التطور كل حواجز الرجعية ، وحطمت افكار الانسان ، صروح الظلم ، ودكت معالم الاصنام والعبودية .

وداخل الانسان ، ذلك القبس الملتهب من حيوية ، ونشاط ، وتطلع .

وداخل قلب الانسان . ذلك الوتر الذي عزف ، ويعزف اعزب الحان الجمال ، والخير ، والحق .

وداخل عقل الانسان ، ذلك الميزان ، الدائم العمل ، والدائم التفتيش عن الحقيقة ، والممجد قيم التقدم والابداع .

ثم نفس الانسان ، ويله منها ، تلك الدابة الحرون . المنتفضة دائما ، الانانية ابدا .

اذن ، هو الانسان ، هم الناس ايضاً ، ونحن هنا نتحدث عن بعضهم ، عن بعض الذي شغلوا الناس ، شغلوهم في عصرهم ، وفي العصور التي تلت ، وحتى هذا الوقت ، وستبقى آثارهم شغل الناس في العصور اللاحقة ايضا .

ولست اول من تحدث ، كما انني لست آخر من سيتحدث عنهم ، ولكنني مع كل هذا سأحاول جاهداً ، ان اوضح ما غمض من تلك الجبلة الواضحة الغامضة .

من اقسى الامور على النفس ، ان تكون انت التاريخ ،

التاريخ : ما هو ؟ هل هو الزمن ؟ ام الانسان ؟

فالتاريخ هو الانسان ، الانسان المتفوق ابداً ، المتفجر قوة وعزماً وبطولة واقتحاماً للصعاب

انه لمعات الفكر المجدد الباعث . انه التفير المفاجيء الذي يقضي على الجمود والتحجر . انه السفر الذي يشع من سطوره لألاء الحضارة وبروجها . انه الايجـــاد الفعلي الذي يرسم ويخطط ويبني وينشيء لما نسميه ، ولما يسميه الناس ، الاجيال .

لهذا قلت ان من اقسى الامور على النفس ان تكون انت التاريخ . انت يا من ستتعرض يوماً لقسوة التاريخ وعدله .

مع كل هذا ، كن جريئاً وجديراً بأن تكون حرفاً من حروف . او كلمة من كلمات ، او سطراً من سطور ذلك السفر العظيم.

ونحن الآن امام ثلاثة حروف ضخمة محفورة في قلب صفحة من صفحات ذلك السفر حيث نود ان نتيح لأنفسنا فرصة الوقوف على الحيز الزمني والمكاني الذي احتلته هـذه الحروف ، والذي اطلت منه على البشرية ، بالومضات الصاعقة ، والخوالد العاصفة .

حرفنا الاول حسب التسلسل الزمني هو المتنبي .

المتنبي ، ذلك الحرف الكبير في تاريخ الادب العربي . بماذا يغبطنا ذلك الحرف ؟ وهل استطاع المتنبي ان يجلس في المكان العالي من التاريخ الذي تنطح له ، وطمح اليه ، واراد ان يكون فيه ؟ وهل اعد الزاد الملائم لنسغ مثل هـذا المكان ؟

الحقيقة ، ان المتنبي كأكثر رجال التاريخ ومفكريه ، يتميز بشيء من الجسارة التي لا تعرف الكلال ، وبحظ عظيم من الذكاء اللماع الذي همه ابداً الارتفاع ... والارتفاع ... وبموهبة شعرية وفنية استخدمها للوصول الى ما دفعته اليه جرأته وحزمه وتطلعه

الى القمم والقلل . لأنه لا يكفي لمن يبغون الخلود ، ودخول التاريخ من رتاجه الكبير ان يقصروا زادهم على الموهبة وحدها ، وانما يجب ان تلازم الموهبة اندفاع الرجل بجرأة وجسارة وقوة فيما يندفع اليه ، وفيما يريد ان يبلغ من اهداف قد تكون هوساً وجنوناً وانسياقاً في اللامعقول ...

هكذا دخل المتنبي باب التاريخ ، وخط في صفحته حرفه الضخم .

ونأتي الى الحرف الثاني ، وهو حرف مماثل للحرف الاول من بعض الوجوه ، ومختلف عنه من وجوه أخرى . ولكنه يلتقي معه في الثورة ، والايقال في الهدم والتمرد ، ويزيد عليه تعقلاً ودراية وتفلسفاً ، وعرضاً لمشاكل الحياة وقضاياها الوجودية والغيبية ، ذلك الحرف الذي لا يقل عن الحرف الاول ضخامة هو ابو العلاء المعري .

اما الحرف الثالث ، فلا يقل عن الأولين ثورة ، ورجولة وتمرداً ، ولكنه يزيد عليهما افتتاناً بالجانب الضاحك من الحياة ، فهو يغني ويشدو ، كما تشدو البلابل ، ويترنم بروائع تبعث في النفس الانسانية الشعور باللذة والمرح ، اللذين رغب فيهما الشريف وأثرهما ايثاراً لا يخلو من الشدة .

ثلاثة حروف ، نستبين منها ثلاثة رجال جثموا فوق رقاب الاجيال الزاحفة ، واجبروها على الاعتراف لهم بالقدرة المتحدية الزمن ، غير الهيابة ، وغير المتقاعسة عن امر جلل ، والمستهينة بكل بغي وظلم ، والناشرة كل عدل وحق ، والمستخفة بكل مشقة وتعب .

اذن الانسان ، ذلك الجبار القزم ، ذلك الذكي الغبي . سيبقى

دائماً امثولة الدنيا ، وكتاب التاريخ .

فيخلد من بني الناس من شذ عن قاعدة الحياة العادية ، ويبقى مجهولاً من اتبع ذلك « الروتين » العادي لسير الانسان في ركب هذه الحياة .

وطرق الخلود كثيرة ، وانواعها ومسالكها متباينة ، ومن هذا ، قد يخلد التاريخ فاجرا سفيهاً ، عربيداً ، وعدواً للقيم التي يقدسها الانسان ، وتؤمن بها البشرية .

وقد يتنكر لعبقري عظيم كرس نفسه ووقته للانتاج الخير الخصب .

انه الانسان ذلك الذي يصنع التاريخ ، وافعاله تلك التي تكتب كلماته ، واذا عرفنا ما في الانسان من متناقضات واهواء ، منها الخير الرفيع ، ومنها المنحط الوضيع .

واذا عرفنا ما في اعماله من غرائب وشواذ ، لأدركنا ما وصل الينا عن الاجيال السالفة ، ولاكتشفنا ما يحيط بنا من امور عجيبة قد يعجز عن حلها العقل الذي آمن به المعري ايماناً مطلقاً .

ولكن ذلك السر الذي صنع التاريخ والانسان معاً ، سيبقى الستار الذي يحجب عن الانسان المعرفة التامة ، فالسعادة القصوى. والذي يلجمه عما يدعي به من التسلط ، والسيطرة ، والقدرة .

وسيبقى الانسان والحالة هذه ، اي انسان . سيبقى الحرف الدائم السعي والعمل لاحتلال مكانه في عالم نجده اوسع من ان تشغله عبقريات الرجال . وسيبقى الانسان وعالم الانسان ضعيفاً بسيطاً امام تلك القدرة الجبارة العلية .

ولكنه الخلود ، والشعور بالتفوق في هذه الدنيا ، انشودة

الرجال ، ومطلب النفوس ، ومسعى العقول ، والهـــدف الذي يجند الانسان في سبيله كل ما في كيانه من قوى .

فليكن الخلود والوصول الى مرتبة الخالدين في عالم الفكر والفن والاختراع والوطنية ، غاية كل فرد ، فبذلك الابداع ، وهذا التحفز ، تبقى امتنا متماسكة ظافرة في عالمها ، وتستمر وتشعل التفوق ينير امامنا سبل الحق والخير .

ولنا في عالم الفكر والابداع والعبقرية ، صفحات خالدة .

واذ انا ابعث بعض هذه الصفحات ادعو الى صفحات جديدة ، بل الى كتب ضخمة في شتى حقول الفكر ، والعمل ... والتفوق .

نور الدين يوسف نور الدين

يا ساقيي أخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما هم وتسهيد
اصخرة انا ؟ مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الاغاريد
. . . .
ماذا لقيت من الدنيا واعجبه اني بما انا منه شاك منه محسود

. . . هذا الرجل الذي لا يطربه الغناء ، ولا تحركه الخمرة ونشوتها ، هذا الرجل ، الذي تنخير وكأن كأسه ليست سوى آنية مترعة بالهموم والآلام ، هذا اليائس ، القانط ، المحطم ، الوحيد في حياة كلها حسد ، وبغضاء ، وبغضاء .

وهذا المغني الذي يحرك لواعج النفوس بأنشاده ، ويبعث الألم والدهشة في القلوب بتوجعه وتألمه وشكواه ، هو نفسه القائل في مطلع شبابه وفي زهوة صباه :

اي محل ارتقي اي عظيم اتقي
وكل ماقدخلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

النفس الطامحة التي كانت في ذروة الكبرياء والعظمة ، والقلب الكبير ، الذي ما خاف الاهوال ، وما خشي الليالي والايام ، والذي صور حياته انشودة العظمة والرجولة ، هذه الرجولة نفسها قد ذلت منها الايام . وقد اضنتها مصائب الحياة وكوارثها .

ان المراحل التي سجلت فيها هذه المشاعر المتباينة ، من عظمة ومجد واستصغار لكبار الامور ، الى الاحساس بهذا الواقع الأليم الحزين الذي انتهى اليه امر صاحبه ، ثم هذه الوحدة المضنية ، مضت الايام تصارع الرجل ويصارعها ، فينتصر على الاحداث حيناً ، وتنتصر هي عليه احياناً .

في هذه المرحلة ، بل المراحل الطويلة سطرت الخطوط البارزة لحياة وفن الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

من هو ذلك الرجل الذي شغل الناس عصره ، بل الاجيال التي

عقبت اولئك الناس من الذين يتكلمون هذه اللغة ؛ التي غنى بها الرجل انشد البطولة والرجولة ، واعاريج القوة والعظمة ؟

ذلك الرجل هو ابو الطيب احمد ، المعروف بالمتنبي ، اما بقية كنيته كما تذكر كتب الادب فهي ، احمد بن الحسين ، بن الحسن ، بن عبد الصمد الجعفي ، الكندي ، الكوفي ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هجرية كانت نسبة كندة .

ولقد دار حول هذا النسب جدل طويل ، فمنهم من زعم ان والده كان يعرف القرمطي (بعبدان السقاء) ولكنني اشك في صحة هذا النسب والأبوة ، ايكون ابن السقاء من يقول :

واني لمن قوم كأن نفوسهم بها انف ان تسكن اللحم والعظما

انني سأعتمد امر نسبه ، اقواله واشعاره ، ثم الحوادث التي تعاقبت على حياته والتي نال الثالث من نال ، وفي اعتقادي ان نسبه جر عليه الكثير من المشاكل ، منها امر بنوته مثلا ، وسوف نتحدث عن ذلك في حينه .

وسألت عنه قوله عندما سأله علي بن الحسن التنوخي عن نسبه فأجاب المتنبي : **انا رجل احيط القبائل ، واطوي البوادي وحدي ومتى انتسبت لم آمن ان يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي انتسب اليها ... وما دمت غير منتسب الى احد فأنا اسلم على جميعهم ويخافون لساني .**

لو كان المتنبي ينتسب الى احدى القبائل الكبيرة لقلنا انه على حق في ذلك ، او لو انتسب الى رجل عظيم لقلنا ان الرجل معذور في هذا ، اما ووالده سقاء فلماذا يخشى الانتساب اليه ؟ ، ثم لماذا يخشى الانتساب الى قبيلة والده ولا يجزع في مدح اهل جدته ووالدها :

لو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الفخم كونك لي أما

فكيف يخشى من الانتساب الى قبيلة ابيه ، ثم لا يهاب من الانتساب الى قبيلة جدته وهي بنت أكرم والد .

ثم اليس هو القائل :

وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد

من هم هؤلاء الذين يفتخر بهم الشاعر ؟

الواقع ان ديوان الشاعر لا يؤكد النسب ولا يجلله . ولكنه يتركنا في حيرة ... فالمتنبي لم يمدح والده ولم يفتخر به ، كما انه لم يرثه ، ولم يحزن عليه حين موته .

لذلك حامت الشبهات حول نسبه ، سيما وقد رافقت حياته بعض الامور التي تثبت ان المتنبي لم يكن ابناً لذلك السقاء . ولكنه يستدل بما ورد في الحديث عن ثمانه ، وفي بعض اشعاره ، ان الرجل كان يكره الحديث حول نسبه ، واذا أكره على ذلك فضل ان ينسب نفسه الى البأس والقوة ، والى السيف على ان ينتسب الى ذلك الجعفي المغمور .

ترى ، هل كان الشاعر يخجل ان ينتسب الى ذلك الرجل ؟ اما ترى هل كانت عائلة الشاعر تكره ان ينتسب هو اليها ؟

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ...

انا ارى الافتراض الثاني ، فاذا اعتبرنا ما جر عليه نسبه من النقمة والكره من بعض الفئات ، وخاصة العلويين ، تبين لنا ان بين هذه النقمة وبين نسب الشاعر صلة قوية .

هل كان والد المتنبي علوياً ، وهل رافق هذا الامر بعض الشذوذ

والحوادث التي تبرر عدم الاعتراف به رسمياً . هذا ما اعتقده . ودليلي في الاسباب التي ذكرتها ، والاسباب التي سأتي عليها ، وسأشير اليها في حينه . ولنتعرف الآن الى طفولة الشاعر ونشأته .

كان المتنبي محباً للعلم ، ذكياً ، فطناً ، يجرع الى المكاتب فيقرأ ويسمع بما يقع تحت يده ، ويحفظه ، وقد روى عنه احدهم نادرة توضح قوة حافظته وفطنته ، وهو انه استعرض من احد الدلالين كتاباً فيه اكثر من عشرين ورقة مخطوطة واطال تأمله فيها فبادره الدلال قائلا : اريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك ، فأن كنت ترغب شراءه فعجل بالثمن ، وان كنت تريد حفظه فهذا في شهر ، فقال له ابو الطيب :

« فان كنت حفظته في هذه المدة فما لي عليك ؟

قال « اهب لك الكتاب » قال الوراق : فأخذته من يده ، فأقبل يسرده علي الى آخره . . .

ان هذه النادرة على ما فيها من مغالاة تبين فطنة الصبي وذكائه واستعداده الطيب لقبول العلم والمعرفة .

لقد حفظ اخبار العرب ، واشعار الجاهلية ، ثم درس الشعراء المتقدمين والمعاصرين ووفر لنفسه كنزاً وذخيرة لا تنضب .

ولا بد لنا الا ان نشير الى عصر المتنبي ، ذلك العصر الذي كان له مع المتنبي شأناً ، وكان له في شعر المتنبي اثراً بارزاً .

لقد عمت الفوضى ، وتبايعت الدعوات السياسية ، وملك الطمع والجشع على الامراء والحكام كل تعقل ، وكل روية ، فسد الحاكم والمحكوم ، وبرزت الطبقية بحدة وتندر بالويل والثبور .

لم تكن الخلافة العباسية سوى رمزاً دينياً ، بينما استقل عنها الامراء

في الاصقاع البعيدة منها والقريبة ، ثم وقعت ثورة تركت آثاراً بارزة في حياة ذلك الجيل ، ألا وهي ثورة القرامطة . ومن المؤكد ان المتنبي قد تأثر بهذه الدعوة ، بل يمكنني ان اقول اكثر من ذلك ، اقول انه كان قرمطياً صريحاً عندما عاد من البادية ، ومن ان القرمطية ، يضاف اليها امر نسبه دفعت به الى التجوال والترحال .

قلنا ان عصر المتنبي كان من العصور التي كثرت فيها الفوضى والشغب والطمع والطموح ، عصر جمحت فيه النفوس الى المراكز السامية ، وتناهت فيه القلوب الى البغضاء والحسد والتنمية ، وتسخير جميع الوسائل في سبيل الغايات والاهداف ، وخصائص ذلك العصر المتنبي ، انه عصر عاشت فيه الوسائل مهما اختلفت انواعها ، وسبل ركوبها في سبيل الغاية .

وكان لا بد للمرء من ، في ذلك العصر ، الا ان يسلك احد الطريقين ، اما ان يخضع ويستكين ، ويرى ولا يقدم ، واما ان يصاول بدوره ، ويجرب حظه ، كما يقال ، علّه يبلغ ما يتأجج في صدره من الاحلام والامنى .

من هذه الفئة الاخيرة كان شاعرنا المتنبي .

وقد يكون شاعر العذر في هذا ، وهو الفقير المتنبي ، والذي لا يقدر له ان يبلغ في الحياة ما بلغه غيره من اهل الجاه والمال . ومن هم دونه فطنة وذكاء ومعرفة هذا الهدف .

اذن ، لقد شعر المتنبي بفقد العدل والحق ، وانعدام المساواة والانصاف ، ولا بد له ان يسخط وينقم وهو الفتى صاحب النفس الحساسة ، ومن ذلك الحين — ويمكنني ان اقول ذلك — عرف المتنبي هدفه ، ووضع الخطط له .

كان يريد هناء الناس وسعادتهم ، ولكنه كان يريد قبل كل ذلك استغلال الظروف لمصلحته هو ، كان يريد مجد امته واجتماع كلمتها ، ومع كل هذا كان يبغي سعادة نفسه وعزها .

لقد كان الشاعر اول الامر ، اي في الفترات الاولى من حياته يندفع اندفاعاً صارخاً من اجل خير الجماعة ، وفي سبيل حياة فضلى ، ومجتمع اصلح ، يعطف على المظلوم ، ويحاول مد يد المساعدة للمحتاج والضعيف ، وكان لا بد له ان يثور على الاوضاع السياسية ، والاجتماعية ، ومن اجل كل هذا ، وفي سبيله ، فثار عليها وهاجمها بشدة ما بعدها شدة ، ونشير هنا الى ان المتنبي في تلك الحقبة من حياته لم يكن اناني جشعاً ، ولكنه كان انساناً ينشد العدل لجميع الناس على اختلاف انواعهم ومتباين آرائهم ، ونؤكد هنا وجود الدعوة القرمطية في حياته ، التي اخذت الكثير من وقته وجهده وهو يبشر بها في الفيافي والبوادي والقفار .

وبمر الزمن ... الزمن المعلم ، فاذا كل هذا لا يعوض عن نفس الشاعر شيئاً ، وهنا نبدو خصائص نفسيته بعد الفشل الذريع الذي نزل به في مستهل حياته ، وبعد ان تحطمت امانيه وآماله في احقاق العدل والانصاف ، وبعد انتباخرت من رأسه اهواء الشباب وكرمه ، فاذا به بعد ان ابتلي الحياة وعرف الناس وبعد ان خابت دعوته ، وانجلت تلك الغمامة العاكرة من الاوهام ، اذا به يسيطر على نفسه الحقد الجامح والاماني المسرفة ، وبصورة اوضح ، لقد اضحى يحب نفسه ، بل يعشقها اذا كانت تعشق الانفس .

وعودة الى حياة الرجل .

عرضنا انه كان فقير الحال ، وكان في بلدته الكوفة دائم التبرم بأحزانه واحقاده وفقره ، وكان دائم الثورة على تلك الاوضاع ، كثير

العجب من هذه الحياة وما يرى وما يسمع ... وإلى جانب هذا عظيم التقدير لعلمه وذكائه ...

كم الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم
ارى اناساً ومحصولي على عنم وذكر جودي ومحصولي على الكلم

ارأيت هذا التحرق ، وهذا الشعور ، ان هذا الشعور بالحاجة والظلم اوصل المتنبي الى ما وصل اليه كما سنتبين .

بقي الفتى في الكوفة حتى سنة ٣١٧ ثم هجرها الى البادية وتنقل بين قبائل كلب وغيرها وحفظ عنها قواعد الشعر واللغة ... ولم يطل به الامر حتى عاد الى الكوفة بعزق ثانية في الشقاء والحقد ... ومن ثم خرج الى بغداد عاصمة العلم والشهرة والمجد ، وعلى الارجح كان خروجه حوالي سنة ٣١٩ - ٣٢٠ وفي بغداد شاهد المتنبي من الاحداث ما هز نفسه هزاً ، وكيف كان الموالي من الديلم والاتراك والاعاجم يخرجون على الامراء والخلفاء ، وكيف اصبحت الخدم تتصرف بأمور الدولة وشؤون السياسة ، فعفت نفسه الابية ، وكرامة الشباب ، ان يمدح احداً من هذه الجموع المتهافتة الحقيرة .

وامتلأ صدره بالحقد الدفين وقد رأى امته وبلاده يسودها التافهون ، ويتحكم بها جماعات من الخدم . وعقد العزم والرأي على ان يخرج الى الارض يضرب فيها علّه يصيب من وراء هذا الخروج ما يعتقد وما يريد .

محي قيامي ما لذ نم النصل بريئاً من الجرعى ، سليماً من القتل

من هم محي قيامه ، غير جدته ، وما هي قيامته ؟ ان ذلك يعني

ولا شك ثورته ، اذن لقد بدأ الفتى يفكر بالثورة ، بل بدأ يثور وعقد العزم على انه يريد ان يدرك ثأراً وان يحقق امراً .

وخرج الفتى الى بغداد ، ثم مضى عنها بعد ان شاهد ما شاهد الى ديار ربيعة ، ثم نصيبين ، ورأس عين ، وحران ، ومنبج ، ثم دفعته الايام الى دمشق سنة ٣٢١ هـ ثم بعلبك ، وطرابلس ، وحمص ، وحلب ، واللاذقية ، وانطاكية .

اذن لقد سلك الفتى طريق الشعر ، واختار لنفسه هذه الحياة ، وفي هذه المرحلة من حياته مدح اكثر الامراء والحكام الذين التقى بهم في مستهل رحلاته وفي خطواته الاولى نحو حياة الكفاح والطموح ، ولا بد لي من الاشارة الى ان الشاعر في تلك الاثناء كانت تظهر في ثنايا مدائحه عقيدته القرمطية .

ومن جملة مدائحه قصيدته في بعض الكلابيين ومطلع القصيدة :

اذا ما شربت الخمر صرفاً مبتاً شربنا الذي من قبله شرب الكرم

الا حبذا قوم ندامانا هم الذنا يسقوننا ريا وساقيهم العزم

ومدح ايضا سعيد بن عبد الله الكلابي القيسي بقصيدة مطلعها :

احيا وايسر ما قاسيت ما قتلا والبين حار على ضعفي وما عدلا

ثم مدح ابو المنتصر شجاع الازدي بهذه القصيدة والتي اصبحت مطلعها انشودة تتلوها فئة كثيرة من الناس صادفهم في حياتهم ما صادف صاحبها في حياته .

ارق على ارق ومثلي يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

ومدح كثيرين غيرهم ، وفي تلك الايام التقى بسيف الدولة ، هذا الذي قال فيه بعد سنوات قصائد خلدتها الايام ورددتها الاجيال

ومطلع هذه القصيدة التي قالها في مدحه :

ذكرُ الصبا ومرابع الآرام جلبت حمامي قبل وقت حمامي

اذن ، لقد التقى المتنبي في مستهل حياته بالامير الشاب سيف الدولة الحمداني ، واعجب به ومدحه ، ولم يكن هذا المدح كما اعتقد بهدف التكسب ولكنه كان نتيجة الاعجاب والتقدير والاحترام .

ونحن اذا تناولنا شخاص هذا الشعر في ذلك السن المبكر ، والشباب الكريم للمسنا نمو الملكة الشعرية المسرع لدى المتنبي ، وان قصائده اخذت تتجه بسرعة فائقة نحو الكمال ، ونحن وان لمسنا في هذه القصائد خفة الصبا ، وشعور الشباب ، ثم بعض المآخذ ، لا بد لنا من ان نلمس ايضاً هذا الاتجاه نحو النضوج والكمال ان كان في اللفظ او في المعنى ، او في التفكير والشعور .

ولكن المتنبي لم يسطع به المقام في دار الشام وهي الديار التي كثر فيها الاضطراب وسادتها القلاقل والمنازعات بين سلطان مصر من جهة ، وسلطان العراق من جهة اخرى ، واخذت القبائل تفكر بالاستقلال عن هذين السلطانين معاً .

فرحل عن الشام الى ملك الاخشيدين يبغي هناك الشهرة ويرجو الامن والاستقرار ولكن الامل الذي كان يراوده هناك لم يتحقق فعاد ادراجه نحو طرابلس حيث مدح عبيد الله بن خلكان بالسينية التي مطلعها :

دانٍ بعيدٌ محبٌ مبغضٌ بهجٌ أغرّ حلوٌ مرٌ ليّنٌ شرس

ونحن نرى التكلف الظاهر في هذا المديح ، ولكن المتنبي كان قد اشتهر فلذا قبل شعره قبولاً حسناً .

وترك المتنبي طرابلس ثم اتجه الى ملك التوخيين حيث مدح

رجلين منهم ، احدهما علي بن ابراهيم بن اسحاق التنوخي ببضع قصائد جاء في مطلع احداها :

احقٌ عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدمُ

ومدح ايضاً الحسين بن اسحاق التنوخي بقصائد اخرى ايضا ، مطلع احداها :

انكر يابن إسحاق اخائي وتحسب ماء غيري من إنائي

واننا نلمس ان امر الشاعر قد عرف ، وشأنه قد عظم من خلال هذه القصيدة وغيرها من القصائد كما اننا نلمس هذه الروح الطامحة وهذه الهمة العالية التي تبرز مـــن خلال الفاظه ، وجمال التصوير ، وعظمة المعنى :

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي

زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي

وشغل النفس عن طلب المعالي يبيع الشعر في سوق الكساد

وما ماضي الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

ماذا يريد الشاعر اذن ؟

انه بتهيأ ولا شك لأمر جليل ، فهذه القوة التي يدخرها ، والعزم الذي يتغنى به ، اذن لقد نضج الشاعر ، واضحى خبيراً بالحياة والسياسة والحكم والدهر ، واذا المتنبي الآن اوسع فكرة واعمق نظرة ، فهو يريد تحقيق وحدة قومه وبلاده التي قطعت اوصالها مطامع الاعجام والترك والديلم .

ورحل المتنبي الى طبرية ، اوليست حياته رحلات متعددة لا نهاية لها ؟

وفي طبرية نلمس قوة الشاعر على الوصف ، وهذا وصفه لبحيرتها يعطينا الدليل الواضح على تلك الخاصة والقدرة في التصوير .

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخوضها اللجم
كأنها والريح تضربها جيشا وغى هازم ومنهزم

ونمر بهذه الفترة من حياة المتنبي وقد رأينا من انها تصور الشاعر العادي وقوام شعره الوقي الفني ، ثم اتخاذ هذا الشعر سبيلا الى الثروة والجاه ، ثم هدفه الى التفوق .

ولكننا نلمس لوناً جديداً لم نشاهده عند غيره من الشعراء ، وهذا اللون ، هو لون الثورة ، لون العاصفة التي تعصف في قلبه ، الثورة الدامية فهو السخط والتحفز والاشمئزاز :

وإلا فمت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد ترى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

قلت نمر بهذه الفترة من حياته مشيرين الى هذه الخصائص التي تميزت به حياته وشعره ، ثم اتصاله ببدر بن عمار وهذا الرجل كان عربياً خالص النسب فاذا بالمتنبي يجد من يشد فيه اصالة النسب والشهامة والمروءة ، فيقبل عليه راضياً عاشقاً مادحاً مخلصاً :

واذا مدحت فلا لتكسب رفعة للشاكرين على الاله ثناء
واذا مطرت فلا لانك مجدب يسقى الخصيب وتمطر الدماء

ولك الزمان من الزمان وقاية ولك الحمام في الحمام فداء

لولم تكن من ذا الورى ألذمنك هو عقمت بمولد نسلها حواء

انا لا انكر ان المتنبي اسرف كل الاسراف في هذا المدح ، ولكن هذا يميز المتنبي باندفاعه الى غرضه اندفاعاً عنيفاً . . . وهذه بعض خصائص شعره فيما بعد .

ونحن هنا ازاء احدث الخطير الذي هدد طموح الشاعر ووجه حياته نحو هذا الافق الجديد ، فهو الذي كان يعتقد انه سيصلح نظم الاجتماع وسيحرر هذه الامة من الدخلاء عليها وعلى حكمها ، والاستبداد بها ، فاذا به يغلب على امره ، واذا به امام الامر الواقع . وهو انه قد كتب عليه ان يكون شاعراً .

فبعد تلك المرحلة الخطرة من حياته حزمت في نفسه صورة المتنبي الطامح ، المستقل ، لتحل محلها صورة المتنبي الطامح ، ولكن المقيد الى ظل رجل عظيم ، او امير خطير ، هذه المرحلة القاسية هي مرحلة الدعوة للنبوة.

فالنبوة في حياته كانت من ابرز الحوادث واهمها واكثرها اهتماماً واخفاها حقبة في تاريخ تلك الحياة الحافلة .

وقد اختلف المؤرخون والرواة في امر هذه النبوة اختلافاً واضحاً وتباينت عندهم الآراء ، وتشعبت لديهم ، وقبل ان نستخلص الرأي الذي نعتقده صواباً سنشير الى بعض النواحي التي تسهل لنا امر فهم هذه التهمة الموجهة اليه ان كانت تهمة ام مجرد آراء حيكت حوله لتنيل منه ، ودسائس كثرت كي تصيب منه امراً .

لا يمكننا ان ننكر اول الامر تلك النزعة الى المجد ، وحب العظمة ، وتأصل عشق التفوق في نفس المتنبي ، هذه العوامل والخصائص التي ساهم فيها واقع العصر الذي عاش فيه الشاعر . ثم اساليب

الثقافة القرمطية التي شب عليها الفتى ، وانصراف الناس الى تتبع الدعوات ، وايمانهم بالخوارق ، والدليل على ذلك سهولة قياد الجماهير الجامحة في ثورة القرامطة ، ثم انتشار المعتقدات المختلفة ، فلذا وقد شاهد المتنبي وهو الطامح الطامع ، كل هذا فهل سولت له نفسه ، وهل دهب به طموحه الى أن يدعي النبوة ؟ وبفوق اهل عصره والطامحين جميعاً من الذين يدعون الامامة ، وينشدون الخلافة وسنورد هنا هذه الرواية حول النبوة المزعومة .

حدث معاذ اللاذقي قال :

« قدم ابو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمتي اذنيه ، فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن جنه فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من ادبه قلت :

- والله انك لشاب خطير ، تصلح لمخادمة ملك كبير .

فقال : ويحك ! اتدري ما تقول ؟ انا نبي مرسل .

فظننت انه يهزل ، ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزل منذ عرفته فقلت له : ما تقول ؟ فقال : انا نبي مرسل ، فقلت الى من مرسل ؟ فقال : الى هذه الامة الضالة المضلة ، قلت : تفعل ماذا ؟ قال : املأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً ، قلت : بماذا ؟ قال : بأدوار الارزاق والثواب العاجل لمن اطاع واتى ، وضرب الرقاب لمن عصى وأبى ، فقلت له : ان هذا امر عظيم اخاف عليك منه ، وعذلته على ذلك فقال بديهة :

أبا عبد الاله معاذ اني ... خفي عنك في الهيجا مقامي

ذكرت جسم مطلبي واني ... اخاطر فيه بالمهج الجسام

امثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقات الحمام ؟
ولو برز الزمان الي شخصاً خُضب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي
اذا امتلات عيون الخيل مني فويل في التيقظ والمنام

الخ من هذه الرواية من الاسئلة والاجوبة حول موضوع النبوة .
ولمتنبي ايضاً في هذه المرحلة شعراً فيه كل الفخر بنفسه ، بل كل التمجيد لشخصه :

اي محل ارتقي اي عظيم اتقي
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ويرى بعضهم ومنهم الاستاذ محمود محمد شاكر ان اعداء المتنبي هم الذين لفقوا له هذه التهمة ، وهم الذين اظهروه بهذا المظهر فكيف يقال ، ان دعوة المتنبي عمت كل مدينة في الشام ، وبويع له فيها ، كيف يكون هذا ؟ والشام اذ ذاك منزل من منازل ائمة الدين والعلم ، وكان اكثر اهلها لا يتخلفون عن صلاة ولا يزال بين ظهرانيهم عالم يقرأ في مجلسه ، او واعظ يعظ في حلقته ، او خطيب يخطب من منبره ، ثم لا يؤمنون بدعوى لا تؤيدها معجزة بيانية ، ولا خارقة كونية ، وان زعمنا ان اللاذقي قد آمن بالمتنبي لصحة الخبر ، افتؤمن كل مدن الشام ، وتبايعه لهذه الضلالة او هذه الاكذوبة التي لا تعقل ، ولكن اللاذقي رجلاً لا عقل له ، افيكون اهل الشام كلهم هذا الرجل ؟ .

ويستبعد الاستاذ شاكر ان يكون المتنبي قد ادعى النبوة ، وانما اتهموه بما هو منه براء .

اما قرآنه فهو ليس بقرآن ، وانما هو « ضرب من الهذيان » ثم يقول : والعجب ان يبيع له اللاذقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً .

ثم ينسب امر هذه النبوة الى نسبه وما رافقه من الغموض والشك ، واخيراً يرى ان سجن المتنبي لم يكن من اجل النبوة المزعومة ، بل انما كان من اجل تصريحه بنسبه ، هذا النسب الذي قد يرجع الى العلويين ، وان هؤلاء قد حرضوا عليه النفوس ، واوغروا عليه الصدور ، وجعلوا من مسألة النبوة غطاءً يستترون به حقيقة ما قام من اجله ابو الطيب فقبض عليه ، وان الرجل قد ادعى العلوية ، فأقحمت عليه مشكلة النبوة ليجعل دعواه في علويته كذباً وبهتاناً اما الدكتور طه حسين فيقول في هذا الصدد :

« وانا لا اتردد في رفض ما يروى من انه ادعى النبوة ، واحدث المعجزات او زعم احداثها ، وضال فريقاً من خاصة الناس وعامتهم ، فبايعوه واتبعوه كما لا اتردد في رفض هذا السخف الذي ينبئنا بأن المتنبي زعم ان قرآناً انزل عليه ، وبأن بعض الناس قد حفظ القرآن ، فقد قيل مثل هذا عن ابي العلاء ايضاً وروى بعضهم قرآنه الموهوم ، وما ينبغي ان نجهل ان الرأي العام في اوساط الشام وحمص خاصة كان خصماً لأبي الطيب حين سجن ، وان أبا الطيب بعد خروجه من السجن لايكاد يستقر في مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض والوان الخصومات ... فهو قد غاضب الناس جميعاً ، والب الدولة الاسلامية كلها على نفسه ، فأي غرابة في ان يكبر من امره ما صغر ويعظم من شأنه ما هان . »

اذن فالدكتور طه حسين يرفض الاعتراف فيما يتعلق بالنبوة .

كما ان المعري يشك شكاً ظاهراً في صحة هذه النبوة ، وان هذه الحالة التي رسمت حول نبوته لم تتكاثر الا من سخف الاحاديث الشعبية التي اثيرت حول سجن ابي الطيب .

وسلبت هنا ونحن في معرض الحديث عن نبوة المتنبي من ان الرجل كان لايزال في مطلع شبابه قوياً ، تضطرم في نفسه الآمال الكبار ، كثير الخصوم الذين لا تمر به حادثة دونما يستغلونها للنيل منه ، وبما انه كان حاد المزاج ، في تصرفه ، فلذا كان لا بد له وقد تعدد اعدائه ، منهم الامير الخطير ، ومنهم الحاكم الظالم ، ومنهم الصعلوك المهمل الغافل الذكر ، كان لا بد له من ان تجيش نفسه شعراً ينفث به الحمم التي تغلي في صدره ، يلعن ويشتم ويفتخر ويشمخ ، واذا نحن اطلعنا على تلك الحمم في هذه المرحلة الدقيقة من حياته لتبين لنا انه حرض الناس عليه ثم البهم ضده :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

ينرشفن من فمي رشفات هن فيه احلى من التوحيد

ارأيت هنا كيف يسخر من خبر التوحيد ؟

ثم يتابع قائلاً :

مامقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

ارأيت هذا التشبيه ، انه يشبه نفسه بالمسيح ثم يأتي بعدها ليشبه نفسه بصالح ، اما المسلمون فينعتهم بأشنع النعوت ، ويسخر منهم مدعياً انهم كاليهود ، ثم سترى كيف يلين ويشتم ويعنف ويعلن خروجه على القانون والعرف والنظام ، ويبعث تلك الحمم الفاظاً ملتهبة ثم يضرب عرض الحائط ببعض المعتقدات سعياً لقرمطيته ان تسيطر

وتسرح وتروح دونما رادع او وازع .

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح اذهب للغيظ ... واشفى لغل صدر الحقود

فلننظر الى نظرته الى الحياة ، وآماله البعيدة :

لا كما قد حييت غير حميد ... واذا مت مت غير فقيد

فاطلب العز في لظى ودع الذل ... ولو كان في جنان الخلود

يقتل العاجز الجبان وقد يوجز ... عن قطع بخفق المولود

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي

بهم فخر كل من نطق الضاد ... وعوز الجاني وغوث الطريد

انا اكون معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد

انا رب الندى ورب القوافي ... وسمام العدى وغيظ الحسود

انا في أمة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

تأمل هذه الابيات العنيفة ، وهذه الثورة الجامحة وهذه النفس المحمومة ، ثم هذا الشموخ ، وتلك الكبرياء والتعالي ، اتعجب اذن اذا رأيت الحاكم يسعى للقبض عليه ودفعه الى غياهب السجن بعد هذا الخروج على النظام وشتم السلفين ، والادعاء والفخر والشموخ .

ليس من حاجة الى ان يدعي المتنبي النبوة كي يغضب عليه الناس ومنهم الحاكم ، كلا ، ان همه ذلك وثورته جعلت منه خارجاً على القانون متمرداً على النظم ، وقيل انه خرج الى بادية السماوة ، وهي

من الامكنة الآهلة بالناس تشربت روح الاسماعيلية ، يتلو على الاعراب كلاماً منمقاً ادعى انه قرآن أنزل عليه ، فتبعه بعض القوم من بني كلب وكلاب وعبس ، وكاد يحدث احداثاً جساماً لولا ان خرج اليه لؤلؤ امير حمص من قبل الأخشيديين فقاتله وفرق اصحابه واتباعه واعتقله والقى به في غياهب السجن .

ونحن ايضاً لا نعتقد ولا نقر القول القائل بأن المتنبي كان قد ادعى النبـــوة ، ولا بد ايضاً من ان نشير الى ان الاستاذ فؤاد افرام البستاني يرى ان المتنبي قد ادعى النبوة .

اما نحن فنعتقد ان هذا النعت اطلق عليه لانه كان دائم الادعاء والوعد والوعيد كما كان الانبياء يكثرون من الوعد والوعيد .

وهذا ايضاً ما يجعلنا نزيد من ان المتنبي لم يكن ابن ذلك السقاء وان كان ابن ذلك السقاء فلا بد ان يكون ذلك السقاء منتسباً الى العلويين ولكنه لوضاعة امره بهن شأنه واسقط من سجل العائلة . وعندما صرح المتنبي بهذه الحقيقة او استعمل هذا النسب من اجل مطامحه قامت قائمة العلويين ، واستعملوا جميع الوسائل الايقاع به ، ومن هذه الوسائل امر النبوة .

ثم ما دمنا نعتقد ان المتنبي كان ذكياً فكيف سولت له نفسه ان يطلق عليه لقب النبوة وهو يعرف ان الاسلام لا يعترف ولا يقر بعد الرسول نبياً ، ومنهم الاعراب خاصة . اضـــف الى ذلك انني اعتقد ان خصوم المتنبي واعدائه وما كان اكثرهم هم الذين انبهوه بهذا ، ثم شعره وطموحه واستهانته بالامور وتعديه على المعتقدات وسخريته منها ، ومن المصدقين بها كل هذه العوامل يضاف اليها امر نسبه واسماعيليته دعت به الى السـجن ، ذلك السجن الذي عـرف

المتنبي فقرأ جاحظ فاذا به يتناول الرجل الذي قيده واسلمه الى الجند بقوله:

زعم المقيمُ بكوتكين بانه من آل هاشم بن عبد مناف
فاجبته مُذ خبرت من ابنائهم صارت قُيودهم من الصفصاف
أهون بطول الثواءِ والتلفِ والسجن والقيد يا ابا دُلَف

الا ان السجن وما صادف المتنبي فيه من امتاعب والمرارة، وشعوره بكبت حريته، ثم عدم الاطمئنان الى هذه الحالة التي وصل اليها، كل هذه العوامل يضاف اليها امر خوفه من المستقبل والاهمال، جعلت لهذا الطموح. وتلك النفس الثائرة الجشعة الى ارتقاء سلم المجد، جاماً تكبح به جموحها واجبرته ان يهدأ ويستكين ثم يفكر ويتهيأ لاستقبال امره بأناة وتمهل.

وتأتي تباشير الفرج بتولي اسحاق ابن كيلغ ولاية حمص، فيرسل اليه المتنبي مادحاً مستعطفاً طالباً العفو عنه:

بيدي ايها الاميرُ الاريبُ لا بشيءٍ الا لاني غريبُ
ان اكن قبل ان رأيتك اخطأ تُ فاني على يديك اتوبُ
عائب عابني لديك ومنه خُلقتْ في ذوي العيوب العيوبُ

اترى هذا الاستعطاف؟ وهذا الذل والخضوع؟ فاين النبوة وعظمة حاملها من النزول الى هذا الدرك من الاستهانة والاستعطاف؟

وقيل ان الامير عفى عنه بعد ان ارسل اليه قصيدة اخرى يرجو فيها عطفه وسماحه، وسنرى بعد هذا ان المتنبي عاش بقية عمره في وحدة وغربة، يتوسل ويستعطف، وانا اعذر اذا قلت ان تلك النغمة الشاهقة في الشعر العربي من تصوير الرجولة وتمجيدها، واطناب الشهامة

والمروءة ، والصدق والعظمة لم تكن تنطبق على حياة المتنبي ، ولم تكن لتتمثل فيه ، بل سيبقى المتنبي بقية عمره ذلك التابع الطماع او يصح فيه وينطبق عليه هذا البيت في شعره :

اذ ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

اذن لقد عاد الشاعر الى الترحال بعد خروجه من السجن ، ورافق هذه الحقبة من حياته تحوله الى الاستقرار بعدما نالت منه الايام والحياة ما نالت وشقي بأحلامه ما شقي .

واخذ المستقبل يتراءى له غامضاً باعثاً ، فكانت هذه الاحوال التي مرت بها حياته من الاحوال التي صقلت شعره ، وانضجت قوله وفكره ، ودفعت به خطوات واسعة نحو الكمال الفني ، وعلمته ايضاً تذوق الالم والصبر على الحرمان والمصائب ، وخلاصة القول ، لقد ساعدت في تهيئته ان احتلال مركزه في عالم الشعر والنبوغ .

قلت ان المتنبي خرج من سجنه ، وقد رافق هذا الخروج الحاجة المادية الى ابسط مطالب الحياة ، والمتنبي كرجل خبر البعض من الوان الحياة . وعرف خيرها وشرها علمته التجربة كيف يكظم غيظه وكيف يصبر على مكروه الم به . وعلمه الحذر والاحتياط كيف لا يسرف في تصريف اموره كما اعرف من قبل .

لقد كان اختباره للزمن والناس ذلك الزمن فيه الكثير من الفائدة له ، وفيه الكثير من الزبدة لنا اذ التقينا بتلك الثروة الشعرية التي يشكو فيها نوائب الزمن ، ومصائب الايام ، ومرارة الوحدة ، وسخط الناس ولؤمهم .

ويسير الشاعر في طريق الحياة مثقلا بالهموم والاحزان فيلتقي بأسد في طريقه ، فاذا بالشاعر يشكوه همه ، ويبين له وحدته وخوفه

من الحياة .

أجارك يا أشد الفراديس مكرم

فتسكن نفسي ام مهان فسلم

ورائي وقدامي عداة كثيرة

أحاذر من لص ومنك ومنهم

ارأيت لقد اضحى المتنبي يخاف اللصوص ، لقد نزل من علياء شموخه وكبريائه ، انه ليس بأكثر من شاعر وحيد يدخر شعره لعيشه وكسبه .

فهل لك في حلفي على ما اريده

فاني باسباب المعيشة اعلم

ماذا يريد المتنبي ، ترى ألا زالت تلك الافكار والاماني تأخذ قسطاً من تفكيره وجهده ؟ من يدري ؟ ولكن لنرى ما يريد .

إذن لاتاك الرزق من كل وجهة

واثريت مما تغنمين واغنم

هذا الذي يريده الشاعر . الثراء والغنى والغنيمة ، سيصل الشاعر الى كل هذا ، فلنقطع معه بقية الطريق .

سار الى حلب ، ولم تطل به الاقامة هناك ، وحلب موضع نزاع واضطراب ، ولقد كان المتنبي احوج الناس الى الراحة والسكينة بعدما

مر به ما مر .

واتجه بعدها الى انطاكية ، ويلتقي هناك بالمغيث بن علي العجلي فيقول فيه قصيدة مطلعها :

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا
لاهله وشفى أنيّ ولا كربا

ترى ان المتنبي ، يتحدث عن الدمع والكرب ؟ ومع هذه اللوعة والغيظ والحقد الذي ظهر واضحاً في هذه القصيدة ، نلمس من ناحية اخرى ان الشاعر كان يمدح وهو مشبعة بالملل والسأم. لم نقل انه يريد ان يعيش !

وخاصة اخرى امتازت بها هذه القصائد ، فالشاعر كان يحتفظ لنفسه بالنصف الاول من القصيدة ، يبث شجونه ، ويشكو زمانه ويجهل على الناس ، ثم يعود الى ممدوحه بعد ان يكون قد اشبع نفسه من الشكاء والتوجع والفخر . واخيراً نقد بلغ الشاعر منزلة شاعرية ممتازة فلقد استوثق من صناعته ، وذلل الألفاظ لغاياته وتعرف بالمعاني يرسلها حكماً ، وامثالاً ، يصور فيها الدهر ونوائبه .

ومن انطاكية يجتاز الرجل جبال لبنان في طريقه الى بدر بن عمار في طبرية فيمدحه في عدة قصائد اولها القصيدة التي مطلعها :

أمن ازديادك في الدجى الرقباءُ
اذ حيث انت من الظلام ضياءُ

ولكن اقامته عند بدر لم تطل ، فلقد سعى به الساعون عند بدر فلم يجد بداً من ان ينصرف ويرحل ، ويعود المتنبي من جديد الى حياة التشرد ، انها هذه المرة كان قد عرف امره واشتهر شعره .

واضحى من فحاحل شعراء عصره ومن تقدمه .

وسنشير هنا الى فن من فنون الشعر لم يكن المتنبي من فحاحله الا وهو الغزل بالخمرة ، فالمتنبي لم يكن كالنواسي نديماً يحسن المنادمة فقد كان يكره مجالس الشراب ، ويعتقد انها تذهب من مكانة الرجل ، وكان دائم الهجاء لخمرة ملقناً لها ، حاملاً عليها ، وان شربها ، شرباً كارهاً مجبراً ، لذا لم يكن يصح فيه ان يكون نديماً مجالساً ، فلننظر ماذا يرى في الخمرة :

وجدت المدامة غلابة ... تهيج للقلب اشواقه

تسئ من المرء تأديبه ... ولكن تحسن اخلاقه

وانفس ما للفتى لبه ... وذو اللب يكره إنفاقه

وقد مت امسي بها موتة ... ولا يشتهي الموت من ذاقه

لقد ترك المتنبي بدراً في طريقه الى المجهول ، وذكر بصديق له يعرف بأبي الحسن بن علي بن احمد الخراساني حيث مدحه بقصيدته المشهورة :

لا افتخار إلا لمن يضام

مدرك او محارب لا ينام

ليس عزماً ما مرض المرء فيه

ليس هماً ما عاق عنه الظلام

واحتمال الاذى ورؤية جاريه

ه غذاء تضوى به الاجسام

ارأيت لقد نطق الرجل بالحكمة ، انها الحياة وتجاربها تنطقه انها الاحداث التي مرت به تملي عليه :

ذل من يغبط الذليل بعيش رُب عيش اخف منه الحمام

كل حلم اتى بغير اقتدار حجة لاجئ ، اليها اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

اني اترك لك ان تتلمس ما في هذه الابيات من العبر والجمال .

ويبقى المتنبي وفيرٌ انشرد حتى سنة ثلاثمائة وثلاثين ، وعندئذ تتغير الاحوال السياسية نوعاً ما في بلاد الشام ، ويظهر الاخشيديين لاسترجاع تلك الديار ، فيوز المتنبي عندئذ مقرباً الى امرائهم ، وتسيل اكثر قصائده بنغمة الحزن والتذمر من الزمن ومصائبه .

وفي تلك المرحلة حصلت معارك بسيطة بين الدولة الحمدانية متمثلة وبين الاخشيديين ، وكان في استقرار تلك الدولة في شمالي الشام ، قد حث المتنبي على ان ينتهز الفرصة ، سيما وعظمة هذه الدولة الفتية توافق هوى نفسه ومطلب رجولته ، فمضى المتنبي من حلب الاخشيديين في طريقه الى الحمدانيين فمر بطرابلس ثم يمضي الى انطاكية حيث ابو العشائر ابن عم سيف الدولة اميرحلب ، وقائد جيوشها.

خف المتنبي من دمشق الى انطاكية حيث مدح ابا العشائر بعد انتصاره على احد اعدائه بهذه القصيدة التي مطلعها :

مبيتي من دمشق على فراشي حشاه لي مجر حشاي حاش

يقودُهم الى البيجا لجوج يُسن قتاله والكر فتش

الى ان يقول :

فررت اليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

ما هي المعالي التي يريدها المتنبي ، انه ولا شك يبغي الوصول الى سيف الدولة ، ولم يطل به الامر للوصول اليه بعد ان اشتهر امره ، وبعد ان افحمت تلك القصائد التي نوه بها ، والتي مدح بها صاحبه نسيب سيف الدولة سوى لتزيده شهرة وقوة ؛ وان تعقل شعره وقد وجد البيئة الادبية العربية التي تفهم شعره وتقدره وتعرف مكانته في عالم الشعر والادب

مدح المتنبي ابا العشائر بقصائد عديدة منها القصيدة التي مطلعها :

أتراها لكثرة العشاق ... تحسب الدمع خلقة في المآقي

ثم القصيدة التي مطلعها :

لا تحسبوا ربعكم ولا طلله ... اول حي فراقكم قتله

ثم :

مالي لا أمدح الحسين ولا ... ابذل لهم الود مثل ما بذله

أأخفت العين عنده اثراً ... ام بلثم الكعيب ذبان ما أمله

عند سيف الدولة

في سنة ٣٣٧ كان سيف الدولة الحمداني قد استولى على اكثر ديار الشام ، ووقف حصناً منيعاً ضد غارات الروم واطماعهم في بلاد كثرت فيها الدسائس ، وتفشت فيها الاطماع ، ولقد كان هذا الامير من اشد معاصريه مراساً ، واكثرهم قوة واندفاعاً ، واكثرهم دهاء ، واوسعهم حيلة ، واشدهم حباً للعرب ودينهم ، ثم كان الى جانب هذا الرجل العنيد الصبور ، العظيم الهمة . الساعي للمجد ، ثم حبه للادب ، يقوم على خدمته فكان ديوانه يجمع اهل الظرف والثقافة والشعر

والادب في عصره ، زد على ذلك انه هو نفسه كان شاعراً حلو اللسان ، خفيف الروح .

كان سيف الدولة يبغي في ضم اطراف البلاد اليه والى حكمه ، ولكن ذوي المطامع من جهة ، والروم من جهة اخرى قوضت هذه الفكرة العظيمة ، ووضعوا في طريقه الكثير من المصاعب والعراقيل .

فليس من العجب ان ينشده المتنبي ، وهو الذي تجسمت فيه افكار شبابه ، واحلام فتوته ، وما دام هو لا يستطيع ان يكون رجلاً عظيماً مستقلاً ، فلا بأس لو كان شاعراً عظيماً تحت جناح رجل عظيم مستقل ، وليكرس عبقريته وفنه وشهرته لهذا المجد المشترك ولتلك العبقرية الفذة ، والرجولة الشامخة .

لقد كان المتنبي مدركاً لسياسة عصره ، عارفاً بخفاياها ، فلذا ادرك ما يعترض طريق سيف الدولة من العقبات ، من اجل هذا نجح في الامتحان ان صح القول عندما التقى به سيف الدولة في انطاكية اثناء زيارته لابن عمه ابا العشائر ، وكان هذا الاخير قد قدم المتنبي اليه ، واثنى على منزلته في عالم الشعر والادب ، ويقال ان المتنبي اشترط شروطاً عندما ينشد الشعر بين يدي سيف الدولة ، ولكنني لا اعتقد ذلك ولا اقره ، فما كان سيف الدولة بحاجة الى ان ينشده المتنبي وقد ركع الى الارض ، وما كان المتنبي يفكر بهذا وقد التقى بسيف الدولة الامل الذي يراود نفسه منذ امد بعيد .

ونحن نعلم كما تقدم ان هذا اللقاء لم يكن اول لقاء بينهما ، فلقد التقى المتنبي بسيف الدولة سنة ٣٣١ هـ ومدحه وقدر اعماله ورجولته .

اذن لقد قدم ابو العشائر المتنبي الى سيف الدولة ، ووصف له ما وجد فيه من الشهامة والمروءة ، ومحبته للعرب وكرهه للأعاجم ، وحلاوة شعره ، وطلاوة ادبه ، ولم يطل الامر فاذا بشعر المتنبي يثبت

هذا فلقد قال المتنبي آنذاك قصيدته الشهيرة :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته
على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه
ولا حملت فيها الغراب قوادمه

فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله
وخاطبت بحراً لا يرى البر عائمه

غضبت له لما رأيت صفاته
بلا واصف والشعر تهذي صماطمه

اذن والحالة هذه سيصبح المتنبي شاعر الامير الحمداني الخاص ، بعد ان فقد الشعراء الذين لم تتوفر لهم المقدرة على ادراك صفات الامير وتمجيد اعماله ، وتخليد هذه الصفات وتصوير بطولات جيشه العنيد الجبار الفاتح :

له عسكراً خيل وطير اذا رمى
بها عسكراً لم يبق إلا جماجمه

اجلتها — من كل طاغٍ — ثيابه
وموطئها — من كل باغٍ — ملاغمه

سحاب من العقبان يزحف تحتها
سحاب — اذا استسقت سقتها صوارمه

لقد نال سيف الدولة المجد معلماً

فلا المجد مخيفه ، ولا القرب ثالمه

وبقي سيف الدولة بأنطاكية مدة شهر من الزمن ، وبقي المتنبي الى جواره ، يتحفه بشعره ، ويحدثه في امور الدولة ، وسياسة البلاد ، فقربه الامير منه بعد ان اعجب به وبسعة اطلاعه ، وعندما رحل سيف الدولة الى عاصمة ملكه كان قد اتفق مع الشاعر على ان يتبعه اليها . وهكذا لم تسجل ساعة الزمن الكثير من الوقت حتى كان المتنبي قد اقبل على حلب . واعتذر الأمير عن عدم المسير في ركابه بهذه القصيدة التي مطلعها :

نحن من ضايق الزمان له فيك وخانته قربك الايام

المتنبي في حلب - عاصمة ملك سيف الدولة ، والحركة الدائبة بين عواصم العالم الاسلامي في ذلك الوقت ، هذه النهاية التي طالما اراد الوصول اليها بعد ان وقفت الايام حائلا دون ان يكون له هو عاصمة وبلاط ، وشعراء .

واجتمعت على ابي الطيب في اوائل حياته في حلب عوامل عديدة ساهمت في دفع شعره خطوات جريئة نحو الكمال الفني ، والغناء المجيد .

فالى جانب فرحه وسروره بتحقيق امله من لقاء هذا الامير الجليل المقدام الذي تتجاوب افكاره السياسية والقومية مع افكاره وسياسته ، كانت الايام تزيده خبرة وتجربة ، وتمعن في ايلامه واحزان قلبه ، وتفقد فقد امرأته ، ثم ولده ، وجددت له هذه الحوادث والهزات ما بقلبه من معائب الزمن وآلامه وكان تنازع الفرح والحزن ، القلق

والاستقرار، الخوف والاقدام، في تلك النفس المرهفة الشاعرة الحساسة، كل هذه العوامل وما رافقها كونت الاسباب في استخراج كوامن نفسه، وخلاصة فنه، روعة انتاجه.

وعبقرية المتنبي تبلورت وصقلت بما عاجت به نفسه من العواطف وما ملأت حقله من الافكار. ثم تأمل ما تجمد في قلبه من المعاني التي بعثتها تلك الاتراح والافراح.

ثم عاد الى ضميره والى خفايا نفسه يستوعب ما بها من الاحداث القديمة التي تركت رسماً بارزاً فيها، والى جانب كل هذا كان يعيش امله بمستقبل فيه العزاء عما مضى، المستقبل فيه القوة، وفيه العنف وفيه المجد، فيه الى جانب كل هذا الثراء والغنى والجاه والاستقرار.

وكأنما الايام التي ما امهلته في حياته قط، لن تمهله الآن ابداً، ولكنها اشغلته بنوع من العمل جديد على حياته، واظنها كان هو يتعشقه ويعمل من اجله، وكأنما مجالس العلم والادب والشعر المتجددة لدى سيف الدولة وبلاطه، وذلك الرقيب الدائم على شعره وانتاجه اهابت به الى ان يحسن القول، ويجدد المعنى، ويبتكر ابتكاراً لم يعرفه لا قبل، ولا بعد.

وأصل هنا الى حقيقة ثابتة لا بد منها وقد يعارضني فيها من يعارض، ولكنني اعتقد تمام الاعتقاد ان شاعرية المتنبي لم تبلغ هذا التفوق الا عندما اتصل بصاحبه سيف الدولة، وعندما عاش في هذه البيئة السورية الدائمة الحركة، العنيفة المسعى التي لا تهدأ ولا تستقر الا لتفتش عن نوع آخر من الطموح والاندفاع حتى تستكمل نموها وتحقق ما في جوهرها من التفوق.

وكان المتنبي والحالة هذه في اضطرار بحكم منزلته كشاعر الامير ان يدرك هذا الواقع وان ينظر الى الحياة نظرة المتدبر، ويقلب الرأي،

ويعبر الفكرة ، ويقيس الاشياء ، ثم يردها الى اصولها ، ثم ينتزع جوهر المعاني انتزاعاً حتى يكون جديراً ببيئة الكرية العنيفة الثائرة التي لا تهدأ ابداً .

ومقابلة بين شعر المتنبي في ديار الشام - سورية -- وفي مصر فيما بعد ، نجد الفرق الشاسع ، فبينما هو في الاولى يمثل العنف والشموخ والجودة ، والدموية ان صح هذا التعبير ، والابداع ايضاً ، نشاهده في الثانية ، يمثل البدوء والنعومة والجفاف الذي يفقده في شعره السالف ، ولا اثر لتلك الثورات العنيفة الصارمة فيه .

والمتنبي في ذلك مصور ، يصور البيئة السورية تصويراً صادقاً ، تلك البيئة التي قدمـــا البعض من اوصافها ، تلك البيئة التي لا تكل ولا تمل ، بل تعمل وتجاهد وتكافح ، وتثبت وجودها ، لتحقق عظمة كيانها ، وتلعب دورها المجيد في التاريخ ، ذلك الدور الذي اقتضته وقائع ذلك العصر ان تكون سورية الحصن الوحيد امام هجمات الروم .

وبينما كانت بغداد والفسطاط وغيرها من المدن الاسلامية الدائرة في فلك العباسيين والفاطميين والعلويين ، منها من يلهو ، ومنها من يكيد ، ومنها من يتعامل مع الروم .

كانت ديار الشام صامدة دون غيرها لجحافل الروم وخيولهم ، تصدهم وهي ثابتة صامدة راسخة .

اما البيئة المصرية ، والبيئة البغدادية ، ثم الفارسية بعدها كانت هادئة مستقرة بحيث انه لم يكن فيها ما يلهم الشعر ولا ما يثير العاطفة ولا ما يستهوي القلوب ، ولذلك قل شعر المتنبي السياسي ، وصوره للحياة والغزو والجيوش في هذه البيئة او البيئات الثلاث لأنه لم يكن فيها اندفاعاً ، ولم تكن فيها الجيوش التي تحارب وتقارع

بل كان في الاولى الاستقرار ، وكان في الثانية اللهو والعبث ، وكان في الثالثة المكر والدهاء والكيد ، وهذه الامور كان المتنبي يكرهها اشد الكره ولا يرى فيها ضرباً واحداً من ضروب الرجولة ، فلذا اقتصر مدحه على الاشخاص كما سنرى .

سوف لا نطيل الحديث عن حياة المتنبي عند سيف الدولة ، لأننا سندرج الكثير من شعره في المنتخبات التي سنتبعها هذه الدراسة ، ولكن لا بد لنا من ان نقول :

ان شعر المتنبي في حلب بلغ غاية الروعة ، وبلغ غاية العظمة ، وان تلك الحياة الحافلة قد استهوته ، ثم سنروي احدى الروايات عن مجلس سيف الدولة في حلب والشعراء والادباء الذين كان يجمعهم ذلك المجلس ، والذين كانوا يوغرون صدر الامير على شاعره دائماً مما ادى الى غضب الامير على الشاعر ، ثم رحيل الشاعر عن اميره وقائده هذا الى جانب الحوادث العديدة التي كانت له معهم ومعه ، والتي كانت تجرح كبرياءه ، وتنغص عليه عيشه .

قيل ، قال ابو فراس الحمداني لسيف الدولة وابو فراس كان شاعراً وكان قائداً ثم قريب سيف الدولة وسنرى موقفه من المتنبي ، ثم سنرى كيف كان المتنبي مضطراً بحكم بيئته ان ينشد الكمال في شعره ، قال له : ان هذا المتشدق « يعني المتنبي » كثير الأدلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن ان تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام ، وكأنما اقتنع بما قدم ابو فراس وعمل بما اشار عليه ، وكان المتنبي غائباً فبلغته القصة ، ولما حضر ، دخل على سيف الدولة وانشده ابياتاً ، فأطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته وحضر ابو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في

الرقيعة وانقطع ابو الطيب بعد ذلك ونظم القصيدة التي اولها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجالي وجسمي عنده سقم

ثم جاء ديوان سيف الدولة وانشدها حتى اذ وصل الى :

ما لي اكتم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الامم

تجاوز الى القول :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت اليه والسيوف دمُ

عندئذ همت جماعة بقتله في حضرة الامير لشدة ادلاله واعراض الامير عنه وعندما بلغ في انشاده قوله :

يا اعدل الناس الا في معاملتي

فيك الخصامُ وانت الخصم والحكم

قال له ابو فراس: « لقد مسخت قول دعبل »

ولست ارجو انتصافاً منك ما ذرفت

عيني دموعاً وانت الخصم والحكم

فتابع المتنبي :

اعيذها نظراتٍ منك صادقةً

ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فأدرك ابو فراس انه يعنيه فقال : « من انت يا دعي كندة » حتى تأخذ اعراض الامير في مجلسه ، ولكن المتنبي استمر في انشاده ولم يرد عليه الى ان قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأني خير من تسعى به قدم

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك ابا فراس غيظاً وقال محتداً : « قد سرقت هذا من عمرو بن عروة ابن العبد حيث يقول :

اوضحت من طرق الاداب ما اشتكلت

دهراً واظهرتُ اغراباً وابداعا

حتى فتحت باعجاز خصصت به

للعمى والصم أبصاراً واسماعاً

ولما انتهى المتنبي الى قوله

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال ابو فراس : « وماذا ابقيت للامير ، اذا وصفت نفسك بكل هذا ؟ تمدح الامير بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الامير ! اما سرقت هذا من الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني :

انا ابن الفلا والطعن والضرب والسُرى

وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال المتنبي متابعاً .

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم

فقال ابو فراس « وهذا سرقته من قول معقل البجلي »

اذا لم امزّ بين نور وظلمة بعيني فالعينان ذور وبلطل

ومثله قول محمد بن احمد مرة المكي :

اذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى فما الفرق بين العمي والبصراء

وضجر سيف الدولة من كثرة المناقشة في هذه القصيدة ، وكثرة دعاويه فيها ، فضربه بالدواة التي بين يديه فقال المتنبي على الفور :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح ، اذا ارضاكم ، الم

فقال ابو فراس : « وهذا اخذته من قول بشار .

اذا رضيتم بأن تحنى وسركم قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر

ومثله قول ابن الرومي :

اذا ما الفجائع اكسبتني رضاك فيها الدهر بالفاجع

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قاله ابو فراس ، واعجبه بيت المتنبي ورضي عنه في الحال وادناه اليه ، وقبل رأسه ، واجازه بألف دينار ثم اردفها بألف اخرى .

ان هذه المناقشة الطريفة اخيرة تبين لنا اعتداد المتنبي ، وفخره من جهة ، ثم ثقافة البيئة التي كان المتنبي يعيش فيها ، وحسد الشعراء ورجال الادب منه من جهة اخرى .

وقبل ان ننتقل الى كيفية خروج المتنبي من عاصمة سيف الدولة في طريقه الى عاصمة كافور ، واغلب الظن ان هذا كان بناء على أتفاق سابق مع رسل كافور لأن المتنبي بعد هذه الحوادث التي تكاثرت عليه ، والتي نالت من كبريائه فكر بالرحيل ولذا رحب برسل كافور اليه ولم يكن خروجه عبثاً .

قلت : قبل ان ابين كيفية خروج المتنبي من لدى سيف الدولة سأميل الى ناحية هامة ، تفرعت بسببها الآراء ، وتشعبت فيها الظنون

وهي ، هل احب المتنبي شقيقة سيف الدولة ؟

انني اخالف الكثيرين من الذين يقولون بأن المتنبي لم يحب شقيقة سيف الدولة ، وارد على هذا السؤال : بنعم .

فنقمة ابو فراس عليه ليست من أجل منافسة شعرية فحسب ، ثم ارسال ابو العشائر غلمانه لأغتيال المتنبي ، ان لذلك اعتبارات خاصة فلا بد انها عرفا زواج الشاعر نحو نسيبتها ، ثم عندما عرف المتنبي خبر الاغتيال ومن وراءه قال معاتباً صاحب الفكرة :

ومنتسب عندي الى من أحبه ... وللنبل حولي من يديه حفيف

الى ان يقول :

فان كان يبغي قتلها بك قاتلاً ... بكفيه فالقتل الشريف شريف

ماذا اذنب المتنبي بحق الصديق القديم ، حتى يستحق القتل الشريف ؟ انا اعتقد ان تطاوله على حرم الامير هو الذنب العظيم ، بل تفكيره في ذلك من الذنوب التي لا تغتفر ، اذا ارادوا اغتياله .

ولنعد الى شعر المتنبي ، لنعد الى رثائه للأخت الصغرى لسيف الدولة ، ثم رثائه لفقد الاخت الكبرى التي كان المتنبي ولا شك يحبها ويحترمها ، فلنسمع قوله في صدد رثاء الصغرى وقد ماتت قبل الكبرى .

ولكن قبل ان نصل الى هذا سنشير الى انقطاع المتنبي عن سيف الدولة البعض من الوقت ثم عودته اليه وقوله :

ولكن حمى الشعر الا القليـ ... ـل لم حمى النوم إلا غرارا

وما انا اسقمت جسمي به ... ولا انا اضرمت في القلب نارا

فلا تلزمني ذنوب الزمان الي اسأ وايايَ ضارا

بهذا الهم الذي يلازم القلب ويمرض الجسم ، ولا يقدر الانسان له رداً ان هو إلا الحب .

ثم ستثبت هنا هذه المقطوعة الحلوة ، هذه الاغنية الجميلة :

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقى والحب ما لم يبق مني وما بقى

واحلى الهوى ما شك في الوصل ربه

وفي الهجر فهو الدهر يرجو وينتقى

سقى الله ايام الصبا ما يسرها

ويفعل فعل البابلي المعتق

اذا ما لبست الدهر مستمعاً به تخرقت والملبوس لم يتخرق

لعيني من ما يلقى الفؤاد ؟ لعيني خولة ولا شك

ولنعد الى موضوع الرثاء .

يقول في رثاء الاخت الصغرى :

ماذا قست ما اخذن بنا غدا درٌن سرى عن الفؤاد وسلى .

اذن فخولة افضل من شقيقتها . لماذا ؟ لانه يحبها .

ثم رثاه لخولة نفسها حين وفاتها بعد خروجها من حلب .

يا اخت خير اخ يا بنت خير اب كنايه بهما عن اشرف النسب

اجل قدرك ان تسمى مؤبنة ومن يصفك فقد سماك للعرب

الى ان يقول :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ به بآمالي الى الكذب

حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فماذا يبكي الشاعر ؟ انه الحب والجوى . وسأثبت البعض من هذه القصيدة ولك انت ان تفسر وان تستخلص منها ما تشاء ، اما انا فقد قر رأيي انه كان يحبها ، فعاطفته الواضحة هي عاطفة محب ، ولوعته لوعة عاشق اضناه الهوى ، ونال منه الغرام وليست مجاملة فقط :

كأن خولة لم تملأ مواكبها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب

ولم ترد حياة بعد تولية ولم تغث داعياً بالويل والحرب

ارى العراق طويل الليل مذ نعيت

فكيف ليل فتى الفتيان في حلب

يظن أن فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب

بلى وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصاد والادب

ومن مضت غير موروث خلائقها

وان مضت يدها موروثة النشب

وهمها في العلى والمجد ناشئة وهم اترابها في اللهو واللعب

* * * * * * * * * * * *

ولا رأيت عيون الانس تدركها

فهل حسدت عليها أعين الشهب؟

وترك المتنبي حلب بعد ان احتال على اميرها من انه ذاهب الى احدى ضيعه القريبة ، ولكنه لم يكد يبعد عن حلب حتى اوغل في البعد في طريقه الى مصر ، وخروجه من حلب قصة ايضاً

قيل انه جرت مناظرة لغوية بينه وبين ابن خالويه النحوي ، في مجلس سيف الدولة وأدى بها الحديث والجدل الى النفور فالغضب ، فلم يكن من ابن خالويه الا ان وثب على المتنبي وكان في يده مفتاح ، فضرب به وجه المتنبي فشجه ، ولم يجد المتنبي من سيف الدولة انتصاراً له ، ولا دفاعاً عن كرامته فغضب وقرر الرحيل عن حلب واحتال بأمر الراحة والاستجمام ثم ارتحل بعيداً نحو دمشق ومنها الى مصر حيث نزل على كافور حاكم مصر آنذاك ، ويفارق سيف الدولة ولسانه يقول :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته ان الكرام بأسخام يداً ختموا

ولا تبال بشعرٍ بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

في ارض النيل

وصل المتنبي مصر سنة ست واربعين وثلاثمائة بعد ان فارق حلب بأشهر ، ولكن فراقه لحلب لم يذهب ذكرى اميره ، بل سيرافقه هذا الامير طوال عمره ، لانه لم يمر به مروراً عابراً ، بل انفي اليه ما لم يلقه عند غيره من الامراء فانتعش ماديا ومعنويا وادبيا ، ولم يقدر ان ينسى ديار الشام ، تلك الديار التي دفعت بشعره مراحل نحو الكمال والخلود ، تلك الديار العنيدة الجبارة الصارمة ، التي بقيت لها الآثار الخالدة دائما وابدا في شعره وفي عاطفته .

واتى المتنبي مصر وتركها ، وكأنه لم يدخلها ابدا ، فلم يكن للبيئة المصرية في شعره سوى القدر اليسير ، اذا كان شعره قد قسم بينه وبين ممدوحه فاذا القسم الاول نفخر والكبرياء ، والقسم الثاني الطموح والمدح والاستعطاف .

وكانت اهداف المتنبي وامانيه التي اعتقد انه قد نسيها اثناء اقامته في حلب في الوصول الى السلطة والحكم والاستقلال تعود اليه

وكأنما ذلك الظل الواسع الذي كان المتنبي ينعم في اثنائه في ديار الشام لم يجده على ضفاف النيل ولم يجد ايضا ما يشغل نفسه عن الاحداث ، فاذا بفكرة الاستقلال تعاوده هذه المرة ملحة عنيفة وحياة المتنبي في مصر ، وشعره في حاكمها ، كل هذا يدفع فيه الى الامر الذي طالما حلم به الشاعر ، وطالما عاش من اجله ، انه يريد الاستقلال ، ويرغب في السلطة ، وسيسخر من جديد لسانه وقلبه وعاطفته اذا احوج الامر ، والكبرياء التي حرص عليها ، سيسخر كل شيء في

سبيل السلطة

قلت ان المتنبي ترك ديار الشام ، وانتقل الى بلاد النيل ، ولكن عاطفته وقلبه لا زال الحنين والشوق يتغلب عليهما الى تلك الديار ، التي اشبعت نهم ذلك القلب الى حياة كلها الحركة ، وكلها التطاحن وكلها الحياة والقوة والعـــزم ، واقتحام المعـارك بـين حفق البنود ، ورنين السيوف ، فاذا بقيـت عاطفته نحو الشام ظاهرة في شعره ، وستبين بعد مرحلة قصيرة من وجوده في مصر عاطفة اخرى وخاصة هامة سبغت شعره ، تلك التي لم تكن سوى الظل الواضح من الحزن والحسرة والفجيعة ، ثم هذا النوع من الغناء الحزين ، ثم التهكم من حكام مصر ومهاجمة اهلها وخضوعهم وخنوعهم .

هل كان في جملة الشروط كي يشخص المتنبي الى كافور ، ان يمنحه هذا الاخير ولاية ينصرف بها كيف شاء . انا اعتقد هـذا ، ورب قائل ما هي فائدة شخوص المتنبي الى كافور . وماذا يجني كافور من شخوص المتنبي اليه حتى يعده بولاية ؟ على هذا نجيب ، من ان الشاعر في ذلك الوقت كان يقوم مقام وسائل الدعاية اليوم مـــن صحافة واذاعة وكتابة وخطابة ، فاذا كان لا بد لكافور ان يستغل هذه الصحيفة التي انتشر صيتها ، واذاعت بلاغتها في اكثر الاقطار بل في الاقطار الاسلامية بأسرها ، ونحن نرى اليوم كيف ان الجريدة المنتشرة القوية يتهافت عليه المعلنون والسياسيون ، انها المصالح والمنافع المتبادلة والمشتركة .

ولنعد الى اوائل ايامه في مصر ، ولنرى كيف يمدح الحاكم الذي اتى يطلب في ظلاله السلطان والمجد ، والذي ترك من اجل هـذا السلطان عشيره وصديقه واتجه اليه ، وسوف لا نطيل الحديث عن شعره في معرض هذه الدراسة لاننا سنفرد لها مكاناً في منتخباته .

قال يمدح كافوراً بهذه القصيدة التي مطلعها :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا

تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا ، او عدواً مداجيا

ولاحظ معي هذا التطلع الى سيف الدولة وذكره .

فراق ومن فارقت غير مذمم وأم ومن يممت خير ميمم

اذن فهو لا يذم سيف الدولة ، ولكنه يعجب من هذا الفراق الذي كتب عليه ، وكأنما المتنبي قد ادرك انه لن يبلغ لدى حاكم مصر ما يريد :

إغالب فيك الشوق والشوق اغلب

واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

ولكنه مع كل هذا يريد ان يتملق كافوراً حتى يصل الى هدفه .

قواصد كافورٍ توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

انه لا يريد ان يتملق كافوراً فحسب بل يريد ايضا ان يداعب ويغبط سيف الدولة ، ويعود المتنبي الى حاجته .

فقد ذهب الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

وكأنما كافور قد اطال عليه وعوده فلم يجد المتنبي مفراً من التصريح

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

وما انا بالباغي على الحب رشوةً ضعيف هوى يبغي عليه ثواب

وما شئت الا ان ادل عواذلي علي ان رأيي في هواك صواب

الى ان يقول :

اذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب

وما كنت لولا انت إلا مهاجراً له كل يوم بلدة وصحاب

ولكن الأسود باطله ولا يستجيب له .

ابالمسك هل في الكأس فضل اناله

فاني اغني منذ حين وتشرب

ويعرض بحاجته الى ان يقول :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وفي هذا البيت ، نلمس المتنبي بشخصيته التي تتعشق دائما ، فهي المسرورة حيث تجد الجميل ، وراضية حيث تجد العز والمجد .

وفي هذه الاثناء يتعرف المتنبي بأحد الامراء الشجعان ، والقراد المغاوير ألا وهو فاتك الاسدي ، فيمدحه بعد ان يكون قد نفض يده من كافور ، وانما تعمد ذلك كي يثير غيظ كافور .

ومدح المتنبي فاتكاً بعدة قصائد قال في مطلع احداها :

فلا يرتحل في المجد ما لك كله فيرتحل مجد كان بالمال عقده

ثم قصيدته الثانية :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

ولا بد ايضا من ان نشير الى ان استقبال كافور للمتنبي كان حافلاً ، ولم يبخل عليه بشيء مما يحتاج من وسائل الرفاهية والنعيم ... الا ان المتنبي

لم يكن يريد هذا فحسب .

وفي مصر بزغت حكمة الشاعر وفلسفته فهو الى كونه بصور الله ، وخوفه واغترابه ، ثم هذا اليأس الذي اطبق على نفسه ، اذا به يصدح في رياض الحكمة والنبوغ والمعرفة ، والتفلسف على هذه الحياة ومن فيها التي لم يجد منها سوى الفشل واليأس ، وفلسفة المتنبي في هذه المرحلة متشائمة ، قلت فلسفة ان صح ان نقول عن حكمه وتجاربه وآرائه وفلسفته ، ان فلسفته حياتية خاصة .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منـ ... ـه وان سر بعضهم احيانا

ربما تحسن الصنيع ليالي ... ولكن تكدر الاحسانا

وكانا لم يرض فينا بريب الدـ ... ـهر حتى اعانه من اعانا

كلما انبت الزمان قناة ... ركب المرء في القناة سنانا

ومراد النفوس اصغر من ان ... تتعادى فيه وان تفانى

اذن ما دام الدهر لم ينحفه في مصر ، وما دام اضحى في شبه سجن ، وما دام صاحبه كافور قد اخل بالشروط التي تعهد بها فليرحل عنها ، ورحل عنها حقاً الا انه ترك هذا الرحيل ضجة ما بعدها ضجة — سنذكر قصيدته في المنتخبات — .

ولكن الى اين سيرحل ، بل الى اين سيهرب من هذه الاسوار التي احاطها بها كافور هل سيعود الى سورية ، وهل الذي تركها على ما تركها ، وفي الشكل الذي لم يكن سيف الدولة راضياً عنه ، واستطاع المتنبي ان يفلت من اسوار كافور الى الصحراء الواسعة ولم تفلح البعثات التي

ارسلها كافور للقبض عليه ، لانه أوغل في الصحراء في طريقه الى العراق .

ودخل بغداد بعد الكوفة ، فأقام فيها سبعة اشهر او ثمانية الا انه لم يقل في هذه المرحلة شعراً ، وهو الذي لم ينجو من لسانه سلطان بغداد وامراءها عندما كان في حلب ، او في مصر ، فكيف يمدحهم الآن ؟ هل يمدح من شتمهم البارحة ؟ كلا . لن يفعل . بل فضل الصمت والسكون .

وقد يكون المتنبي قد فكر بالعودة الى حلب الا انه فكر بالعودة الى مسقط رأسه الى الكوفة ، يستقبل فيها امره بالتفكير والروية ، وعاد الى الكوفة حقاً ، وفي هذه الاثناء وردته هدية سيف الدولة فشكره باللامية المشهورة ، ثم نعيت اليه اخت سيف الدولة ، فرثاها بتلك القصيدة التي اتينا على ذكرها فيما سلف ، وفي هذه الاثناء يغير القرامطة على الكوفة فيقاتلهم المتنبي ، ويتناولهم بأقذع الالفاظ ، فيهجو داعياً بدوياً من دعاتهم ضبة بن يزيد الكلابي :

ما انصفَ القومُ ضبةَ وأمـه الـطرطبـهْ

وهي اقذع ما قال المتنبي في الهجاء .

اذن لقد تنكر لمذهبه القرمطي ، ولقد تنكر لأشياء وعقائد ، كانت لها مكانة وشأناً في حياته ذات يوم .

وفي هذه الاثناء يصله كتابان في وقت واحد ، احدهما من سيف الدولة يطلب منه الحضور اليه ، والثاني من ابن العميد يستزيره في ارجان ، فأرسل الى سيف الدولة يقول :

فهمت الكتاب ابَرَ الكتب فسمعاً لامرِ امـير العرب

اما جوابه ابن العميد فكان رحيله اليه .

ما اجدر الايام والليالي بان تقول ما له وما لي

وترك المتنبي عضد الدولة ، ممتلئاً بالهدايا والعطايا ، وانتهى الى واسط في شهر رمضان من سنة اربع وخمسين وثلاثمائة ، ونزل على صديق له يدعى ابن نصر محمد الجبلي ثم ترك بعد ان نصحه هذا الاخير بأن يسير معه حراسا في خدمته ، الا ان المتنبي رفض وعندما وصل في طريقه الى بغداد ، وبالقرب من دير العاقول ، تلقاه فاتك بن ابي جهل الاسدي واصحابه من الاعراب ، فكان بينه وبينهم اشد القتال ثم تكاثر فاتك برجاله فقتلوه وقتلوا صحبه ، واخذوا ماكان معه من المال والمتاع .

وتروى حول هذه المعركة قصة ، من ان المتنبي حاول الهرب الا ان غلامه قال له : « لا يتحدث الناس عنك بالفرار وانت القائل

الخيل ، والليل ، والبيداء تعرفني والسيف والرمح ، والقرطاس والقلم

فقال المتنبي : « قتلتني ، قتلك الله ! » وحمل على الاعداء فقتل ، وقتل ابنه محمد وغلامه مفلح .

ومن المؤكد ان فاتك قد انتقم لأبن اخته ، ثم انتقم لعقيدته اذ من المرجح انه كان من القرامطة المتعصبين .

لقد عاش المتنبي حياة حافلة ، ومات ميتة حافلة ايضا ولكن شعره احدث دوياً عظيما في عصره ، وما اعقبه من عصور .

والمتنبي شاعر جريء في فرض شعره ، سائغ في روعته ذلك الشعر الحياتي وقد يكون قد جارى الاقدمين في بعض الفنون الشعرية ، انما قد يفنى مع الزمن بعض آثار اولئك الاقدمين . ولكن شعر المتنبي سيبقى خالداً لانه يلائم كل مكان ، وكل زمان وقد يفنى ايضا ما ضعف من شعره وهو اليسير الا ان قصائده وامثاله وحكمه ستبقى انشودة الرجال في العصور المقبلة .

مختارات من شعره

المدح

مدح سيف الدولة وتهنئته بعيد الاضحى

قال يمدح سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى سنة ٣٤٢ هـ . (١٧ نيسان ٩٥٤) وانشده اياها في ميدانه بحلب ، وهما على فرسيهما :

لكل امرىء ، من دهره ، ما تعودا !
وعادت سيف الدولة الطعن في العدى ،
وان يُكذب الارجاف عنه بضده !
ويُمي ، بما تنوي اعاديه ، اسعدا .(١)
ورب مُريد ضره ، ضر نفسه ،
وهاد اليه الجيش اهدى ، وما هدى .
ومستكبر لم يعرف الله ساعة ،
رأى سيفه في كفه ، فتشهدا . (٢)

---

(١) الارجاف ، الاكثار من الاخبار الكاذبة .
(٢) تشهد : نطق الشهادة

هو البحر ! غص فيه ، اذا كان ساكناً ،
على الدر ، واحذره ، اذا كان مزبدا ،
فاني رأيت البحر يعثر بالفتى ،
وهذا الذي يأتي الفتى ، متعمدا .
تظل ملوكُ الارض خاشعة له :
تفارقه هَلْكى ، وتلقاه سُجَّدا
وتُحيي له المالَ الصوارمُ والقنا :
ويقتل ما تحيي التبسم والجدا (١)
ذكيٌّ ، تظنّيه طليعة عينه : يرى قلبُه ، في يومه ، ما ترى غدا
وصولٌ الى المستصعبات بخيله ، فلو كان قرنُ الشمس ماء لاوردا
لذلك سمّى ابن الدُّمُسْتُقِ يومَه مماتاً ، وسماه الدمستق مولدا (٢)
سريتَ الى جيحانَ ، من ارض آمدٍ
ثلاثاً ، لقد ادناك ركض وابعدا . (٣)
فولّى ، واعطاك ابنه وجيوشه جميعاً . ولم يُعط الجميعَ ليُحمدا
عرضتَ له دون الحياة وطرفه ، وابصر سيف الله منك ، مجرّدا

---

(١) الجدا : المنح
(٢) الدمستق لقب قائد جيش ارمينية
(٣) جيحان : نهر بناحية الثغور . آمد

وما طلبت رزق الاسنة غيره ولكنّ قسطنطين كان له الفدى ،
فاصبح يجتاب الرماح مخافة ،
وقد كان يجتاب الدلاصَ المسرّدا (١)
ويمشي به العكّاز في الدير تائباً وما كان يرضى مشي أشقر اجردا
وما تاب حتى غادر الكرُّ وجهه جريحاً ، وخلّى جفنه النقع ارمدا
فلو كان ينجي من عليّ ترهّبٌ
ترهّبت الاملاك متنّى وموحدا (٢)
وكل امرىء في الشرق والغرب ، بعده
يُعد له ثوباً من الشعر اسودا !
هنيئاً لك العيدُ الذي انت عيده وعيدٌ لمن سمّى ، وضحّى وعيدا !
ولا زالت الاعياد لبسك ، بعده تُسلّم مخروقاً ، وتُعطي مجدّدا !
فذا اليوم ، في الايام ، مثلك ، في الورى
كما كنت فيهم اوحداً ، كان اوحدا !
هو الجدُّ ! حتى تفضل العين اختها
وحتى يكونَ اليومُ ، لليوم ، سيدا (٣)

---

(١) فاصبح للضمير المستتر
(٢) الاملاك : الملوك . علي اخو سيف الدولة
(٣) الجد : الحظ

فيا عجبا من دائلٍ انت سيفُه! اما يتوقّى شفرتَيْ ما تقلدا؟(١)

ومن يحمل الضرغام، للصيد، بازه تصيّده الضرغام فيما تصيّدا!

رأيتك محض الحلم في محض قدرة

ولو شئتَ، كان الحلم منك المهنّدا (٢)

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم، ومن لك بالحرّ الذي يحفظ اليدا!

اذا انت اكرمت الكريمَ ملكته وان انت اكرمت اللئيم، تمرّدا!

ووضعُ الندى في موضع السيف، بالعلى

مضرٌ، كوضع السيف في موضع الندى (٣)

ولكنْ تفوق الناس رأياً وحكمة،

كما فقتهم، حالاً ونفساً ومحتدا.

يدقّ على الافكار ما انت فاعلٌ،

فيترك ما يخفى، ويؤخذ ما بدا.

أزلْ حسدَ الحسّاد عني، بكبتهم،

فانت الذي صيّرتهم لي حُسّدا، (٤)

---

(١) الدائل: ذو الدولة والمقصود به الخليفة

(٢) المحض: الخالص.

(٣) الندى: الجود.

(٤) كبت: اذله.

اذا شدَّ زندي حين رأيك فيهم
ضربتُ بسيفٍ يقطع الهام مغمدا . (١)
وما انا الا سَهمَري ، حملتَه فزيّن معروفاً ، وراعَ مسدّدا!
وما الدهرُ الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعراً ، اصبح الدهر منشدا :
فسار به مَن لا يسير ، مشمّراً وغنى به مَن لا يغني ، مغرّدا !
اجزني ، اذا انشدتَ شعراً ، فانما بشعري اتاك المادحون ، مردّدا
ودعْ كلَّ صوت غير صوتي ، فانني
انا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى !
تركْتُ السرى ، خلفي ، لمن قلَّ ماله
وانعلت افراسي ، بنعماك ، عسجدا (٢)
وقيّدت نفسي ، في ذراك ، محبّةً
ومن وجد الاحسانَ قيداً ، تقيّدا . (٣)
اذا سأل الانسان ابأمه الغنى
وكنتَ على بعدٍ ، جعلْتُك موعدا

---

(١) الهام : ج . الهامة : الرأس .
(٢) السرى : مشي الليل . العسجد . الذهب
(٣) الذرى . الكنف

قال المتنبي يمدحه ويذكر القلعة الحدث وانشده اياها بعد انتصاره على الدمستق ، في الحدث :

على قدرِ اهل العزم ، تأتي العزائم
وتأتي ، على قدر الكرام ، المكارم ،
وتعظم ، في عينِ الصغير ، صغارها
وتصغر ، في عين العظيم العظائمُ ،
يكلّف سيف الدولةِ الجيشَ همّه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارمُ ،(١)
ويطلب عند الناس ما عندنفسه وذاك ما لا تدّعيه الضراغم
يقدّي اتمّ الطير عمراً سلاحه ، نسور الفلا: احداثها والقشاعم(٢)
وما ضرّها خلقٌ بغير مخالب ، وقد خلقت اسيافه والقوائم(٣)
هل الحدثُ الحمراء تعرف لونها وتعلم اي الساقيين الغمائم ؟(٤)
سقتها الغمامُ الغرُّ قبل نزوله فلما دنا منها ، سقتها الجماجم (٥)

---

(١) الخضارم ، ج . الخضرم . الكثير من كل شيء . اي . يكلف الجيش ان يقوم بما تقضي به همته من الحروب والغزوات ، وهو امر تعجز عنه الجيوش الكثيرة ، ولكن جيش سيف الدولة لا يعجز

(٢) القشاعم ، المسنة من النسور

(٣) القوائم ، ج . قائم السيف ، وهو مقبضه

(٤) الحمراء ، تلطخها بدماء الروم

(٥) نزوله ، النصيب سيف الدولة

بناها فاعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

وكان بها مثل الجنون فهاجمت ومن جثث القتلى عليها تقائم (١)

طريدة دهر ساقها فردّدتها على الدين بالخطي والدهر راغم

تُفيت الليالي كل شيء أخذته وهن لما يأخذن منك غوارم

اذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

وكيف ترجي الروم والروس هدمها

وذا الطعن آساس لها ودعائم (٢)

وقد حاكموها والمنايا حواكم فماتت مظلوم ولا عاش ظالم

اتوك يجرّون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم

بناها فاعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم (١)
طريدة دهر ساقها فردّدتها على الدين بالخطي والدهر راغم
تُفيت الليالي كل شيء أخذته ومن لا يأخذن منك غرائمه
اذا كان ما تنويه فعلاً مضارعا مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

وكيف ترجي الروم والروس هدنها
وذا الطعن آساس لها ودعائم (٢)
وقد حاكموها والمنايا حواكم فماتت مظلوم ولا عاش ظالم
اتوك يجرّون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم (٣)
خميس بشرق الارض والغرب زحفه
وفي اذن الجوزاء منه زمازم (٤)
تجمّع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحدّاث الا التراجم

---

(١) التمائم . ج . تميمة . تعويذة
(٢) الروس . فئة من المرتزقة في الجيش البيزنطي . اصلهم من هنا لتوزيو وهم من الكلدانية
[٣] البيض . السيوف . الثياب والعمائم . استعارة للدروع والخوذ
[٤] الخميس . الجيش المؤلف من خمس فرق . الزمازم . ج . زمزمة . صوت الرعد

فلأنه وقت ذوّب النقس ناره فلم يبق الا صارم او ضبارم !
تقطّع ما لا يقطع الدرع والقنا وفرّ من الفرسان من لا يصادم (١)
وقفت ، وماني الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى ، وهو نائم
تمرّ بك الابطال ، كلمى ، هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم (٢)
تجاوزت مقدار الشجاعة ، والنهى
الى قول قوم : انت بالغيب عالم (٣)
ضممت جناحيهم على القلب ضمّة تموت الحوافي ، تحتها ، والقوادم
بضرب اتى الهامات ، والنصر غائب
وصار الى اللبّات ، والنصر قادم (٤)
حقرت الرديّنيات حتى طرحتها
وحتى كأنّ السيف للرمح شاتم ! (٥)
ومن طلب الفتح الجليل ، فانما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهم فوق الاحيدب كلّه
كما نثرت ، فوق العروس ، الدراهم (٦)

---

[١] تقطع : اي تكسر من السيوف ما لم يكن قاطعاً .
[٢] كلمى : جرحى . كلم : جرح
[٣] النهى : العقل
[٤] الهامات : الرؤوس . اللبات : اعالي الصدور
[٥] الرديّنيات : الرماح .
[٦] الاحيدب : جبل الحضن

تدوس بك الخيلُ الوكور على الذرى

وقد كثرت ، حول الوكور المطاعم

تظنّ فراخُ الفشّخ انك زرتها بأمّها ، وهي العتاقُ الصلادم .

اذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشّى ، في الصعيد ، الارقم

أفي كل يوم ذا الدمستقُ مقدمٌ؟ فقاه ، على الاقدام ، للوجه ، لاثم .

أينكر ريحَ الليث ، حتى يذوقه؟ وقد عرفت ريحَ الليوث البهائم

وقد فجعته بابنه ، وابن صهره وبالصهرِ ، حملات الامير الغوانم

مُضى ، يشكر الاسحاب ، في فوته الظُبى

لما شغلتها هامهم والمعاصم ، (١)

ويفهم صوتَ المشرفيّة ، فيهم على انّ اصوات السيوف اعاجم

يسرّ بما اعطاك ، لا عن جهالة ولكنّ مغنوما نجا منك غانم

ولستَ مليكاً هازماً لنظيره

ولكنك التوحيدُ للشرك هازم (٢)

تشرفُ عدنانٌ به ، لا ربيعةٌ وتفتخر الدنيا به ، لا العواصم

لك الحمدُ ، في الدرّ الذي لي لفظه فانك معطيه ، وأني ناظم .

---

[١] القلبى : جمع القلب ، المعاصم ، اطراف السواعد

[٢] الشرك ، القول بان لله شركاء في الوهيته

واني كتعدوبي عطاياك في الوغى فلا انا مذموم ، ولا انت نادم
على كل طيار اليها برجله اذا وقعت في مسمعيه الغماغم(١)
الا أيها السيف الذي ليس مُغمداً
ولا فيه مرتاب ، ولا منه عاصم -
هنيئا لضرب الهام ، والمجد ، والعلى
وراجيك ، والاسلام ، انك سالم !
ولم لا يقي الرحمن حدّيك ، ما وقى
وتفليقه هام العدى ، بك ، دائم ؟

مدح كافور

كافور هو عبد خصي ، كان غلمان الامير ابن طغج امير مصر يضحكونه في الاسواق كلما رأوه ، فيضحك . فقالوا : ان هذا الاسود خفيف الروح . وكلم ابو بكر محمد بن طغج صاحبه في بيعه ، فوهبه له ، فأقامه على وظيفة الخدمة . حتى توفي سيده ابو بكر ، عن ولد صغير ، وأخذت البيعة له . فتفرد كافور بخدمته ، وخدمة امه ، فقرب من شاء وابعد من شاء . ثم ملك الامر على ابن سيده ، وامر ان لا يكلمه احد من مماليك ابيه ، ومن كلمه اوقع به . فلما كبر ابن سيده ، وتبين ما هو فيه ، جعل يبوح بما في نفسه ، بعض الاوقات على الشراب . ففزع الاسود منه وسقاه سماً فمات ، وخلت مصر له . وهو الذي ذهب المتنبي اليه في مصر كما تقدم .

]٣[الغماغم . الاصوات المختلطة ، اي جلبة الحرب .

ومن مدائح المتنبي له هذه القصيدة ، وانشده اياها في جمادي الآخرة ٣٤٦ هـ (ايلول ٩٥٧)

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا !

وحسبُ المنايا أن يكنَّ امانيا !

تمنّيتُها . لما تمنيتَ ان ترى

صديقاً . فأعيا . او عدوّاً مداجيا ! (١)

اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة فلا تستعدنّ الحسامَ اليمانيا

ولا تستطيلنّ الرماحَ لغارة ولا تستجيدنّ العتاقَ المذاكيا

فما ينفع الاسدَ الحياءُ من الطوى ولا تُتّقى حتى تكونَ ضواريا.

حبيبتُك ، قلبي ، قبلَ حبّك مَن نأى

وقد كان غدّاراً . فكن أنت وافيا . (٢)

واعلمُ أن البينَ يُشكيك ، بعدَه

فلستَ فؤادي ، إن رأيتك شاكيا (٣)

فانّ دموعَ العين غُدرٌ بربها إذا كنّ ، إثرَ الغادرين ، جواريا!

---

[١] مداجياً ، اي مداريا

[٢] الطوى ، الجوع

[٣] البين ، البعد

اذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الاذى
فلا الحمد مكسوبا ، ولا المال باقيا

وللنفس اخلاقٌ تدلُّ على الفتى أكان سخاءً ما اتى ، ام تساخيا.
أقِلَّ اشتياقاً ، ايها القلب ، ربَّما رأيتك تصفي الوُدَّ من ليس صافيا
خُلقتُ ألوفاً ، لو رجعت الى الصِبى
لفارقت شيبي ، موجع القلب باكيا !

ولكنَّ بالقسطاط بحراً أزرْنه حيالَ ونُصحي والهوى والقوافيا
وجُرداً مددنا بين آذانها القَنا فبِتن خفافاً يتَّبعنَ العواليا (١)
تَمَاشى بأيدٍ ، كلها وافت الصفا تَقشَّرَ به صدر البزاة ، حوافيا
وتنظر من سودٍ صوادقَ ، في الدجى
يُدِرْن بعيداتِ الشخوص ، كما هيا
وتنصب ، للجَرسِ الخفيِّ ، سوامعاً
تَخِلْنَ مناجاةَ الضمير تناديا (٢)
تُجاذب فرسانَ الصباحِ أعِنَّةٌ كأن على الاعناق ، منها ، افاعيا
بغرمٍ يسير الجسم في السرجِ راكباً به ، ويسير القلبُ في الجسم ماشيا

---

[١] جرداً : قصار الشعر ، يريد بها الخيل
[٢] الجرس : الصوت

قواصد كافور ، توارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا (١)

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضا ، خلفها ، ومآقيا

نجوز عليها المحسنين الى الذي نرى عندهم إحسانه والاياديا (٢)

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا

الى عصره ، الا ترجي التلاقيا (٣)

ترفع عن عون المكارم قدره فليفعل الفعلات إلا عشاريا (٤)

يبيد عداوات البغاة بلحظه فان لم تبد منهم ، أباد الاعاديا .

ابا المسك ، ذا الوجه الذي كنت تائقا

اليه ، وذا اليوم الذي كنت راجيا ! (٥)

لقيت المروري والشناخيب ، دونه

وجبت هجيراً يترك الماء صاديا .

ابا كل طيب ، لا ابا المسك وحده وكل سحاب ، لا اخص الغواديا

يدل بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن ، فيك ، المعانيا .

---

[١] قواصد : حال من الجرد اي خيل ، والمراد اصحاب الخيل

«٢» نجوز ، تتخطى ، عليها ، الضمير للخيل - فيه تعريض ببني الدولة

«٣» الجدود ، الحظوظ

«٤» عون ، ج ، عوان ، المرأة المتزوجة

«٥» ابو المسك ، كنية كافور لسواده ، وهي على سبيل التفاؤل

اذا كسب الناس المعالي ، بالندى فانك تعطي ، في نداك ، المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع مَلْكاً للعراقين ، واليا
فقد ذهب الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافيا(١)
وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها ، وحاشاك ، فانيا!

مدح ابي العشائر

هو الحسن بن حمدان احد اقرباء سيف الدولة وعن يده اتصل المتنبي بسيف الدولة كما تقدم .

أتراها ، لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقةً في المآقي ؟
كيف ترثي التي ترى كل جفنٍ راءها — غير جفنها — غير راقي

* * *

ليس ، إلا ابا العشائر ، خلقٌ سادَ هذا الانام باستحقاق !
طاعنٌ الغامضة التي تطعن النجـ ـمَ ، بالذعر ، والدم الهراق
ذات فرغٍ ، كأنها في حشا المخـ ـبِر عنها ، من شدة الاطراق(٢)
ضارب الهام ، في الغبار ، وما يَر هب أن يشرب الذي هو ساقي .

* * *

ثاقب الرأي ، ثابت الحلم ، لا يقـ ـدرُ امرٌ له على إقلاقِ .

---

(١) العافي : القاصد للمعروف
(٢) الفرغ : مخرج الماء من الدلو

يا بني الحرث بن لقمان ، لا تَـ
ـدَّمكم ، في الوغى ، متون العتاق (١)
بعثوا الرعب ، في قلوب الاعادي
فكان القنال ، قبل التلاقي
وتكاد الظبى ، لما عوَّدوها تنتضي نفسها الى الاعناق .
واذا اشفق الفوارس من وقع القنا ، اشفقوا من الاشفاق (٢)
كلُّ ذمر يزداد ، في الموت ، حسناً كبدور تمامها في المحاق (٣)
جاعل درعه منيته ، إن لم يكن ، دونها من العار ، واقِ .
كرمٌ خشّن الجوانب منهم فهو كالماء ، في الشفار الرقاق (٤)
ومعالٍ ، اذا ادّعاها سواهم لزمته جنايةُ السراق .
يا ابنَ من كلما بدوتَ ، بدا لي غائبَ الشخص ، حاضرَ الاخلاق
لو تنكّرت ، في المكرِّ ، لقوم حلفوا ، أنك ابنه ، بالطلاق (٥)
كيف يقوى ، بكفك ، الزند ، والآ فاق فيها كالكفّ في الآفاق !
قلَّ نفع الحديد فيك ، فما يا قاك ، الا مَن سيفه من نفاق .

---

(١) بنو الحرث بن لقمان : آل الممدوح
(٢) الاشفاق ، الخوف
(٣) المحاق ، آخر ايام الشهر
(٤) الشفار ، ج : شفرة ، حد السيف
(٥) المكر : مكان الكر في الحرب

إلف هذا الهواء اوقع في الأ
نفسِ أن الحمام مرُّ المذاق
والأسى ،قبل فرقة الروح عجزٌ
والاسى لا يكون ، بعد الفراق!
كم ثراءٍ فرّجتَ بالرُمح عنه
كان ، من بُخل اهله ، في وثاق !
والغِنى في يدِ اللئيم قبيح
قدرَ قبحِ الكريم في الاملاق .
ليس قولي في شمس فعلك كالشمـ
ـسِ ، ولكن كالشمس في الاشراق
شاعرُ المجدِ خدنُه شاعر اللفـ
ـظِ ، كلانا ربُّ المعاني الدقاق !
لم تزل تسمع المديح ، ولكنْ
سهيلَ الجياد غير السُهاق .
ليت لي مثل جدِّ ذا الدهر ، في الأد
ـهر ، او رزقه من الارزاق !
انت فيه ، وكان كلُّ زمانٍ
يشتهي بعضَ ذا على الخلّاق !

مدح بدر بن عمار

هو بدر بن عمار الاسدي ولقد لزمه المتنبي فترة من الزمن وفي تلك الاثناء يلتقي بدر بأسد فيهرب الاسد منه ، وكان قد قتل اسداً قبل ذلك فيمدحه المتنبي بهذه القصيدة :

أمعفّرَ الليثِ الهزبرِ بسوطه
لمن ادخرتَ الصارمَ المصقولا ؟
وقمت على الاردنِ ، منه ،بلبّةٌ
تُضدت بها هامُ الرفاق تلولا
وَرْدٌ ، اذا وَرد البحيرة ، شاربٌ
وَرَد الفراتَ زئيرُه والنيلا .
متخضّب بدم الفوارس ، لابسٌ
في غيله ، من لبدتيه ، غيلا

ما قوبلت عيناه الا ظُنّتا تحت الدجى ، نارَ الفريق حلولا
في وَحدة الرهبان ، الا انه لا يعرف التحريمَ والتحليلا
يطأ الثرى مترفقاً ، من نيهه فكأنه آسٍ يجسّ عليلا
ويردّ عُفْرته الى يأفوخه حتى تصيرَ ، لرأسه ، إكليلا .(١)
وتظنه ، مما يُزجر ، نفسه عنها ، لشدّة غيظه ، مشغولا
قصرت مخافته الخطى ، فكأنما ركب الكميُّ جوادَه مشكولا .
القى فريسته ، ويَبْرُ دونها وقربت قرباً خاله تطفيلا .
فتشابه الخُلُقانِ في اقدامه وتخالفا في بذلك المأكولا
أسدٌ يرى عُضويه فيك ، كليهما متناً اذلّ ، وساعداً مفتولا .

* * *

ما زال يجمع نفسه في زوره
حتى حسبتَ العرضَ منه الطولا (٢)
ويدقُّ ، بالصدر ، الحجار كأنه يبغي الى ما في الحضيض سبيلا .
وكأنه غرّته عينٌ ، فادّنى لا يبصر الحطب الجليلَ جليلا .
أنف الكريم من الدنيئة تاركٌ في عينه ، العددَ الكثير قليلا(٣)

---

(١) العفرة : شعر القفا
(٢) الزور : وسط الصدر
(٣) الانف . والانفة . الاستنكاف .

والمارُ مَضّاضٌ ، وليس بخائف من حتفه ، مَن خاف ممّا قيلا (١)
سبق التقاءَكه بوثبة هاجمٍ لو لم تصادمه ، لجازك ميلا .
خذلته قوته ، وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضت منيّته يديه وعنقه فكأنما صادفته ، مغلولا .
سمع ابن عمته به ، وبحاله فنجا يهرول ، أمسِ ، منك ، مهولا
وامرؤٌ ممّا فرّ منه فراره ! وكفتله ان لا يموتَ قتيلا !
تانُ الذي اتخذ الجراءة خُلةً وعظَ الذي اتخذ الفرار خليلا !
لو كان علمك بالاله مقسماً في الناسِ ، ما بعث الاله رسولا
لو كان لفظك فيهم ، ما انزل الـ ـفرقانَ ، والتوراة ، والانجيلا .
لو كان ما تعطيهم ، من قبل ان تعطيهمِ ، لم يعرفوا التأميلا .
فلقد عُرفتَ ، وما عُرفت حقيقة ولقد جُهلتُ ، وما جهلتَ خمولا
نطقت بسؤددك الحمام ، تغنياً وبما تجشّمها ، الجياد ، صهيلا .
ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ، ولا كل الرجال فحولا .

---

(١) مضاض . مؤلم

الهجاء

هجاء كافور

أودع المتنبي الزمن هذه القصيدة الصارخة بعدان ماطل كافور طويلا ، ولم يسلمه الولاية التي كان قد وعده بها ، ثم مضى عنه بل عن مصر بأسرها ، عيدٌ بأيّة حالٍ عُدتَ يا عيدُ؟ بما مضى! أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ؟

أمّا الأحبّةُ فالبيداءُ دونهمُ فليتَ دونكَ بيداً دونها بيدُ!

لولا العلى، لم تجُبْ بي ما أجوبُ بها

وجناءُ حرفٌ، ولا جرداءُ قيدودُ(١)

* * *

يا ساقيَّ، أخمرٌ في كؤوسكما؟ أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ؟

أصخرةٌ أنا؟ مالي لا تحرّكني هذي المُدامُ، ولا هذي الأغاريدُ

إذا اردتُ كميتَ اللونِ، صافيةً وجدتُها، وحبيبُ النفسِ مفقودُ!

ما لقيتُ من الدنيا؟ واعجبهُ أنّي بما أنا شاكٍ منه محسودُ

أمسيتُ أروحُ مُثرياً بخازنا ويداً أنا الغنيُّ وأموالي المواعيدُ

إنّي نزلتُ بكذّابين، ضيفهمُ عن القِرى، وعنِ الترحالِ محدودُ(٢)

---

(١) الجرشاء . الضخمة الصدر . القيدود . الطويلة العنق

(٢) القرى . الطعام

جود الرجال من الايدي ، وجودهم
من اللسان . فلا كانوا ! ولا الجود !
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
الا ، وفي يده ، من نتنها ، عود .
اكلما اغتال عبد السوء سيده او خانه ، فله ، في مصر ، تمهيد ؟
صار الخصي إمامَ الآبقين ، بها فالحر مستعبدٌ والعبد معبود (١)
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد (٢)
العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه ، في ثياب الحر ، مولود .
لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد !
ما كنت احسبني احيا الى زمن يسيء بي فيه عبد ، وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا
وأن مثل ابي البيضاء موجود (٣)
وأن ذا الاسود المثقوب مشفره
تطيعه ذي العضاريط الرعاديد (٤)

---

(١) الآبقين . ج : الآبق ، الهارب من سيده
(٢) بشم : اصابته تخمة من كثرة الاكل ، نواطير مصر ، حاداتها ، ثعالبها ، العبيد امثال كافور ، العناقيد ، الامراء
(٣) ابو البيضاء ، كنى بذلك كافوراً من باب السخرية والهزء
(٤) المشفر ، شفة البعير ، استعاره لكافور تحقيراً ، العضاريط ، ج العضروط ، الذي يقدم بطنه ، الرعديد ، الجبان

جوعان ، يأكل من زادي ، ويمسكني

حتى يقالَ : « عظيمُ القدر مقصود »

ويلُمّها خطةً ! ويلُمِ قابلها ! لمثلها خُلق المهريّة القود !

وعندها لذّ طعمَ الموت شاربُه ان المنية ، عند الذل ، قنديد! (١)

من علّم الأسود المخصيّ مكرمةً ؟

أقومه البيض ، ام آباؤه الصيد ! (٢)

ام أذنُه ، في يـد النخاس ، دامية ؟

ام قدره ، وهو بالفلسين مردود (٣)

وفى الشام كويفيرٌ بمعذرة

في كل لؤمٍ وبعض العذر تفنيد (٤)

وذاك أنّ الفحولَ البيض عاجزةٌ

عن الجميل ، فكيف الخصية السود !

«١» القنديد عصير قصب السكر

«٢» الصيد ، ج أصيد ، السيد المطعم

«٣» النخاس ، بائع العبيد

«٤» كويفير ، تصغير كافور ، للاحتقار

هجاء بن كيلغ

من هجائه لابن كيلغ بعد ان امتنع عن مدحه :

لهوى النفوس سريرة لا تُعلم ! عرضاً نظرتُ ، وخلتُ أني اسلمُ

يا أختَ معتنقِ الفوارس في الوغى

لأخوكِ ثمَّ ارقَّ منك وارحم !

راعتكِ رائعة البياض بمفرقي ولو أنها الاولى ، لراع الأسحم

لو كان يُمكنني سفرتُ ، عن الصبى

فالشيبُ ، من قبل الأوان ، تلثُّم.

ولقد رأيت الحادثات فلا ارى يَقَقاً يميت ، ولا سواداً يعصم.(١)

والهمُّ يخترم الجسيمَ نحافةً ويُشيب ناصيةَ الصبي ، ويُهرِم(٢)

ذو العقل يشقى ، في النعيم ، بعقله

واخو الجهالة ، في الشقاوة ، ينعم !(٣)

والناس قد نبذوا الحفاظ ، فمطلَقٌ

ينسى الذي يولى ، وعافٍ يندم .

---

(١) اليقق : الابيض ، الشيب

(٢) يخترم : يهلك

(٣) ينعم لفظة مكروه

لا يخدعنك : من عدوٍّ ، دمعُه

وارحم شبابك ، من عدوٍّ ، ترحمُ .

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراقَ ، على جوانبه : الدم !

يؤذي القليلُ ، من اللئام ، بطبعه من لا يقلُّ ، كما يقلُّ ويلؤمُ

والظلم من شيَم النفوس ، فان تجد ذا عفة ، فلعلّة لا يظلم !

ومن البليّة عذلُ من لا يرعوي عن غيّه . وخطابُ من لا يفهم

* * *

الرثاء

رثاء جدته

رثى المتنبي جدته بهذه القصيدة ، وكانت لهذه الجدة منزلة رفيعة في نفسه ويقال انها ماتت من الفرح بعد ان وصلتها رسالة منه وكانت قد يئست من عودته :

ألا! لا أري الأحداثَ مدحاً ولا ذمّا ؟

فما بطشها جهلا ، ولا كفُّها حلما .(١)

الى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتى

يعودكما أبدي ، ويُكري كما أُرمى .

لك اللهُ ؟ من مفجوعة بحبيبها قتيلةِ شوقٍ غير مُلحقها وصما ؟

أحن الى الكأس التي نربتْ بها

وأهوى ، لمثواها ، التراب وما ضما (٢)

بكَيتُ عليها ، خِيفةً في حياتها

وذاق كلانا ثُكلَ صاحبه ، قِدْما (٣)

* * *

(١) الأحداث : نوب الدهر

(٢) الكأس : المراد بها كأس الموت . الثوى : المقام ، اراد به القبر .

(٣) الثكل : الفقد

عرفتُ الليالي ، قبلَ ما صنعت بنا
فلمّا دهتني ، لم تزدني بها علما ؟

* * *

أتاها كتابي ، بعد يأسٍ وترحةٍ
فماتت سروراً بي ، فمتُّ بها غمّا . (١)
حرامٌ عليّ السرور ؟ فانني
اعدُّ الذي ماتت به ، بعدها ، سما (٢)
تعجّبُ من لفظي وخطي ، كأنما
ترى بحروف السطر أغربةً عُصما
وتلثمه ، حتى أصار مِداده
محاجرَ عينيها وانيابَها سُحما . «٣»
رقا دمعُها الجاري ، وجفّت جفونُها
وفارق حبي قلبَها ، بعد ما ادمى «٤»

---

(١) الترحة : الحزن
(٢) به : الضمير للسرور . — اشارة الى انها ماتت سروراً .
(٣) السحم . ج . الاسحم . الاسود .
(٤) رقا الدمع . انقطع — المعنى

ولم يُسْلِمها الا المنايا ، وانما
اشدُّ من السقْم الذي اذهب السُقما
طلبت لها حظاً ، فسانت ، وفاتني
وقد رضيت بي ، لو رضيت بها قسما.
فاصبحت استسقي الغمام لقبرها
وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصما .
وكنت ، قُبيلَ الموت ، استعظم النوى
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
هَبيني اخذت النارَ فيكِ من العدى ؟
فكيف باخذ النار فيك من الحمى ؟
وما انسدّت الدنيا عليَّ لضيقها ولكنْ طرفاً لا أراكِ به أعمى
فوا أسفا ألا أكبَّ مقبلاً
لرأسك والصدرِ الذي مُلئا حزْما؟
وألاَّ ألاقي روحكِ الطيبَ الذي
كأن ذكيَّ المسك كان له جسما ؟
ولو لم تكوني بنتَ اكرمِ والدٍ
لكان اباك الضخْمَ كونُكِ لي أمّا

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لائمهم دعما
تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً ، إلا لخالقه ، حكما
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجداً ، إلا لكرمة ، طعما
يقولون لي : « ما أنت ؟ » في كل بلدة
« وما تبتغي ؟ » ما ابتغي جل أن يسمى
كأن بنيهم عالمون بأنني جلوب اليهم ، من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار ، في يدي
بأصعب من ان اجمع الجد والفهما «١»
ولكنني مستنصر بذبابه
ومرتكب في كل حال به الغشما «٢»
وجاعله ، يوم اللقاء تحيتي
وإلا فلست السيد البطل القرما «٣»
اذا قل عزمي ، عن مدى ، خوف بعده
فابعد شيء ممكن لم يجد عزما

«١» الجد . الحظ
«٢» الذباب . الحد . الغشم
«٣» القرم ، متقدم القوم

وإني لمن قومٍ كأن نفوسهم
بها أنفٌ أن تسكن اللحمَ والعظما «١»

كذا انا ، يا دنيا اذا شئتِ فاذهبي
ويا نفسِ ، زيدي في كرائهها قدما ؟

فلا عبرتٌ بي ساعةٌ لا تعزّني ؟
ولا صحبتني مهجة تقبل الظُلما

رثاء ام سيف الدولة

ماتت ام سيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) فقال يرثيها ويعزي الامير ومن هذه قصيدة :

تُعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتالِ
وترتبط السوابق مُقربات وما يُنجين من خبَب الليالي «٢»
ومن لم يعشقِ الدنيا قديماً ولكن لا سبيلَ الى الوصالِ
تصيبك في حياتك ، من حبيب نصيبك ، في منامك ، من خيالِ
رماني الدهرُ بالأرزاء ، حتى فؤادي في غشاء من نبال «٣»
فصرت ، اذا اصابتني سهامٌ تكسّرت النصالُ على النصال
وهانَ ، فما أُبالي بالرزايا لاني ما انتفعت بان أُبالي .

«١» الانف ، الاستنكاف

«٢» السوابق ، صفة للخيل ، مقربات اي قريبة من البيت ، الخبب ، نوع من الركض يكون بالمراوحة بين اليدين والرجلين

«٣» الارزاء المصائب

وهـذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال
كأن الموت لم يفجع بنفس ولم يخطر لمخلوق ببال !
صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال (١)
على المدفون ، قبل التراب ، صوناً وقبل اللحد ، في كرم الخلال !
فانّ له ، ببطن الارض ، شخصاً جديداً ذكرناه ، وهو بالي .
أطاب النفس أنك ميت موتاً تمنّته البواقي والحوالي .
وزلت ، ولم ترَ يوماً كريهاً تُسرّ النفس فيه بالزوال . (٢)
رواق العز فوقك مُسطرٌ وملك على ابناك في كمال (٣)
سقى متوالٍ غادٍ ، في الغوادي نظير نوالِ كفك ، في النوال ! (٤)
وليست كالاثاث ، ولا اللوانى تُعدّ لها القبور من الحجال (٥)
ولا مَن في جنازتها تجارٌ يكون وداعها نفضَ النعال
مشى الامراء ، حولَيها ، حُفاةً كأن المرءَ من زِفِ الرئال (٦)

---

(١) الصلاة : هنا يقصد بها الرحمة والمغفرة . الحنوط : طيب تعالج به جثة الميت لتحفظ من الفساد . الوجه المكفن بالجمال : اشارة الى ان الميت لم يغير محاسنها .
(٢) زلت : انقضت
(٣) مسطر : ممتد
(٤) المتوى : المقام
(٥) الحجلة : الستر
(٦) الرئال : ولد النعام .

وأبرزت الحدود مخبآت
يضمن النقس أمكنة الغوالي (١)

أتنهن المصيبة ، غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال .
ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال !
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال !
وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد ، مفقود المثال !
يدفن بعضنا بعضاً ، وتمشي أواخرنا على هام الأوالي .
ولم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال
ومنض ، كان لا يغشى لخطب وبال ، كان يفكر في المنزال
أسيف الدولة ، استنجد بصبر وكيف بمثل صبرك للجبال

وأنت تعلم الناس التعزي
وخوض الموت في الحرب السجال (٢)
وحالات الزمان ، عليك ، شتى وحالك واحد في كل حال (٣)
رأيتك ، الذين ارى ملوكاً كأنك مستقيم في محال (٤)

---

(١) النقس : الحبر
(٢) السجال التراوح بين فريقين
(٣) شتى : متفرقة .
(٤) المحال : المعرج .

فان تفُقِ الانام وانت منهم فان المسك بعضُ دمِ الغزال

رثاء اخت سيف الدولة

كان ابو الطيب في الكوفة سنة ٩٦٣ ، فورده نعي اخت سيف الدولة وكانت قد توفيت في ميا فارقين . فكتب الى اخيها في حلب يرثيها ويعزيه ومن الأرجح ان المتنبي كان يجمل لهذه السيدة الحب الصادق والعاطفة المخلصة كما تقدم ، فجعله يسلك بشعره هذا المسلك الزاخر بالاحاسيس والمشاعر التي ستبينها في هذه القصيدة الرائعة :

يا أختَ خيرِ أخٍ ، يا بنتَ خيرِ أبِ
كنايةً بهما عن أشرف النسبِ
أجل قدرَكِ أن تُسمّي مؤبنةً ومن يَصِفُكِ فقد سمّاكِ للعرب
لا يملك الطربُ المحزونُ منطقَه
ودمعَه ، وهما في قبضة الطَّرَب .
غدرتَ ، يا موت ! كم أفنيتَ من عَدد
بين أصبت او كم اسكتَّ من لَجَب ! (١)
وكم صحبتَ أخاها في منازلة !
وكم سألتَ ! فلم يبخلْ ، ولم تخِبِ !
طوى الجزيرةَ ، حتى جاءني ، خبرٌ
فزعت فيه بآمالي الى الكذبِ

---

(١) اللجب : الضجة ، واختلاط الاصوات .

حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي(١)
تعثرت به ، في الافواه ألسنها
والبرد في الطرق، والاقلام في الكتب.
ادى العراق طويل الليل ، مذ نعيت
فكيف ليل فتى الفتيان ، في حلب ؟
يظن أن فؤادي غير ملتهب وأن دمع جفوني غير منسكب؟
بلى ! وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد، والقصاد والادب
ومن مضت غير موروث خلائقها
وان مضت يدها موروثة انتشب (٢)
وهمها في العلى والمجد ، ناشئة وهم أترابها في اللهو واللعب

* * *

يا احسن الصبر ، زر أولى القلوب بها
وقل لصاحبه : « يا انفع السحب
واكرم الناس ، لا مستثنياً احداً
من الكرام ، سوى آبائك النجب

---

(١) شرق : غص
(٢) الخلائق : ج . الخليقة . الصفة الحسنة . انتشب : المال

قد كان قاسمك الشخصين دهرهما وعاش درهما المفدي بالذهب
وعاد، في طلب المتروك تاركه انا لنغفل، والايام في الطلب؟
ما كان اقصر وقتاً كان بينهما!
كأنه الوقت بين الورد والقرب(١)
جزاك ربك، بالاحزان، مغفرة!
فحزن كل اخي حزن أخو الغضب.
وانتم نفر، نسخو نفوسكم
بما يهينَ، ولا يسخونَ بالسلب(٢)
حللتم من ملوك الارض كلهم
محل سمر القنا، من ساز القصب(٣)
فلا تنلكَ الليالي! إن ايديها
اذا ضربنَ، كسرنَ النبع بالغرب(٤)
ولا يُعِنَّ عدواً انت قاهره!
فانهنَّ يصدنَ الصقر بالحرب.

---

(١) الورد: اتيان الماء للشرب. القرب: السير في قبل ان الماء
(٢) النفر: الجماعة. يسخون: الضمير لنفوسكم
(٣) القنا: الرماح
(٤) النبع: شجر صلب العود تؤخذ منه القسي، ومن اغصانه السهام. الغرب: شجر لين الاغصان ضعيف

وان سرَرْنَ بمحبوبٍ ، فجِئْنَ به
وقد أنِينَك ، في الحالين ، بالعجب .

وربما احتسب الانسانُ غايتَها وفاجأته بأمرٍ غير مُحْتَسَب (١)

وما قضى احدٌ ، منها ، لُبانته
ولا انتهى أربٌ إلا الى أرب . (٢)

تخالفَ الناس ، حتى لا اتفاقَ لهم
إلا على شجبٍ والخُلف في الشجب (٣)

فقيل : تخلُص نفسُ المرء سالمةً
وقيل : تشرَكُ جسم المرءِ في العطب

ومن تفكرَ في الدنيا ، ومُهجتِه
أقامه العكرُ بين العجزِ والتعبِ ! (٤)

---

(١) غاية الشيء : نهايته
(٢) اللبانة والأرب : الحاجة في النفس
(٣) الشجب : الهلاك . الخلف : الخلاف .
(٤) المهجة : الروح

رثاء عمة عضد الدولة

توفيت عمة عضد الدولة في بغداد ، وكان ابو الطيب عند هذا الملك ، في شيراز ، سنة ٩٦٥ ، فقال يرثيها ويعزيه :

آخرُ ما الملكُ معزًّى بهِ هذا الذي أثَّر في قلبهِ !

* * *

لو درت الدنيا بما عنده لاستحيت الايام من عتبهِ !

* * *

لا بدَّ للانسان من ضجعة لا تقلب المضجعَ عن جنبهِ(١)

ينسى بها ما كان من عُجبهِ وما اذاق الموتُ من كربهِ

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعافُ ما لا بدَّ من شربهِ !

تبخل ايدينا بارواحنا على زمانٍ ، هنَّ من كسبهِ !

فهذه الأرواح من جوّهِ وهذه الاجساد من تربهِ !

لو فكرَ العاشق في منتهى حسن الذي يسبيهِ ، لم يسبهِ !

* * *

يموت راعي الضأن ، في جهله ميتةَ جالينوس ، في طبهِ

وربما زاد على عمرهِ وزاد في الامن على سربهِ .

---

(١) الضجعة : اسم مرة من ضجع بمعنى اضطجع . المراد به الموت

وغايةُ المفرط في سلمه كغاية المفرطِ في حربه
فلا قضى حاجته طالبٌ فؤادُه يخفق من رُعبه!
أستغفر الله لشخصٍ مضى كان نَداه منتهى ذنبه
وكان مَن عدد إحسانه كأنما افرط في سببه
يزيد، مَن حبِّ المُلى، عيشَه ولا يريد العيشَ من حُبه
يحسبه دافنُه وحدَه وحده في القبرِ من صحبه

الفخر

كنا قد ذكرنا في معرض دراستنا الشيء الوافر من فخره ، ونثبت هنا امثلة من ذلك الفخر ، في هذه القصيدة التي يمدح بها سيف الدولة يقترن المدح بالفخر كما نرى .

واحر قلباه

١) واحرَّ قلباه ممَّن قلبُه شبِم
ومن ، بجسمي وحالي ، عنده ، سقَم
ما لي أكتمُ حباً قد برى جسدي ،
وتدعي حب سيف الدولة الامَمُ ؟
ان كان يجمعنا حبٌّ لغرَّتهِ ،
فليت أنَّا ، بقدر الحبِّ ، نقتسم !
قد زرته ، وسيوف الهند مغمدةٌ ،
وقد نظرت اليه والسيوف دم ،
فكان أحسنَ خلق الله كلهِم ،
وكان أحسنَ ما في الاحسنِ الشيمُ .
فوت العدوِّ ، الذي يممته ، ظفَرٌ ،
في طيه أسفٌ ، في طيه نِعَمُ .

قد ناب عنك شديدُ الخوف ، واصطنعت
لك المهابةُ ما لا تصنع البُهَمُ ،
ألزمتَ نفسك شيئاً ليس يلزُمها
أن لا يواريَهم أرضٌ ولا علَمُ
اكلّما رُمت جيشاً فانثنى هربا
تصرّفت بك في آثاره ، الهِمَمُ
عليك هزمهم في كل معترك
وماعليك بهم عارٌ ، اذا انهزموا
اما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللِمَمُ
يا أعدلَ الناس ، إلا في معاملتي
فيك الخصام ، وانت الخصم والحَكَمُ
أعيذها نظراتٍ منك صادقةً
ان تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورم
وما انتفاع اخي الدنيا بناظره
اذا استوت ، عنده ، الانوارُ والظُلَمُ

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بانني خير من تسعى به قدم!
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من به صمم!
انام، ملء جفوني، عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاها، ويختصم
وجاهلٍ مدّه في جهله ضحكي
حتى انتهه يدٌ فراسةٌ وفم
اذا رأيتَ نيوبَ الليث بارزةً
فلا تظنن ان الليث يبتسم!
ومهجةٍ مهجتي من همّ صاحبها ادركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض، رجلٌ، واليدان يدٌ
وفعله ما تريد الكفُّ والقدم
مرهف سرت، بين الجحفلين، به
حتى ضربت، وموج الموت يلتطم!

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت ، في الفلوات ، الوحش منفرداً
حتى تعجّب مني القُور والاكم
يا من يعزُّ علينا ان نفارقهم
وجداننا كلَّ شيء ، بعدكم ، عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة لو ان امركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح ، اذا ارضاكم ، ألم
وبيننا ، لو رعيتم ذاك معرفةٌ ان المعارف ، في اهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً . فيعجزكم ويكره الله ما تأتون ، والكرم
ما ابعد العيب والنقصان ، عن شرفي
انا الثريا ، وذان الشيبُ والهرم
ليت الغمام ، الذي عندي صواعقه
يزيلهنَّ الى من عنده الديم
ارى النوى يقتضيني كلَّ مرحلةٍ
لا تستقلُّ بها الوخّادةُ الرُّسُم

ان تركن ضيراً عن ميامننا ليجدنّ ، لمن ودعتهم ، ندمُ!
اذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا ان لا تفارقهم ، فالراحلون همُ
شر البلاد مكانٌ لا يديق به
وشرُّ ما يكسبُ الانسان ما يَصِمُ
وشر ما قنصته راحتي قنصٌ شهب البزاة سواء فيه والرخمُ
بأي لفظ تقول الشعر زعنفةٌ
تجوز عندك ، لا عُرب ولا عجمُ
هذا عتابك ! الا أنهُ مقةٌ قد ضُمِّن الدرّ ، الا أنه كلمُ

المجد والمال

من قصيدة مدح بها كافوراً :

اود من الايام ما لا تودّه واشكو اليها بيننا ، وهي جنده (١)
واتعب خلق الله من زاد همه
وقصر ، عما تشتهي النفس وُجده (٢)
فلا يَنْجلي ، في المجدَ ، مالُك كلّه
فينحلّ مجدٌ كان بالمال عقدُه (٣)

---

(١) بيننا : فراقنا . جنده : الصبر الجميل أي هي التي تقوم بالتفريق
(٢) الهم : بمعنى الهمة . الوجد : الغنى ، فاعل قصر . — المعنى : اتعب الناس من زادت همته ، وقصرت طاقته عن قضاء مراده
(٣) فلا ينجلي ... : اي لا تنفق كل مالك في سبيل المجد ، فبتيم ذلك المجد الذي انما يكون بالمال

ودبّره تدبير الذي المجدُ كفه

اذا حارب الاعداء ، والمال زنده (١)

فلا مجدَ في الدنيا لمن قلّ ماله

ولا مالَ في الدنيا ، لمن قلّ مجدُه

وفي الناس من يرضى بيسور عيشه

ومركوبه رجلاه ، والثوب جلده (٢)

ولكن قلبا ، بين جنبي ، ماله

مدى ينتهي بي في مراد أُحدّه (٣)

يرى جسمه يكسى شفوفا ترُبه

فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه (٤)

هؤلاء البشر

أفاضل الناس اغراض لدى الزمن

يبلو بهم الهم اخلاقٍ من الفطن

---

١) ثروه : تضحيته المال .

٢) والثوب جلده : اي عريه .

٣) المدى : الغاية . المراد : المقتول . احده : اجعل له حدا .

٤) يرضى : يضحي بثياب . الشفوف : ج . الشف : الثوب الرقيق . تربه : تلبسه

وانما نحن في جيل سوَاسية
شر على الحر من سُقم على بدن!
حولي ، بكل مكان ، منهم خلق
تخطي ، اذا جئت ، في استفهامها ، بمن
لا اقتري بلداً الا على غرر ولا امر بخلق غير مضطغن(١)

ارائب

فؤادٌ ما تسليه المدام! وعمرٌ مثل ما تهب اللئام
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارٌ ولو كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم ، بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
ارائبُ! غير انهم ملوكٌ مفتحةٌ عيونهم ، نيامُ
بأجسامٍ بحرّ القتل فيها وما اقرانها الا الطعام

طريق المجد

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ، ومعي الصبر؟

---

(١) مضطغن : حاقد

واشجع مني ، كل يوم ، سلامتي! وما ثبتت إلا وفي نفسها أمرُ!
تمرّست بالآفات حتى تركتها
تقول: «أمات الموتُ ؟ ام دُعرَ الذعرُ»
واقدمت إقدامَ الأبيّ ، كأنّ لي
سوى مهجتي ، او كان لي عندها وترُ!
ذرِ النفس تأخذْ وُسعها ، قبل بينها
فمفترقٌ جاران دارهما العمرُ!
ولا تحسبنّ المجد زقًّا وقينةً
فما المجد إلا السيفُ ، والفتكةُ البكرُ
وتضريبُ اعناق الملوك ، وأن تُرى
لك الهبواتُ السودُ والعسكر المجرُ
وتركك ، في الدنيا ، دويًّا كأنّما تداولَ سمعَ المرءِ انمله العشرُ
اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبةٍ ، فالفضل فيمن له الشكرُ
ومن يُنفق الساعات ، في جمع ماله
مخافة فقر ، فالذي فعل الفقرُ

نضال

أقل فعاني - بله اكثره ! - مجد !
وذا الجد فيه ، نلت أم لم أنل ، جد (١)
سأطلب حقي بالقنا ، ومشايخ
كأنهم ، من طول ما التثموا ، مرد
ثقال اذا لاقوا ، خفاف اذا دعوا
كثير اذا شتدوا ، قليل اذا عدوا
وطعن ، كأن الطعن لا طعن عنده
وضرب كأن النار ، من حره ، برد
اذا شئت حفت بي ، على كل سابح
رجال كأن الموت في فمها شهد (٢)
أذم ، إلى هذا الزمان ، اهيله فاعلمهم فدم ، واحزمهم وغد (٣)
وأكرمهم كلب ، وابصرهم عم واسهدهم فهد واشجعهم قردا
ومن نكد الدنيا على الحر ان ترى
عدواً له ، ما صداقته بد (٤)

---

[١] القالا : مصدر ، بله : اسم فعل بمعنى : دع ، اجد : الاستيلاء ، الجد : الحظ ، المعنى : ان نقل فعلي مجد ، فلا اسأل عن اكثره ، وان اجتهادي في طلبه حقه لم على كل حال
[٢] السابح : الفرس السريع
[٣] اهيله : تصغير اهل للاحتقار ،
[٤] النكد : ضد الخير ، الحر : الكريم

الحكم والامثال

وكنا ايضا قد اتينا على شيء من الحكم في شعر المتنبي ونزيد هنا بعض الامثلة والتي اصبحت مضرب الامثال . وكل ذلك وليد تجارب خاصة لصارعته الدهر ومقارعته الايام .

عيش الذليل

لا افتخارٌ إلا لِمَنْ لا يضامُ : مدركٌ ، او محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرّض المرءُ فيه ! ليس همّاً ما عاق عنه الظلام!
واحتمالُ الاذى ، ورؤيةُ جانيـ ـه غذاءٌ تضوى به الاجسام
ذلّ من يغبط الذليلَ بعيشٍ ! ربّ عيش اخفُّ منه الحمام!
كلُّ حِلمٍ اتي بغير اقتدارٍ حُجّةٌ لاجيءٌ اليها اللئام
من يهن يسهل الهوانُ عليه ما لجرح بميّتٍ ايلامُ!

تقديره للرأي

الرأي قبل شجاعة الشجعان! هو اولٌ وهي المحلُّ الثاني!
فاذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ بلغت ، من العلياء ، كلَّ مكان!
ولربما طعن الفتى اقرانه بالرأي ، قبل تطاعن الاقرانِ!
لولا العقول لكان ادنى ضيغمٍ ادنى الى شرفٍ من الانسانِ!

حكم متفرقة

اذا غامرت ، في شرفٍ مرومٍ فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في امر حقيرٍ كطعم الموت في امر عظيم

*

كريشةٍ ، في مهب الريح ، ساقطةٍ لا تستقرُّ على حالٍ من القلق

*

وقد يتزيا بالهوى غير اهله
ويستصحب الانسان من لا يلائمه!

*

واذا كانت النفوس كباراً تعبت ، في مرادها ، الاجسام!

*

ان السلاحَ جميعُ الناس تحمله وليس كل ذوات المخلبِ السبع!

*

ومن سر اهلَ الارض ، ثم بكى أسى
بكى بعيون سرها ، وقلوبِ

*

ومن صحب الدنيا طويلا ، تقلبت
على عينه ، حتى يرى صدقها كذبا

*

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما يعتاده من توهّم!

فاحسن وجهٍ، في الورى، وجه محسن
وايمن كفٍّ، فيهم، كفُّ منعم!

*

تُريدين إدراك المعالي رخيصةً
ولا بدّ، دون الشهد من إبر النحل!

*

اذا اشتبهت دموعٌ في خدودٍ تبيّن من بكى ممن تباكى!

*

ولذا اتتك مذمتي، من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كامل!

*

واذا ما خلا الجبان بأرضٍ طلب الطعن، وحده، والنزالا!

*

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له اذا لم يكن في فعله والخلائقِ!

هذا جناه ابي علي وما جنيت على أحد

المعري ، المفكر الذي يمثل الذهن الانساني ، في اوسع حقوله

المعري ، ذلك الفنان الذي رسم لنفسه ولمجتمعه صورة حية مثلت في الوقت نفسه خصائص فنه وادبه وعبقريته .

اذن لنلتمس هذه الصورة فيما انشد المعري من شعر ، وفيما اطلق من ارائه .

سأبدأ دراستي لهذا الفنان ... وانا اعتبر المعري فنانا، سأبدأ دراستي من حيث انتهى هو ، او من حيث اعتبرنا نحن انه انتهى .

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد .

هذا ما اوصى ان يكتب على قبره .

ولكن ما هي الجناية التي ساقها عبد الله بن سليمان بن محمد بن داود على والده ، حتى يتوجب هذه التهمة يلصقها به ولده وفلذة كبده .

لي هنا بعض الرأي يخالف الكثير من الاراء وهو :

اجل ، لقد جنى عبدالله على والده . لقد جنى المعرفة ، اوليست المعرفة جناية مثل المعري ، اوليست المعرفة كسجن رهيب لنفس حساسة ، ولقلب كبير ، وعقل لا يهدأ ولا يستقر إلا وقد بلغ مرحلة لا تستوي عندها كل العقول ؟

المعرفة جناية لأنها تشقي صاحبها . اليس هذا حق ؟

ولد ابو العلاء بن عبد الله ... نهار الجمعة ٢٧ ربيع الاول ٣٦٣ هجرية الموافق ٢٦ كانون الاول ٩٧٣ ميلادية ، من اسرة قديمة عريقة ينتهي نسبها الى قبيلة قضاعة ثم الى قحطان ، التي هاجرت الى سوريا فيمن هاجر من القبائل العربية حيث استوطنت المعرة ، او معرة النعمان، وهي مدينة من المدن السورية واعمال حلب تقع على ٨٤ كلم من الجنوب الغربي لها ، وعلى نحو من ٦٠ كلم من

شمال مدينة حماه .

والمعرة تاريخ حافل قامت خلاله هذه المدينة الكثير من المصاعب والحوادث ، من الحروب والكوارث التي طمست اكثر معالمها ومحت اكثر آثارها .

ولسنا هنا في معرض الحديث عن تاريخ هذه المدينة ، ولكن هذه المدينة قد اخذت تحتل مكانها في عالم الشهرة من حين ظهور المعري فاصبحت محجة المعرفة وكعبة لأهل الأدب والفلسفة ، حتى بعد وفاة المعري بوقت طويل عملت الحكومة ورجال الادب واهل الفكر على تقديس ذكرى وفاته فاقيمت الاحتفالات التذكارية العديدة ، واخرجت الكتب والمجلات الاعداد الخاصة الحافلة عن حياته وفنه وادبه وفلسفته .

واذا كان قد وقف على قبر المعري حين وفاته المرافق نهار الجمعة في ٢٠ ايار سنة ١٠٥٧ م بعد مرض لم يمهله اكثر من ثلاثة ايام ، اذا كان قد وقف على قبره نحو من اربعين شاعراً يرثون فيه العبقرية والنبوغ والمعرة والجرأة ، فلقد كرست الكثير من الجرائد والكتب والابحاث من عربية وغيرها لدراسة آثار تلك العبقرية الفذة ، وتلك الذاكرة العجيبة ، والذكاء الحاد والشخصية الفريدة الجريئة في عالمها .

ان هذا يدل على ان موت الرجل لم ينه امره ، بل سيستمر هذا الامر مع الزمن ما دام هنالك تطلع نحو جلاء الاسرار التي اكتنفت الكثير من المسائل التي تتناول حياتنا وتترك علامات استفهام ضخمة عند التساؤل عن اسرار وجوده .

ولكن ما علاقة المعري بالوجود والحياة وما وراء الطبيعة ، حتى يقترن اسمه دائما عند البحث بمثل هذه المسائل ؟

وكيف اضحى ذلك الاسم يذكر ويردد ويستشهد به عند البحث في مشاكل الدهر وحوادث الايام ، ما ظهر منها وما خفي .

واذا كان الامر كذلك فما هي خصائص تلك الشخصية ، وما هي العوامل التي تكاتفت على توجيهها هذه الوجهة التي انتهت اليها .

الواقع ان للعوامل التي تتكاتف لتكوين شخصية كشخصية المعري اثر لا بد ان يبرز وان يقوي ويطرد فيما يتعلق بنظرة صاحبه الى الناس ، ثم في توجيه افكاره ، واطلاق معتقداته والعامل الشخصي هنا واضح بارز ، في افكار الرجل فليس كالمعري الا ما ندر اتفقت افكارهم مع واقع حياتهم ، وليس كالمعري اتصلت حياته بأفكاره وشخصه اتصالا وثيقاً ، كما سنبين ذلك

كما انه للعامل الخارجي خطوط بارزة في حياة الرجل وفنه وفلسفته ، اذن لم يعد لنا وعلينا إلا ان نعرف ما هي العوامل التي عملت على تكوين هذه الشخصية الفريدة ؟

العمى

اني احمد الله على العمى ، كما يحمده غيري على البصر

هل صحيح ان المعري كان سعيداً في عماه ؟

اجيب : بلا . اليس هو القائل :

وكم اشتكت اشفار عين سُهدها
وشفاؤها مما الم شفار

ولطالما صليت ليلاً عاتماً فمتى يكون الصبح والاسفار

وفي مكان آخر :

عمى العين يتلوه عمي الدين والهوى فليلتي القصوى ثلاث ليالي

ثم يقول ايضا :

وما بي طرف للمسير ولا السُرى

لأني ضرير لا تضيء لي الطُرق

هل تلمس هذا التحرق ؟

هل يكون صاحب هذه الحسرات قد قنع بما قسم له من ان يكون فاقد البصر ابد الدهر دونما حسرة ولا عبرة ؟ انا لا اعتقد هذا .

ولكن تظاهره بالرضى والقناعة في سياق شعره في بعض الاحيان لم يكن سوى مظهراً من مظاهر التجلد والتعزي .

ومهما يكن من امر فان عمى المعري من الاسباب الرئيسية التي وجهت حياته ، ثم نظرته الى الحياة والناس ، هذه النظرة التي تقوم على دعائم الشك والتشاؤم والحيرة .

فاذا قلنا ان الصبي دهمه العمى وهو في الرابعة من عمره ولم يعرف من الالوان الاحمر لانه البس ثوباً معصفراً اثناء مرضه بالجدري ، لتبين لنا هذا النقص الفاضح في تلمس الجمال والتمتع بما في الحياة من روائع الحسن .

ثم ، فان مرضه لم يتركه رفيق العصا فحسب ، ولكنه ارفق الظلام بتشويها فظيعاً بغيضاً الى نفس صاحبه وكريها في نظر من شاهده .

ولكن هل العمى وحده وجه المعري الى هذه الطريق الفريدة نوعا ما بالنسبة لغيره من الذين كتب عليهم الحرمان من نعمة البصر ؟

الجواب على هذا . لا .

اذ اننا في كثير من الاحيان ما نرى العميان قد اندمجوا في

الحياة فنالوا منها ما نال غيرهم وقاسوا منها ما قاس غيرهم ، ولم يقذف بهم عاهم الى احضان الوحدة الموجعة . . . او المقنعة ، لست ادري .

اذاً لقد كان العمى بالنسبة للمعري نقطة انطلاق صادقت نفساً دقيقة الحس ، وقلباً مرهف الشعور ، وعقلا دائم التأمل ، فاذا بهؤلاء جميعا ، النفس ، والقلب ، والعقل ، بل وجميع المشاعر والجوارح لدى المعري تتأرجح طويلا ، وهي تفتش عن السر في هذه المصيبة القاسية التي بليت بها دون غيرها . ثم عن العبرة من كل هذا ؟

واذا كان الصبي قد رافق اخيرة في هذا الامر في مستهل شبابه فلقد حاول اهله ان يغرسوا في نفسه العمل في الانتصار على هذه الكارثة التي ابتلي بها ، فشمله والده بعطفه واغدقت عليه امه من حنانها ما جعل الصبي يأنس الى الحياة محاولا الاندماج فيها ، وقضية وفقه كواحد من هؤلاء الذين تضيق بهم الحياة نفسها .

وكأنما الحياة قد ضاقت ذرعاً بهذا الدخيل عليها ، وهي التي ارادت له حياة تختلف عن حياة الاخرين . وكأنما عز عليها ان يتحدى رادتها فاذا بها تقذفه بسهم آخر من سهامها السامة عندما افقدته المنهل العذب الذي كان يستمد منه المعونة والعطف والمساعدة .

لقد حرمته الحياة اذن المعين المادي والروحي والعقلي ، والده وحنانه ايضا ، والمدافع عن ضعفه . وكان الفتى لم يبلغ الرابعة عشر من عمره بعد ، فعززت هذه الكارثة الجديدة فكرة انعزاله عن الحياة اذ تركت وفاة والده فراغاً مريراً في حياته وراح يشكو الله ويرثي والده

بهذه القصيدة التي مطلعها :

نقمتُ الرضا حتى على مناحك المزن ولا جادني الا عبوس على الدجن

والتي يقول فيها ايضاً

ونادبة في مسمعي كل قينة تغرد باللحن البري، من اللحن

وهـــذه القصيدة تظهر لنا ميزة في شعر المعري او فيما قال من الشعر في سقط الزند ، وهو ان الفتى يحاول ان يحاكي الشعراء الفحول ، ويعمل على اظهار مقدرته على النظم حتى اتت مرثيته هذه خالية نوعاً ما من التأثر والتفجع الذي يجب ان يكون عادة في شعر الراثي لوالده :

ونلاحظ هنا ايضا خاصة اخرى ظهرت فيما بعد ظهوراً واضحاً في شعره ، هذه الظاهرة هي شكه في مصير الناس بعد الموت :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبريني يا جهين سوى الظن

اذن فالحياة لم تهادن الفتى حتى الآن ، بل انها تعين في الاساءة اليه فقد فقد الفتى كما ذكرت بفقده والده منهلا روحيا وثقافيا ، كما فقد ايضا المعاش المادي على مطالب الحياة . ولم يكن موت والده ، إلا ليزيد من مشكلة شكه في العدل الالهي ، ثم تضخمت تلك العلامات من الاستفهام في خياله وفكره عن الحياة والوجود ودور الانسان ، بل كل ما يتعلق بهذا المخلوق المستضعف الضعيف . لماذا خلق الانسان ؟ الى اين مصيره ؟ ما العبرة من وجوده ؟

اسئلة عديدة ومختلطة حاول المعري ان يوضح ما غمض منها ، وسنرى مقدار توفيقه في هذه المحاولة .

فاذا كان الرجل قد خلف بعده ابناً عاجزاً ، ضريراً ، وحيداً

لكنه ترك معه ايضا الاطلاع الواسع على ثقافة عصره والعصور السابقة ، لقد غرس حب المعرفة في نفسه ... فدفعه هذا الحب الى ان يكون مستعداً ابداً لطلب العلم والسعي في طريق المعرفة .

كل هذه العوامل رسمت بالتي طريقة فن التراث العائلي ، الى الذاكرة القوية ، والذكاء النادر الى هذه العاهة التي تركت نفسه تتمزق في كل لحظة باحثة عن العبرة في كل ما هي عليه .

هذه العوامل يضاف اليها عوامل اخرى رسمت للمعري المنهاج الذي سنتبينه في دراستنا الموجزة هذه .

اما ما هي العوامل الاخرى التي اتينا على ذكرها فلا بد لنا ايضا هنا من توضيح حالة عصر كما اتينا على ذلك عند دراستنا للمتنبي . لقد كانت حالة عصر المتنبي والمعري ايضا عاملا اساسيا في خلق المعري ، ثم في حياته العملية والفكرية .

ولست ابغي هنا ان اضع ترجمة لعصر المعري وهذا يستلزم كتابا خاصا ولكن لا بد ان نلم الماما عاما بأهم خصائص ذلك العصر من نواحيه الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاخلاقية ، والادبية ، والعقلية ، والدينية ايضا ، وذلك عند محاسبة الرجل على ارائه وبيان اذكاره نعذره اذا كان له من عذر ، وندينه عندما يفقد ذلك المسبب ، او العذر ..

فمن الوجهة السياسية ، لقد عاصر المعري ثلاثة من خلفاء بغداد ولكنه لم يكن للخلفاء سوى تلك الألفاظ الفارغة ، والالقاب الفضاضة ، كانوا يملكون ولكنهم لا يحكمون ، واذا جاز لنا ان نطلق اسم خليفة على من كان يتمتع بهذه المكانة لكان ملوك بني بويه احق بها من اولئك الضعفاء من بني العباس ، الذين يجلسون على عروش هي اشبه بالاعيب بين ايدي بني بويه وغيرهم من الجند والامراء والخدم والجواري .

ولقد كان عهد البويهيين من اسوأ العهود فيما يتعلق بالاضطراب السياسي والاداري في بلاد العراق وفارس .

وفي اقاصي الشرق كانت الدولة السامانية في تجاري تنشر الاسلام ، وفي الاندلس ابتدأت الفتن والمطامع تنذر بالويل والثبور بعد موت عبد الرحمن الناصر

وفي مصر كانت الدولة الفاطمية تأخذ طريقها نحو العظمة السياسية ، فقد امتد حكم الفاطميين من مصر الى الحجاز ثم الى الشام هذا فيما يتعلق بالعالم الاسلامي عامة . اما فيما يختص ببلاد الشام - سوريا - فسأتناول هنا امرها بالتفصيل نوعا ما من حيث انها جهنا في دراسة المعري ثم تلقي بعض الاضواء على وضعنا القومي الذي يتخبط بعض ادبائنا وكتابنا عن التحدث عنه دون ان يلموا به الماما كافياً وهذا بعض نقص في مناهجنا الثقافي القومي .

لا يمكننا القول ان التغلب الحربي والعسكري في سوريا قد جعل منها بلاداً عربية خالصة .

لقد كانت ديار الشام - سورية - عند الفتح الاسلامي . آهلة بالسكان ، وهم اصحاب حضارة انحدرت اليهم من حوراني وغيره من مفكري الامة السورية ومن واقع حياتهم ومحيطهم كأمة انحدرت بأكثر أمم الارض المعروفة في تلك العصور ، فلذلك لم يكن من الممكن ان تفنى خصائص تلك الامة العريقة في الحضارة في هذا الفتح الجديد ، ولكنه يمكننا الاعتبار وهذا هو الواقع ان اكثر خصائص الفاتحين قد فنيت وانصهرت عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه امام خصائص سكان البلاد السورية ، فلذلك ايضا لا يمكننا ان نعتبر اهل سوريا عرباً خلصاً ، ولكنهم امة لها خصائصها ولها اطوارها ، ولها حضارتها . حتى كانت ازمنة ما بعد الفتح ازمنة الاستقرار

وهنا لا يمكننا في الوقت نفسه ان نهمل دور الفاتح في الأختلاط بسكان البلاد الاصليين ونشوء جيل جديد خليط ، ولكن هذا الاختلاط لم يقدر له ان يطغى على حياة سوريا الاجتماعية الخاصة ، كما لم يستطع ان يقضي على خصائص غيرها من الامم التي خاضت فوقها راية الاسلام كالفرس ، والهنود ، وغيرهم ، ولكن نسبة الاختلاط بين السوريين والعرب كانت اقوى واقرب واكثر انسجاما من غيرها من الشعوب .

قلنا ان الاختلاط ، فالجوار ، ثم الاشتراك في الاصل اوجد جيلا جديداً . وحصل هذا كما بينا بطبيعة الفتح ، وحكم الجوار ، ثم تبادل المنافع .

واذا قلنا ان خلفاء المسلمين وقواد جيوشهم في اوائل الفتح لم يكونوا ليسمحوا للجنود بالنزول الى المدن ، لتبين ان هؤلاء القواد كانوا يدركون ان جيوشهم سوف تفتن بهذه الحياة الجديدة على جنودهم وسوف يندمج الجند بها لانها رائعة وخصبة ومثيرة . ولكن خلفاء بني امية ضربوا عرض الحائط بهذا التقييد وسمحوا بالاختلاط بل شجعوا عليه .

اذن نحن ازاء الجيل الجديد الذي كان نتيجة هذا الاختلاط ولكن هذا الجيل لم يتسم بخصائص الصحراء والجزيرة التي خرج منها الفاتحون . ما عدا ما يتعلق بالدين فمن المعروف ان الدين هو الدين الاسلامي الذي اصبح دين الاكثرية الساحقة في دار سوريا ما عدا بعض العناصر التي شملها الاسلام برعايته وتسامحه فبقيت على دينها .

اما فيما يتعلق بخلاف هذا من نواحي الحياة فنقد تميز هذا الجيل ومن اتى بعده بخصائص البيئة التي نشأ فيها ، ونلمس الجمال في طبيعتها والخير والبركة في اهلها وارضها .

من ذلك ، فالفلسفة التي نشأت في الهلال الخصيب — سورية — والادب الذي ترعرع في ربوع هذه الطبيعة المعطاة الخيرة لا يمكننا ان نشبهه ابداً بما بين ايدينا من شعر البدواة ، ثم نظرتهم الى الحياة قبل فتح سورية .

اذن ، لقد كونت الحياة العقلية هذه الاجيال التي نشأت عن هذا الاختلاط .

ومن خضم هذه الحياة الدائبة الحركة اخذ المعري مادته .

وفي اعتقادي ان المعري لو نشأ في الحجاز مثلا بعيداً عن هذه الحياة العقلية والدينية والاجتماعية الحافلة ، لاختلفت نظرته الى الحياة ، والى الاديان ، والى المعتقدات ، ثم الى الناس بأسرهم .

واذا كان عصر المعري قد شاهد انقسام الامة الواحدة الى دويلات ، لكل منها مصالح خاصة تسيرها التأثرات السياسية ، والتشكيلات الاقليمية ، والمصالح الشخصية التي لم ينظر فيها الى مصلحة البلاد العليا ، اذا كان كل هذا قد حصل فعلا ، فكثيراً ما تفرق الأحداث السياسية الامم كما هو الحال في امتنا اليوم وكثيراً ما يتحكم بعض الاشخاص في مرافق الامة الواحدة فيعملون على تفريقها ، إن بوحي من مصالحم الخاصة ، او من وازع اجنبي تتضارب مصالحه واتفاق كلمة هذه الامة ووحدتها .

ولكن هذا لا يدوم فأدراك ابناء الامم لواقع حياتهم ، وحقيقة امرهم لا بد من ان يجمع الكلمة ولا بد من ان يسود الاجتماع بعد التفسخ ، وزوال العوارض السياسية الزمنية ثم التيارات الداخلية الخاصة .

ونعود الى شاعرنا او فيلسوفنا وناقدنا المعري لنتأكد انه عاش في خضم هذه البيئة وفي هذا العصر الذي فسدت فيه الحياة السياسية

وانحطت فيـــه القيم الاخلاقية ثم تحطمت الموازين الاقتصادية امام جشع المسيطرين على مرافق البلاد .

في تلك الأثناء . وبينما كانت بـــلاد الشام تضطرب يوماً بين ايدي الحمدانيين ، وآخر بين ايدي الفاطميين ، وتارة في متناول الروم ، ثم طوراً في ايدي بني مرداس ، وفي خضم هذه التيارات الداخلية والخارجية حيث كثرت المفاسد والشرور ، نشأ المعري وعاش واختبر مر الحيـــاة وشرها . ولم تداعب شعره نسمة خير واحدة في سعير هذه الرياح المجنونة .

واذا كانت حالة العصر السياسية ، والاجتماعية ، والدينية سيئة جداً ، فان الحياة الادبية والعقلية كانت بالعـــكس راقية زاهية ، اتت ثمارها ناضجة طيبة . وما نقوله عن الحياة الادبية والعقلية نقوله بصفة خاصة عن الحياة الفلسفية .

فلقد كانت حضارات اليونان ، والفرس ، والهند تترجم الى العربية ثم نشط المسلمون في الرد على المسائل التي اعترضت عقيدتهم من جراء هذه المذاهب التي عرفتها لغتهم ، فنشأ اخـــوان الصفاء وغيرهم من الجمعيات والمذاهب كالمعتزلة ، ثم برزت طبقة الفلاسفة الذين توسعوا في معالجة امور الناس وما خفي عـــن الابصار في عالم الغيب .

في ذلك العصر نشأ التفكير الحر فحكم على اكـــثر الفلاسفة بالالحاد لانهم جحدوا امورا كثيرة اقرها الدين ، وسنجد ان المعري كان احدى دعائم هذا التفكير .

اذن فالمعري معاصر الأفكار الحرة الطليقة ، ولما كان ذكياً ينشد المعرفة ويطلب الحقيقة وهو طليق حر فلقد ارتسمت امامه تلك العلامات الكبرى من الاستفهام عن وجود الانسان ومصيره

وفساده . وكان لا بد له من ان يلم الماماً كافياً بعلوم عصره ، ومعارف وقته ، وما سلفه من عصور ، فاذا هاجر طالباً للعلم وتشدداً للمعرفة ،

بعد هذه المرحلة الحافلة بالمصائب والصعوبات .

هذا كما بينا فيما يتعلق بمرافق الحياة من الوجهة العامة ونزيد على ما ذكرنا من الوجهة الادبية ، اذ انه لا بد لنا من ملاحظة ظاهرة سيكون لنا معها شأنا هاماً خلال هذه الدراسة .

اما هذه الظاهرة فهي انتشار الفلسفة انتشاراً واسعاً ومفصلا فأن انتشار العلوم الفلسفية ، ثم دراسة الشعراء لها واهتمامهم بها وادخالها في انتاجهم قد اثر تأثيراً كبيراً في الشعر بصورة عامة ، ثم في الفاظه ومعانيه بصورة خاصة اذ انه قد استحدثت الالفاظ الجديدة التي تتناسب مع ما جاء في تلك المذاهب المتباينة المتعددة وهذا التأثير ادى عند البعض الى الأبهام في بعض الاحيان ، ثم التعقيد ايضا ، واصبح فهم الشعر صعب المنال لجميع الفئات ، بل اقتصر في بعض الاحيان على فئة خاصة .

ثم هذه الالغاز التي استعملت لاخفاء بعض الاغراض والمعاني والاهداف التي لم تكن مشروعة في ذلك الوقت . بل كانت تتجه اتجاهاً خاصاً يتنافى والعرف الديني والسياسي والاجتماعي المعروف والمعتمد .

اذاً نحن تجاه المذهب الشعري الحديث الذي لم يكن معروفاً المعرفة الكافية ، ألا وهو الشعر الفلسفي ،

نحن لا ننكر ان هذا الفن كان معروفاً لدى العرب الاقدمين امثال زهير وغيرهم ، ولكنه لم يبلغ ما بلغ ابام المعري من العناية والحصب . بل لم يبلغ الشيء اليسير الذي اضحى عليه على ايدي

المعري وغيره من الشعراء والفلاسفة

اذ ان المعري جسد كل عبقريته في سبيل هذا الفن ، يضاف الى جانب ذلك اتقانه من المعري وادباء عصره على استخلاص الطريف من المعاني والصحيح منها ، ثم هذا الخيال الجامح زد على ذلك الانسجام التام بين متطلبات العلم من جهة والشعر اخر الصليق من جهة اخرى .

هذه الظواهر كان المعري من انصارها بل واضع الحجر الاساسي في بنيانها .

كيف وصل المعري الى ان يكون ذلك الرجل ؟

لقد اختار المعري بنفسه طريقه ، او خطط له القدر هذا الطريق ، فما عليه إلا اتقان الاندماج في الحياة العقلية ومعرفة اصولها والاطلاع على آداب عصره ، والفلسفة المتداولة ، والنظريات الشائعة في ذلك العصر ويقيني ان المعري بعد ان حذق اللغة على يد والده وغيره من اهل المعرة فكر ان هذا المحيط الضيق الذي يعيش فيه لا يمكن ان يشبع رغبته في الدرس والتحصيل اذا لم يعد عليه الا توسيع هذا الافق .

ورحل المعري في طريقه الى حلب يطلب المعرفة ، وينشد الحقيقة في اكمال الاطلاع واتساع نطاقه ، وقرأ هناك النحو والأدب ثم اليسير من الفلسفة .

ومن المعتقد ان المعري كان يقيم عند اخواله آل سبيكة ، وهي اسرة عرفت بالادب والوجاهة في تلك المدينة ، ولكن اقامته في حلب كانت قصيرة اذ سرعان ما رحل عنها في طريقه الى انطاكية ومن انطاكية انتقل الى اللاذقية . ولقد اشبعت هذه الرحلة نهم المعري في الدراسة والاطلاع ووضعت اكثر من حجر في بنـــاء مذهبه الفلسفي اذ انه قد لقي في هاتين المدينتين رهبان النصارى ، وبعض مفكريهم لأن انطاكية واللاذقية كانتا وقتئذ من مراكز النصارى الدينية ـ قلت لقي في

هاتين المدينتين بعض مفكري النصارى ، وهذا اللقاء سمح له بالأطلاع على الديانة المسيحية وفلسفة اللاهوت .

اما احدى هذه الاحجار التي ساهمت رحلة انطاكية واللاذقية في ايجادها هي اللاادرية ، اذ ان اطلاعه على ديانات غير الدين الاسلامي وفلسفات تناهض الدين في مسائل عديدة ، من العوامل التي زعزعت الايمان التقليدي في نفسه ، فلنستمع بهذه الابيات ولنلاحظ مقدار هذه الحيرة ... واللاادرية :

في اللاذقية فتنة ما بين احمد والمسيح
هـذا بناقوس يدق وذاك بمأذنـة يصيح
كل يمجـد دينـه يا ليت شعري ما الصحيح

اذا اوى ان المعري لم يكن حائـراً او لا ادرياً فحسب ، بل كان ساخراً وناقماً ، انه ينشد الحقيقة ، بين اقوام وعقائد متعددة كل منها يدعي الحقيقة لنفسه ، ولكن الحقيقة لم تنشر بينهم السلام والأمن بل ذرت بينهم الفساد والشقاق ، هذه حقيقتهم ، اذاً فليفتش هو بنفسه عن الحقيقة الصحيحة ، انه انسان مسالم ، انسان مترفع عن العواطف ليس له من امام سوى العقل .

وترك المعري اللاذقية بعد انطاكية في طريقه الى طرابلس ، وهناك عاش ردحاً من الزمن في مكتبتها الكبرى يغترف من مختلف العلوم والفنون ، ما تدر له ذلك ثم عاد بعد هذه الرحلة الى المعرة وكان كما ذكرنا قد فقد ركناً من اركان راحته واطمئنانه بفقده لوالده .

عاش المعري في بلدته بين سنة ٣٨٣ حتى ٣٩٨ ومن المرجح انه حاول ان يتغلب على مصائب الحياة وما تركت في نفسه من

الأسى والألم فجالس الظرفاء ، وتعرف الى فنون الهزل والجد ، ويقال انه كان من امهر من لعب الشطرنج ، ويقال ان طريقة معيشته ويومياته في ذلك الحين كانت غامضة حتى انه كان يقول : « ان العمى عورة فيجب الا يظهر الناس عليه » ومن ذلك انه اضحى يحب الاستتار ، فلقد كان يأكل دون ان يسمح لخادمه ان يشاهده اثناء ذلك . وهذا عندنا دليل من الأدلة على الخبر والحيطة ، ثم الخوف من ألسنة الناس وملاحظاتهم الذين اخذت اسباب الحياة تبعد بينه وبينهم .

ومن المؤكد ان المعري كان يقول الشعر في ذلك الوقت ، فتلك النفس لا بد من ان تجيش بشيء من العواصف والانطباعات فتنشدها شعراً خالصاً يعبر عن هذه العواطف . ويؤكد هذا انه عند رحيله الى بغداد فيما بعد لم يكن مجهولا ولا مغموراً في اوساط الادب والشعر ، والملاحظ ان هذه الحياة الرتيبة التي كان يعيشها في المعرة لم ترق له ، فلذلك فضل ان يرحل الى ديار العلم ، ومنهل الادب والفلسفة وهل تكون صاحبة هذه المرتبة سوى بغداد . ويقال ان هناك الاسباب العديدة التي جعلته يترك المعرة الى بغداد ومنها انه ترك المعرة ليشكو صاحب حلب على سوء معاملته له بعد ان تعرض لما في يده من الوقف ، وفي رأيي ان جميع هذه العوامل اجتمعت لتجعل المعري يشد الرحال في طريقه الى بغداد .

واذا لم تكن بغداد المرجع السياسي والعاصمة الزمنية بالمعنى الصحيح في تلك الحقبة من الزمن ، فقد كانت العاصمة الادبية دون منازع ، وكانت الهدف الذي لا يجاريه مسعاً آخراً من ينشد المعرفة الشاملة ، والشهرة الواسعة .

واذا قلنا ان المعري لم يتنكر حتى الآن للحياة بل يسعى

ويحاول الانتصار على ما اعترض سبيله من عقبات لامكننا اذاً ان نقول ان وراء رحلته الى بغداد طلب الشهرة والجاه والمال ايضاً .

اذاً لقد غادر المعري بلدته المتواضعة في اواخر ٣٩٨ في طريقه الى عالم جديد لا عهد له به من قبل ، بعد ان ودع امه تلك الام الحنون التي كانت له اليد الرقيقة الكريمة . والتي اعانته على النضال والتجلد والتشجع . ثم هناك كما اعتقد الهدف البعيد في اعماق نفس المعري كما سنلاحظ ، هو رغبته باحتلال مكانته في عالم الادب ، وتأكيد تفوقه وتميزه ، وانتصاره على كبوات الحياة ، كي يعوض عما يشعر به من نقص في تكوينه . ولم يكن المعري في ذلك الوقت كما سيكونه فيما بعد ذلك الزاهد الساخر ، بل كان حينئذ رجلا غير هذا تماما ، فليس هو القائل :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
باخفاء شمس ضوؤها متكامل

واني وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

الى ان يقول .

وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست ابالي من تقول الغوائل
فلو بان عضدي وتأسف منكبي ولو مات زندي ما بكته الانامل

اذاً لقد خرج المعري الى بغداد بروح وثابة فيها رغبة التفوق ، وفيها الكبرياء وفيها الشجاعة ، ثم فيها التعزي والسلوى عن هذه الحياة الرتيبة التي يعيشها ، والى جانب هذا النضال عن نفسه والدفاع عنها انه يبغي مكاناً لائقاً تحت الشمس .

نعم لم تكن الوحدة من وجود في تفكيره ، ولم يكن الزهد

من مكان في نفسه ، ولو كان ذلك لما رحل الى بغداد .

ورحل المعري الى بغداد بعد رحلة شاقة قاسية ، ولكنه اوليست حياته بأسرها رحلة طويلة شاقة ، ومع هذا وصل بغداد نجماً متألقاً في عالم الادب ، واتصل بالناس واتصلوا به . وعرف الادباء وعرفوه واحبه اهلها واحبهم ، وعاشر ادباءها وفلاسفتها وسمع منهم وسمعوا منه ، ودق بيديه باب الشهرة ، وفي نظري انه ناله عظمة وكبرياء

وفي هذه القصة الطريفة نبين مدى اعتداد المعري آنذاك : قيل انه دخل على مجلس الشريف الرضي ببغداد فعثر برجل فقال الرجل :

— من هذا الكلب ؟

فاجاب المعري :

الكلب من لا يعرف الكلب سبعين اسماً

ان في هذه الرواية مقدار رغبة الرجل في النضال وتحدي الناس ثم هذه الرغبة الجامحة في المعاندة للدنيا والايام .

ولكن الايام عادت تسخر منه وتعانده ، انه لم يخلق لكي يكون انسانا اليفاً ، فهو يقول عن نفسه :

انساني الولادة وحشي الغريزة .

ويبدو ان المعري لم يصمت في بغداد بل جادل واقتحم المجامع ثم قال الشعر ، واشعاره هذه موجودة في سقط الزند . ولننظر هذه امثلة من شعره وهو في بغداد :

تمنيت ان الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل اني بالعراق على شفاً رزي الاماني لا انيس ولا مال

الى ان يقول :

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال

انظر كيف كان يتوجع ويتألم من الناس ومن الاماني المحطمة ثم من الناس ايضا الذين يحسدونه على علمه ومكانته .

ولا بد لي هنا ، من ان اشير الى حادثة تناولها الكثير من الذين كتبوا عن المعري اما هذه الحادثة التي قيل ان المعري ترك بغداد بسببها او انها كانت من الاسباب التي جعلت المعري يستعجل الرحيل عن بغداد فهي قصة طرده من مجلس الشريف الرضي اثر تلك المناقشة التي دارت بين الرجلين حول المتنبي .

انني ارى ما رآه الاستاذ طه الراوي وما اثنى عليه الدكتور زكي مبارك من ان هذه القصة غير صحيحة ، ومن ذلك ان المعري رثى والد الشريف بهذه القصيدة التي مطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف

وفي هذه القصيد يثني المعري على كل من الشريف الرضي وشقيقه المرتضى ايضاً .

ابقيت فينا كوكبين سناهما في الصبح والظلماء ليس بخافِ

فلو اعتبرنا ان المعري رثى الموسوي ، اي والد الشريف — قبل هذه الحادثة المزعومة لكان ادب الشريف وكرامة مجلسه ثم مبادىء الوداد والاخلاص لرجل كنقيب للطالبين من جهة — جعلا لا يتعرض لرجل رثى والده ومدحه هو وشقيقه — ثم عليه احترام عاهته من جهة اخرى . والافتراض الثاني ، لو كانت هذه الحادثة حصلت قبل موت الموسوي لما اقدم المعري على رثائه ، ثم على مدح الذي اهانه وطرده من مجلسه فلذا تجدني لا اصدق هذه القصة . كما انني ادعوك انت ان لا تصدقها .

لقد حاول المعري ان يطيل اقامته في بغداد اذ ان الحياة

العقلية والعملية في بغداد كانت تؤمن له غير قليل من المنعة ، وكانت حفاوة اهل بغداد به تحييهم اليه .

ولكن الدهر الذي كان قد امعن في ايذائه والاساءة اليه منذ الصغر لم يرغب ان تطول هذه الغفوة الهانئة ، فاذا بالاخبار تفد من المعرة ان امه مريضة ، اذاً لم يكن من بد إلا ان يشد رحاله الى المعرة .

اثارني عنكم امران والدة لم القها وثراء غير مسفوتا

هذان سببان وجيهان للرحيل ، ولكن هناك الأسباب العديدة التي جعلت المعري يعجل بالرحيل ، منها انه لم يقدر له ان يعوض عن النقص الذي كان يحس به ، فلقد كثر حساده وكثرت سخريتهم ، والمعري كما نرى قليل الجلد على مصارعة الناس ، ومقارعة الخطوب ، وفي اعتقادي انه لو ترك بغداد من اجل والدته او من اجل المال لعاد اليها لأن اكثر الشعراء كانوا يعيشون برخاء في بغداد .

اذا لقد كان رحيله عن بغداد قد قرر فأتى خبر مرض والدته ووفاتها يستعجل هذا الرحيل .

وعاد الرجل منعب الى بيته في المعرة ، ولكن ماذا وجد؟ وجد الظلام ، وظل الموت يجثم على صدر هذا البيت ، ان كان للبيوت صدور ، لقد ماتت والدته قبل ان يصل الى المعرة .

تفجع ابو العلاء على امه ما شاء له التفجع :

رحمك الله من ساكنة رمس اصبحت حياتك كأمس

لقد تمت المأساة ، ولم تكن هذه المرحلة من الاعتقاد بمهادنة الدهر له ثم التغلب على الاحداث سوى غفوة استيقظ الرجل منها واعصابه مرهقة ، وعقله مجهد ، ونفسه قد عافت هذه المظاهر ، عندئذ

وضع منهاجاً للحد من هذا النضال مع حياة لا طائل في مناهضتها ، وسيبقى ابد الدهر لا يقتصر حزنه على والدته فحسب بل سيبقى هو نفسه رفيق هذا الحزن العميق على نفسه ايضا :

فان ينقطع منك الرجاء فأنه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

واضحى وقد شملته هذه الوحدة يتحسر على ايام بغداد :

يا لهف نفسي على اني رجعت الى

هذي البلاد وقد فارقت بغداد

وعند ذلك الوقت ، بعد هذا الفشل الذريع مني به ، لزم المعري سجنه بل سجونه :

اراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن النبأ النبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

ترى كيف كانت حياة المعري في هذه السجون ؟ ما هو دور هذه السجون في فلسفة المعري وخاصة سجنه الاخيرة ؟ سنحاول ان نتبين ذلك في هذه الصفحات القليلة .

لقد كتب المعري لنفسه ان تهرب من الناس وتتشد في وحدتها ما لم تجده بينهم من الراحة ، والاستقرار والاطمئنان ، بعد ان سئمت الحياة الزاخرة بالرياء والفساد ، ثم هؤلاء البشر الذين تتراكم في صدورهم عوامل الغش والخداع .

انها الوحدة ، الوحدة وحدها تحل مشكلته :

في الوحدة الراحة العظمى فآخى بها

قلباً وفي الكون بين الناس اتقال

واحسبني يكون الانسان معتصماً بالوحدة عليه أن يتخلى عن الكثير من مطالب الحياة التي تقرها الصلة الاجتماعية . عليه أن يقنع بما هو فيه ، فاذا قنع المعري بما يأتيه من وقف يدر عليه القليل من الدنانير في السنة ، ومقتسما هذا القليل ايضا مع خادمه .

الحمد لله لقد اصبحت ذا دعة ارضى القليل ، ولا اهتم بالقوت

ومشكلة الوحيد ايضا ، انه يكون قد فقد الوفاء ، والصدق ، والاخلاص حتى يبتعد عن الناس بعد ان يكون قد تخلى بيده من وجود من يتسم فيهم الاخلاص الصحيح ، والصداقة الحقة ، انه القلب ، القلب الذي حرم من قضرات الحنان والحنو .

وما تحسن الايام ان ترزق الفتى وان كان ذا حظ صديقاً يرافقه

يضاحك خل خله وضميره عبوس وشاع الود لولا مرافقه

ارأيت اين يذهب المعري ، انه يتهم الضمائر بالريبة وعدم النقاء.

ولكن هل بقي المعري في الحقيقة رفيق وحدته التي طالما ارادها لنفسه ، كلا . لم يستمر الرجل وعين هذه الوحدة وقتاً طويلا ، بل ان الشعراء والادباء والطلاب تقاطرت على سجنه من اكثر الاقطار الاسلامية كلما اتت الى هذا المنبل تنبل منه العلم والعرفان ، وتدرس هذه الصوفية الهادئة ، الثائرة ، الهازئة ، الجادة .

الهادئة بهذه الحياة الليّنة اللطيفة الساكنة ، والثائرة بهذه الافكار العنيفة التي تجلو وتكشف عن حقائق النفوس ، وخبايا الصدور . ثم تجمح كي تتطاول الى معرفة مصدرها ... ومصيرها .

لقد توفرت عوامل عديدة كي تدفع بالمعري الى ان يتفلسف

فهو الذي فطر على البحث والاستطلاع ، وهـو الذي كره رياء هؤلاء الناس وتقليدهم ، وجدانهم على ضلال من حيث لا يفقهون .

اذا لم يكن منه إلا ان خالفهم في حياتهم العملية والعقلية فهو الذي اعتزل الناس ومشاربهم وتقليدهم المقيت ... وتحرر من العادات والتقاليد التي تغل تطلع النفوس نحو التحرر والانعتاق ، ثم وضع هذه النفس بين يدي العامل الذي لا يقيم للتقليد اعتباراً ولا للعادة مقاماً ، **بين يدي العقل** .

ولقد خضع المعري الى سلطة العقل لاسباب قاهرة ، اجبرته على ذلك متكاتفة ، وجعلت منه انساناً مرهف الاحساس بعد ان ابتلته الحياة بالمصائب والآلام . ثم هذه الحياة الاجتماعية التي كانت سيئة الى ابعد حدود السوء ، وهذه الاحداث من سياسية الى اقتصادية الى دينية والتي قدمنا بايجاز وصفها وتعريفها في مستهل هذا البحث .

وهذه الحياة المثيرة ، هذه الحياة القلقة ، ثم طبيعته وغريزته الوحشية كما عرفها هو جعلت منه قلقاً حذراً ثم تصور هذا الحذر وذاك القلق بعد ان رافقتها نفسية الباحث ، المحب لمعرفة الحقائق كي يمكن له تعليلها التعليل الصحيح ، كل هذه العوامل ساهمت في ان يكون باحثاً ومنقباً عن الاسباب والعوامل التي تدفع بالناس الى كل هذه الاعمال . التي تدفع بهم الى سلوك طريق الاعوجاج .

وتطلع المعري ليجد الفساد يشمل اكثر مرافق الحياة ، ففي السياسة استغلال ، وانتقام ، وظلم من رجال فطروا على الجشع والانانية يمتصون دماء الضعفاء والفقراء :

مُل المقام فكم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعثروا مصالحها وهم أجراؤها

أما من اين تناول المعري هذه الصور ، وهذه المادة ؟ فانه تناولها من الحياة نفسها . لقد كان المعري مثقفاً ودارساً ، ومستقصياً ، اطلع على الفلسفات القديمة ، ثم درس الاديان كما تقدم عندما وصل الى انطاكية واللاذقية وبغداد وغيرها كما اطلع على المذاهب السياسية في زمنه وفي الأزمنة السابقة .

ننتقل من هذه الزاوية من حياة المعري وارائه الى نقطة هامة في بناء فلسفته ، وذلك عندما نطرق القاعدة التي قامت عليها الفلسفة العلائية ، وعند معرفتنا لهذه الفلسفة يمكننا ان نتصور معرفة فيما اذا كان المعري قد خالف شرائع الاسلام ام انه بقي محافظاً على ما اتت به الشريعة ، ومقراً لها .

الواقع ان المعري اعتمد العقل طريقه الى المعرفة فأقر ما اقره العقل ، وكذب ما كذبه ، ولم يتأثر فيما لو انهم مخالفة المعتقدات الدينية التي قد تعترض سبيل العقل ، وبمعنى اوسع حيث يقدم الشرع على العقل .

فالمعري شديد الوثوق من قدرة العقل في الحكم على الحياة ومن انه المقياس الصحيح للمعرفة والعلم .

وهذه لزومياته تنطق في اكثر من مناسبة واحدة بايمان الرجل بالعقل ايماناً مطلقاً لا جدل فيه .

سأتبع من يدعو إلى العقل جاهداً

وأرحل عنها ما امامي سوى عقلي

ثم انظر كيف يكذب كل عامل سوى العامل العقلي .

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

لقد اطاع المعري عقله ، فالى اين قادته هذه الطاعة وهل جلبت له الرحمة التي يدعي والتي ينشد ؟

انا لا اعتقد ان عقل المعري جلب لنفسه الرحمة والطمأنينة والراحة ، ولو آمن ايماناً مطلقاً بكل هذه المذاهب والاراء التي شك بها لكانت له الرحمة والراحة عندئذ ، اما عقله فلم يقده إلا الى الشك والقلق والحيرة ، فأين راحة الايمان ورحمته من رجل يقول .

وانما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته

وهذه الحيرة الموجعة .

يخبرونك عن رب العلى كذباً وما درى بشؤون الله انسان

فكيف عرف اذن المعري ربه ؟

لقد عاش فترة طويلة رفيق الحيرة والشك . هل الله موجود ام غير ذلك ؟

ولقد حاول ان يجد تعليلا كي يعيش في نعيم الراحة ، نعيم الايمان فوجد عدا :

فالهلال المنيف والبدر والغر قدو الصبح والثرى والماء

والثريا والشمس والنار والنثرة والارض والضحى والسماء

هذه كلها لربك ما عابك في قول ذلك الحكماء

انا اعتقد ان المعري كان مؤمناً بقوة غير منظورة ، تحرك هذا العالم ، وتسيره الى غرض ما ، هذه القوة هي الله .

ولكن المعري مع اعترافه بوجود الله يتجاهل البحث في

صفاته ، ولكنه لا يسعه إلا ان يقول بأن الله قدير ، ومثال ذلك ما تقدم في الابيات التي ذكرناها عن بسط سلطته على الغربا والهلال والشمس والارض وغيرها من الكواكب ، والمعري ايضا موحد حين يقول :

بوحدانية العلام دنا فذرني اقطع الايام وحدي

وكأنما المعري لا يرغب ان يخوض في ماهية الله وحقيقته فيقول في هذا .

الله اكبر لا يدنو له القياس ولا يجوز عليه كان او صارا

ولكن هذه الراحة والايمان بوجود الله ثم اتصافه بالقدرة والوحدانية لا تبعث الطمأنينة في قلب المعري ، وهو يرى ما في هذه الحياة من شرور منتشرة ، وآثام ترتكب كل صباح ومساء ، ويرى الدنيا :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على برلياها واجناسها

وشك المعري من هذه الناحية شأنه شأن اكثر المفكرين والفلاسفة العالمين ، الذين وقفوا من هذا الامر موقف الحائر . ما دامت الحكمة والعدل والقدرة من صفات الله فلماذا امر الشقاء منتشر ، والمآسي مستفحلة ؟ ولماذا بوادر السعادة مفقودة ؟ ولماذا عوامل الفساد والشر مسيطرة على الارض ومن فيها ؟

ولزوميات المعري زاخرة بمثل هذه الاسئلة الصريحة التي تدل دلالة واضحة ليس فيها مواربة على ان المعري كان مؤمناً ايماناً مطلقاً بالله ، واذا كان قد انتابته فترات من القلق في بعض الاحيان فهذا ليس بغريب على شخص ابتلته الحياة ، وسخرت منه الايام ، وتحامل عليه القدر ، انما هذا لا يمنع ان يكون مؤمناً

واذا اردنا التوسع في هذه الناحية من نواحي فلسفة المعري لثبت لنا ان المعري اسلامي العقيدة فيما يتعلق بصفات الله ووحدانيته ، كما يتفق بذلك مع عامة الديانات ثم يجاري الفلاسفة ايضا .

انفرد الله بسلطانه فما له في كل حال كفاء

وانظر كيف يقر بوحدانية الله .

توحد فان الله ربك واحد ولا ترغبن في عشرة الرؤساء

وهذه احدى القضايا التي جعلت ايمان المعري في بعض الأحيان قلقاً نوعاً ما ألا وهي مشكلة الصلاح على الارض ، فالمعري يؤمن بالقدرة الشاملة ، والرحمة المطلقة لله تعالى . فكيف اذن فقد الصلاح والخير على الارض ؟

واذا اعتبرنا ان قدرة الله انزلت الأديان على الارض بغية الاصلاح والهدى .

واذا اعتبرنا — كما يرى المعري — ان هذه الاديان نفسها لم تحل المشكلة بل زادتها تعقيداً :

لقد حجب الدين والضياء وانما ديننا رياء

كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض انبياء

فانصرفوا ، والبلاء باق ولم يزل داؤك العياء

عندئذ يبرز امامنا هذا السؤال ، هل للمعري على حق في هذه النظرة الى الأديان والانبياء ؟

الحقيقة ان حالة العصر السيئة من اكثر الوجوه عامة ، والدينية منها بصفة خاصة تترك النفس الحساسة رهينة الحيرة والشك ، فالفساد المنتشر واستغلال رجال الاديان للوضع الاجتماعي يترك الاديب

والمفكر في حالة لا تبشر بأيمانه بصلاح رجال الاديان ، ثم في الاديان نفسها .

واذا جاز لنا ان نتكلم في هذا الموضوع محاولين ايجاد عذر للرجل في هذا الصدد اقلنا :

ان جميع الاديان لم تقم على مبادىء التسامح والرحمة والمحبة كما يقال بل انها بأسرها عمدت عمداً او بجبرة على الحرب ، والنزاع ، والقتال في سبيل تدعيم شرائعها وتثبيت كلمتها ورسالتها ، واذا كانت بعض الأديان قد لحق بمشيعيها العذاب والاضطهاد فما ذلك إلا لأن اهلها كانوا في ذلك الوقت مستضعفين ، ولم يكن ذلك تسامحاً ورحمة ، ودليل ذلك انه عندما قويت شوكة اهلها عمدت الى القوة في فرض وجودها .

ونقطة اخرى في هذا السبيل ، فاذا كانت هدف جميع الاديان موحدة هي سعادة الانسان وتهيئته الى بلوغ الحياة الاخرى طاهراً صادقاً ، والامتناع عن اتيان الأثم والمنكر ، فلماذا اذن نجد هذه الاديان نفسها واصحابها في تطاحن مستمر ، وفي تكالب على هذه الحياة الدنيا. اذا كان الامر كذلك فالمعري من هذه الناحية صاحب عذر وجيه ، ولا بد لي ان اذكر هنا ايضا ان المعري لم تكن له القدرة على التجلد حتى في مناقشته وآرائه لمثل هذه الامور ، ولو لم يكن لموضوعه الاجتماعي الخاص ، ثم موضوع نظره ، ولو كان في عصر غير عصره لاختلفت حتما نظرته الى الحياة . والى العدل والى كل شيء.

ولكنني مع كل هذا ارى ان المعري لم يوجد لنفسه مخرجاً انما ورط نفسه بورطة اكثر تحاملا ، واكثر شذوذا عن المعنى المألوف ، وذلك عندما وضع الحق كل الحق فيما يتعلق بهذه الناحية على الاديان نفسها وعلى رجال الاديان ايضا .

كتاب محمد ، وكتاب موسى والانجيل ابن مريم ، والزبور

نهت امماً فما قبلت وبارت نصيحتها ، فكل الناس بور

والمعري في هذه الناحية ايضاً متشائماً محارباً ومقنعاً في هجائه .

مساجدكم ومواخيركم سواء فبعداً لكم من بشر

وما انتم بالنبات الحميد ولا بالنخيل ولا بالعشر

اريد من كل هذا ان اصل إلى هذه النتيجة التي اعتقد ان المعري كان يعتقدها ويقرها . هذا الاعتقاد الذي مُنّ به عن المعتقد الديني وهو ان جميع الشرائع من صنع البشر وليس لله فيها اي رأي . وان الرسل ليسوا اهل الرحمة ، واصحاب الحق ، والدعوات الصالحة ، وليس ثم رسل خير كما يعتقد عامة الناس ، بل كانت له بالانبياء نظرة تختلف عن هذا بكثير .

والواقع ان المعري كان يعلق الكثير من الآمال والاماني على الانبياء في مستهل رُوْمياته فهو يعتقد ان عامل النبوة اجتماعي وجدت لتهذيب النفس وصقل الأفئدة :

وموه الناس حتى ظن جاهلهم ان النبوة تمويه وتدليس

قالت معاشر « لم يبعث إلاهنا الى البرية عيساها ولا موسى

ولو قدرت اماقبت الذين طغوا حتى يعود حليف الغي مرموساً

الى هنا والمعري يدافع عن النبوة ويعتقد انها ضرورة لسعادة البشر وخير الانسانية . ولكن هل بقي المعري متين الايمان بصلاح النبوة وخيرها وضرورتها لسعادة البشر ؟ الجواب ، كلا ، لم يستمر ذلك طويلا فسرعان ما قذف المعري بهذا الرأي ضارباً عرض

الحائط بكل رأي ، اليس هو من المفكرين الاحرار ؟ ألم ينتقد رجال الدين دونما خوف من غضبهم ، فهو والحالة هذه لا يقبل الاشياء على علاتها بل يدرس ويحقق ، وحسب من هذه الحياة اعتقاده بأنه لم يداري ، فلقد ضرب رجال الدين ضربته ، وقال فيهم رأيه الصريح اخر دونما خوف ودونما مداراة

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء

ثم اليس قوله : في اللاذقية فتنة ... الخ ألا يدل كل هذا على ان الحقيقة لم يعرفها احد من هؤلاء جميعاً ، بل انها لا زالت بعيدة عنهم .

وهذا هو الآن يصل الى الانبياء ويقول فيهم رأيه صريحا ، ويشك بكتبهم التي قالوا انها نزلت عليهم من السماء :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطروه

وكان الناس في عيش رغيد فجاؤا بالمحال فكدروه

ثم هذا التقاتل بين الشرائع والمذاهب :

اتى عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس

وقالوا لاثني بعد هذا وأودى الناس بين غد وامس

هذه الشرائع التي نكذب بعضها بعضاً ما نصيبها من الصحة ؟

ارأيت فالمعري يضع امر الفوضى والاختلاف ، وتكدر الحياة على الانبياء واصحاب الرسالات .

انا اعتقد ان المعري كان مؤمنا بالله ايمانا مطلقا ، كما انه

لا يرى ثمة سبباً بين السماء والارض ، لذلك فهذا الفساد المنتشر في الارض ليس للقدرة الآلهية اي رأي فيه ولا دخل في انتشاره والاديان السماوية لم تقدر على نحوه بل زادته انتشاراً ، وليس لله اية علاقة في هذا كله .

إله قادر وعبيد سوء وجبر في المذاهب واعتزال

وظواهر الحياة تدل ايضا على وجود خالق عظيم ، رتب هذا الكون وأوجده :

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق بعد درسه التشريحا

ولكن المعري مع ايمانه بالله ومع اعتقاده بفساد الاديان ، يعتقد ان اصلحها هو الدين الاسلامي ، وانسب الانبياء هو النبي محمد ﷺ ، وانه ارى انه ليس للتقليد الموروث اي دخل في هذا الرأي ، فالمعري اخذ من الاديان ما اتفق مع تفكيره وصادف ان اتفق الدين الاسلامي اكثر من غيره مع نظرته الى الحياة والى معاملات الناس والاصلح لهم ، فوجد ان الدين الاسلامي هو ذاك الدين الأصلح والأجدر للحياة ، اذا احترم النبي وقدره بل ومدحه :

دعاكم الى خير الامور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل

فصلي عليه الله ماذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافل

ونعود مذكرين اجمال رأيه في الأديان :

انما هذه المذاهب اسبا ب لجذب الدنيا الى الرؤساء

ترى هل اراد المعري بالمذاهب هنا مذاهب المعتزلة ، واخوان الصفاء وغيرها من المذاهب في الاديان الاخرى . كلا . بل قصد

مجمل الأديان :

وخلاصة القول في هذا ، ان المعري يعتقد بوجود الله رغم ما انتابه من شك اول الامر في مثل هذا الاعتقاد ، ومع كل هذا، فان هذا الاعتقاد اصبح حقيقة راهنة .

اما الاديان فانها لم تحقق الاغراض التي اتت من اجلها ، بل زادت في الخلاف ، وبذر الشقاق والنزاع بين الناس ، وان العدالة الاجتماعية لم توجد يوماً وسوف لا توجد لان طبيعة الانسان وخاصة المسيطر منه قائمة على الشر والفساد .

للمعري العذر في هذا . فان الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت كانت معدومة تماماً ، لان الامراء والملوك كانوا يحكمون ، ويتصرفون بأمور الناس كما يطيب الامراء والنزعات دون رادع او وزاع ، ولم يكن للرجل العادي ، اي رأي ولا توجيه في اي امر من الامور . وسنعود الى نظرة المعري فيما يتعلق بأساليب الحكم في مكان آخر

ولقد اثبت نظريته في الاديان اختلاف اهل الدين الواحد وانقسامهم على انفسهم شيعاً ومذاهباً ، هذا الانقسام الذي زاد الشقاق ، وزاد البغضاء ايضا فاندفع الناس السذج الى خضم من النزاع لانهاية له :

شيع اجلت يوم خم ما نشنت أخرى تعارضها بيوم الغار
والناس في عند الهدى متشيع لزم الملو وناجى شاري

ثم سخريته من المتصوفين :

صوفية مارضوا للصوف نسبتهم حتى ادعوا انهم من طاعة صوفوا
تبارك الله ، دهر حشوه كذب فالمرء فيه بغير الحق موصوف

الناس دائماً وابداً اصل الشر والبلاء ، وطبيعتهم كما يعتقد دائماً منذ الفطرة رفيقة الشر والفساد كما تقدم .

وهكذا كان اهل الارض قد فطروا

فلا يظن جهول انهم فسدوا

ونعود مع المعري الى الارض ، فهو اذاً يعتقد بأن الفساد متمكن من النفوس منذ الازل ، انه ليس بدخيل على القلوب ، بل هو في صميم نشأتها ولقد زاد هذا الفساد في الانسانية تكالب الرؤساء على الانتفاع من مراكزهم .

مل المقام فكم أعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها

انني افهم هنا ان المعري لا يفضل الملكية وحكم الامراء ، فهو يعتقد ان الامراء يستغلون مكانة عائلاتهم ، ووضعهم الاجتماعي لأمور ليست في مصلحة الرعية في شيء . اذن فالمعري كان يكره جميع أساليب الحكم التي كانت معروفة في عصره ، كان يعتقد ان المراكز والنفوذ تساهم في تمكن الفساد ، وفي ابراز ما تحمل النفس الانسانية من شرور وآثام .

والمعري ديمقراطي النزعة ان جاز لنا ان نطلق عليه هذه الصفة ، فهو يكره الافتخار بالنسب .

لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل برمك

فالحق يحلف ما علي عنده إلا كمنبر

والمعري يرى ان اجتماع الناس يزيد من اضطرام الاهواء والتهالك على المفاسد والفوائد . وهذا حق فان طبيعة الجبلي او

البدوي اكثر صفاء وعزة وطيبة من واقع المدني بصورة عامة .

اذا كثر الناس شاع الفسا د وكاد فسد القول لما كثر

ولو كان في المجتمع الخير ، وفي الاجتماع الصلاح لما عرف المعري عنها .

والمعري وهو الذي عرف شعور الضعيف والفقير ، وشعور الغني والقوي ، وادرك غريزة النفس الانسانية دافع عن الضعيف وطالب الغني بمساعدة الفقير ومشاركته في اموالة وانتاجه مشاركة عادلة تضمن لكل منهما حصته ، ولا يعني هذا انه شيوعي كما تعني الشيوعية اليوم ، وهو الذي هاجم حكم الامراء لا يجيد ايضا كما ارى حكم الطغاة والاستبداد من البشر الذي يرغبون صهر القوى الانسانية في بوتقة تنتج الدمار والخراب وتبطش بالناس بطشاً جباراً لا رحمة فيه ، وكيف يتفق هذا مع الذي دعي الى الرحمة بالحيوان مع المذاهب التي لا ترحم ولا تغفر ولا تقدر برغبات الانسان ، ولا تحترم انسانيته ، معتبرة اياه آلة بيدها تستغل امكانياته دونما السماح له بأن يكون حراً في تفكيره ، وفي عمله وفي رغباته المشروعة .

ياقوت ما انت يا قوت ولا ذهب

فكيف تعجز اقواماً مساكينا

واحسب الناس لو اعطوا زكاتهم

لما رأيت بني الاعدام شاكينا

ليس هو بشيوعي ولكنه انسان ، اديب ، وشاعر ، وفيلسوف

يرغب في مشاركة الناس بعضهم ايعض في السعادة ما امكن ذلك، وما اراد الا الرفق بالناس من بني الناس حتى العبيد اراد الرفق بهم والحيوان ايضا .

اذا كسر العبد الاناء فقده اذاة له ان الاناء الى كسر

قلت ان المعري كان فيلسوفاً ، وكان شاعراً ، فلذا لا بد له ان يقول في امور الحياة واهلها ما يجده على انسجام يتفق مع ميوله وارائه وهذا ما وعدنا به في تباين الخصائص التي قامت عليها الفلسفة العلائية من آلهية واجتماعية ، وقلت ايضا ان فلسفة المعري وجدت ان طبيعة الانسان فاسدة ومن هذه الزاوية نظر المعري إلى الناس ، وازيد هنا في توضيح هذه النقطة التي ارتكزت عليها اكثر فلسفة المعري الحياتية ،

ان مازت الناس اخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع اسواء

جرى الناس مجرى واحد في حياتهم

فلم يرزق التهذيب انثى ولا فحل

الم تر ان الخير يكسبه الفتى طريفاً وان الشر في الطبع متلد

هذه من اراء المعري ، او اقوله في طبيعة الانسان وهذه الاراء قادته الى ان يكون جبرياً .

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها فان شذ منا صالح فهو نادر

وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

وفي الاصل غش، والفروع توابع وكيف وفاء النجل والاب غادر

اذن ليس هناك إلا ان نقبل ما يقع وما يحادفنا في حياتنا بالرضى والاستسلام دونما اعتراض لانه ليس لنا اي رأي في ذلك حتى وجوده في هذه الحياة ليس لنا اي رأي فيه ايضا ، ورحيلنا عنها من الالغاز المعامضة .

خرجت الى ذي الدار كرهاً ورحلتي

إلى غيرها بالرغم والله شاهد

ولم تقلت الدنيا من سخطه وغضبه ، واذا قلنا انه اطلق عليها اسم **أم دفر** ، تبين لنا انه كان ينكر عليها حسناتها ، واذا كان في بعض الاحيان لا ينكر انها خيرة ولكن هذا الاقرار بصلاحها لا يدوم طويلا عنده بل يعود الى ذمها والحمل عليها .

لذا كره المعري الدنيا ، وفضل العدم على هـــذه الحياة التي ليست سوى مرتعاً للشرور .

ولم يقتصر امره على هذا فحسب ، بل رجد ان وجود الانسان في هذه الحياة بحد ذاته من ضروب العبث والخطأ الذي لا طائل فيه ، فلذا فضل بل نادى بقطع النسل ، واعتبر ان النسل جناية على الابرياء الذين في الغيب لانهـــم ارسلوا الى بيئة موبوءة كان اصلح لهم لو لم يصلوا اليها بل لو لم يخلقوا ابدا .

على انو لد يجني والدٌ ولو انهم ولاة على امصارهم خطباء

ثم ليس اكثر من هذا الرأي يبين مدى كره المعري النسل .

هذا جناه ابي علي وما جنيت على أحد

اذن فليس سوى الموت المخلص من هذا الواقع الاليم الذي نعيش فيه ، وهنا برزت للمعري مشكلة كان لا بد له ان

يعطي رأيه الصريح فيها ، وهي حين موت الانسان ، الى اين مصيره ؟

واذا كان المعري يعتقد كما يعتقد غيره من الفلاسفة بأن جسد الانسان من تراب :

تراب جسومنا وهي التراب اذا ولى عن الآل اغتراب

فما هو يا ترى رأي المعري بالروح ؟

ليس من شك في ان المعري عرف ما هية الجسم ، ولكن هل عرف حقاً ماهية الروح ؟

يمكننا ان نقول بصراحة ، لا . لم يعرف ماهية الروح بل كان مقلداً في هذا .

الروح طائر محبس في سجنه حتى يمن رداه بالاطلاق

اما الى اين مصير هذا الطائر بعد خروجه من سجنه ؟ يجيب المعري على ذلك بصراحة ايضا ، بأنه لا يدري كشأن الفلاسفة فيما يتعلق بما وراء الطبيعة .

دفنام في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون

ونبرز لنا هنا قضية دينية ثانية ، ما رأي المعري في البعث اذن؟

فالاسلام يقول بخلود الارواح ، وانها تنقل بعد الموت الى الملأ الاعلى ، حتى الاجساد تبعث يوم القيامة فتشقى هنالك او تسعد حسب اعمالها في الارض ، فهل كان المعري هنا مسلماً .

الواضح ان المعري هنا مضطرب العقيدة ايضا ، وليس له في البعث رأياً ثابتاً ، فتارة نراه يقول بالبعث ، وتارة ينكر ذلك .

قال المنجم والطبيب كلاهما لاتحشر الاجسام قلت اليكما

ان كان رأيكما فلست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما

هنا نجده يقول ببدأ الرهان الذي قال به مونتسكيو فيما بعد ، ولكن هذا الامر لا يطول لدى المعري اذ سرعان ما يعود عن هذا قائلا :

تحطمنا الايام حتى كأننا زجاج لا يعاد له سبك

ولكن المعري مع شكه في بعث المزعوم نجده يؤمن بقدرة الله عليه اذا اراد ذلك .

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر بجسم ولا بعث لاموات

والمعري في هذا يرثاني النزعة لايلتقي بالنزعة الاسلامية إلا ما ندر من الوقت ، ليعود ويفترق عنها طويلا .

ونعود مع المعري الى فلسفته العملية او الحياتية لنتبين بقية رأيه في مشاكل الحياة وامور الناس .

اذا قلنا ان المعري يعتبر ان الولادة جناية ، فكيف ترى رأيه في الزواج والنساء وهما الوسيلة الصريحة والوحيدة للولادة ، لقد قال في ذلك ناهياً ومحذراً من الزواج :

فان انت لم تملك وشيك فراقها فعف ولا تنكح عوانا ولا بكراً

ثم انظر كيف يفضل الرهبنة على الزواج :

ويعجبني عيش الذين ترهبوا

سوى اكلهم كد النفوس الشحائح

ورأي المعري صريح في هذا المعنى ، فهو يعتبر ان في الزواج كل الشر للرجل لأنه يكلفه مطالب عديـــدة بينما يرحب بزواج المرأة ويحث وليها على ذلك .

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها

وخوف ابناك من نسل وترويج

ومرد ذلك كما نرى الى سوء ظنه بالمرأة على الاطلاق ، واعتقاده ان العفيفة الطاهرة فيهن نادرة ، والمعري في المرأة اراه غريبة . اراه قاسية تبلـــغ حد الظلم ، وملخص هذه الاراء : من انه يرى ان المرأة لا تصلح لشيء لأن في نفسها كل الشر ، وكل الغواية حتى انه حرم عليها العلم اذا امكن . واذا كان لا بـد لها من العلم فلتتعلم النسج والغزل :

علموهن النسج والغزل والردن وخـلوا كتابة وقراءة

ثم في موضع آخر :

ألا ان النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد

ورأي المعري بعد كل هذا في المرأة واضح كل الوضوح ومعروف كل المعرفة ، واشعاره فيها كثيرة وكلها تدور على مهاجمتها .

ولقد اعرض المعري عن النساء - او هن اعرضن عنه - كما اعرض عن اللذائذ بوجه عام ، وكان يعتبر ان اللذة تورد الألم ، يضاف الى ذلك انه كان زاهداً قانعاً بما هو فيه من الفاقة .

ولم اعرض عن اللذات إلا لان خيارهن عني خنسنة

ولقد كان يرى ايضا الاشتراكية في النساء .

وما دمنا قد تناولنا موضوع الاشتراكية ثانية ، فهل كان

المعري اشتراكياً كما هي الاشتراكية في مفهومنا العصري ، منهم من يقول بذلك ويعتمد قوله :

لو كان لي او لغيري قدر نملة من البسيطة خلت الامر مشتركا

الجواب على ذلك : هو ان المعري لم يكن اشتراكياً كما هو المفهوم الحالي للاشتراكية ، ولكنه كان فيلسوفاً يطلب المساواة والراحة لبني البشر ، اما النظام الاشتراكي فلم يكن يفكر به مطلقاً ، بل كان يطلب العطف على الفقير ، ويتمنى ان يعيش الضعيف عيشة محترمة كأنسان له في الانسانية ما لغيره

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء

والمعري كما ذكرنا سابقاً ينشد الرحمة والعطف ليس للأنسان فحسب بل لكل ذي روح ، وقصة المعري مع الديك مشهورة ونثبت هنا ذلك بقوله :

فلا تأكلن ما اخرج البحر ظالماً ولا تبغ قوتاً غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير وهو غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح

ومذهب الامتناع عن أكل اللحوم منتشر في الهند ولدى الكثير من الفلاسفة ، ولكن لنا هذا السؤال البسيط هنا : ما هو موقف المعري يا ترى لو ثبت ان للنبات روح ايضاً ؟ الواقع ، والحالة هذه لقد كان على الانسان ان يموت من الجوع .

لقد بينا في هذه الدراسة المقتضبة الأسس التي قام عليها المذهب العلائي وعالجنا نواحي هذا المذهب ، وبقي علينا ان نبين خصائص فن المعري وشعره وأدبه .

كان المعري شاعراً لبقاً ، وفحلا من فحول الشعر وهذه هي

لزومياته خير دليل على انه كان شاعراً مطلعاً وهو الذي اخذ نفسه في نظم لزومياته بلزوم ما لا يلزم ، فجعل القافية في حرفين حيث يكفي الحرف الواحد ، وجعلها في ثلاثة حيث يكفي الحرفان .

واذا كان المعري قد ظهر في بعض من شعره غامضاً ، فهذا لا يشوه ولا يحط من مقدرته الفنية ، بل ان ذلك اقتضته الظروف الزمنية والدينية والاجتماعية ، ومع اني بعبقرية المعري لا بد لي من ان اقول هنا : ان المعري هدم اكثر مما شاد ، ومهما يكن من امر زمنه ومصائبه فان تلك العبقرية كان عليها ان تنحت الحياة بآراء فيها التشييد والبناء الذي يدفع بالعبقرية الانسانية مراحل بعيدة في طريق التقدم والمجد .

والمعـــري الى جانب كل هذا خصب الخيال . وسنثبت في مختاراتنا المزيد من رسالة الغفران التي كتبها المعري سنة ٤٢٤ هـ في الرد على رسالة كان قد بعث اليه بها رجل من ادباء حلب اسمه علي بن منصور ، المعروف بابن القارح .

اما اسم هذه الرسالة فيعود الى ان الكاتب كثيراً ما استعمل لفظة « الغفران ... ومشتقاتها » فهو اول ما يطرح على سكان الجنان من الاسئلة « بم غفر لك » وعلى اهل النار ، « لم لم يُغفر لك ؟ » .

وهذه الرسالة في اعتقادي ثمرة ناضجة من ثمار عبقرية المعري ، وهي تشبه الأعجوبة الآلهية لدانتي . وفيها طرافة وسخرية لاذعة وفيها غنى واطلاعاً واسعاً ، ثم هذا التهكم بأقدس مقدسات الانسان ، وذلك بجعله الله شرطياً عمه ارضاء شهوات المخلدين في تلك الجنـــة التي لا تمت بصلة الى الجنة التي عرفت عنها الكتب المقدسة ، وفي هذه الرسالة يظهر فن المعري النثري ايضا .

وسوف لا اطيل الحديث عن « رسالة الغفران » فها هي الرسالة بنفسها بين يديك . وسوف تتلمس بنفسك ما انطوت عليه عبقرية المعري من خيال خصب ، وما جمعت هذه العبقرية من قدرة واسعة في الأطلاع على آداب المتقدمين ، إلى هذه البراعة الراسخة في اللغة ، واذا كانت بعض مفردات الرسالة صعبة غامضة ، فما ذلك إلا لان المعري اراد كما يظهر ان يثبت مقدرته اللغوية ، ثم توجيه النقد بهذا الاسلوب الذي يحمي في غموض اكثر الفاظه بعض مقاصد المعري وسخريته ،

واعيد هنا مـــن انني سوف لا اطيل في الحديث عن رسالة الغفران فانا اعتقد ان التعريف بهذه الرسالة والحديث عنها والتفلسف حولها ، يشوه ما لهذه الرسالة من طرافة وجرأة قلما نجـــدها عند اي مفكر مسلم آخر ، واذا سمحنا لأنفسنا ان نذكـر رأيا عن هذه الرسالة فنقول : انها تتمة لاراء المعري وعقيدته ونظرته الى الكون والحياة والناس ايضا . اما لماذا اثبتناها هنا اي قبل المنتخبات الشعرية فما ذلك الا لأنها نثراً ، بل هي بنفسها اثراً طريفاً خالداً

وبذلك نحرص على جمال الفن الطباعي ، فيأتي نثر المعري بعد دراستنا عنه ، ويتبع ذلك المنتخبات من شعره .

●

توطئة الرسالة

وصف رسالة ابن القارح

وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور (١) ، ومن قرأها لا شك مأجور (٢) ، اذ كانت تأمر بتقبل الشرع (٣) ، وتعيب من ترك اصلا الى فرع . وغرقت في امواج بدعها الزاخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها شفع ونفع ، وقرب عند الله ورفع .

وفي قدرة ربنا جلت عظمته ، ان يجعل كل حرف منها شبح نور ، لا يبتزج بمقال الزور «٤» ، يستغفر لمن انشأها الى يوم الدين ، ويذكره ذكر محب خدين . ولعله ، سبحانه ، قد نصب المنجية من اللهب ، معاريج من الفضة او الذهب ، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة الى السماء ، وتكشف سجون الظلماء ، بدليل الآية : « **اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** » وعده الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : « **الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها** . » وفي تلك السطور كلم كثير كله عند البارىء ، تقدس ، اثير ! (٥)

---

١) مسجور ، مملوء

٢) مأجور ، مثاب

٣) تقبل الشرع ، اي التمسك بالقوانين الدينية

٤) الزور ، الكذب

٥) اثير ، محبوب

رسالة الغفران

القسم الاول

— الجنة —

وصف الجنة

الاشجار والانهار — وصف الحور

وكأني وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل ، إن شاء الله ، بذلك الثناء ، شجراً في الجنة لذيذ اجتناء . كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظل غاط ، ليست في الاعين كذات انواط (١)

وتجري ، في اصول ذلك الشجر ، انهار تختلج من ماء الحيوان (٢) والكوثر (٣) بعدها في كل أوان ، من شرب منها النغبة (٤) فلا موت ، وقد أمن هنالك الفوت . وسعد (٥) من اللبن متخرقات لا تغير بان تطول الأوقات . وجعافر (٦) من الرحيق المختوم ، كما قال علقمة

تشفي الصداع ، ولا يؤذيه طالبها

ولا يُخالط ، منها ، الرأس تدويم (٧)

١] ذات انواط : اسم شجرة ورد ذكرها في الحديث .

٢) ماء الحيوان : اي ماء الحياة .

٣) الكوثر : نهر في الجنة تتفجر منه جميع انهارها .

٤) النغبة : الجرعة .

٥) سعد : السواقي .

٦) جعافر : جداول .

٧] تدويم : الدوار الذي يحصل نتيجة السكر .

ويعمد اليها المغترف بكؤوس من العسجد ، وأباريق خلقت من الزبرجد (١) ولو نظر اليها عدي بن زيد (٢) ، لشغل عن المدام والصيد ، واعترف بأن اباريق مدامه أمر هين لا يعدل بنابت من حمص (٣) ، او ما حفر من خربصيص (٤)

فاما الاقيشر السعدي (٥) فأنه قال ، ولعله سيندم :

افنى تلادى ، وما جمعت من نشب

قرع القوازيز افواه الاباريق (٦)

ما هو وما شرابه ؟ نقضت في الحانة (٧) آرابه ! لو عاين تلك الاباريق لأيقن أنه فتن بالغرور ، وسُر بغير موجب للسرور. وكم على تلك الأنهار من آنية زبرجد وياقوت ! بين اصفر ، واحمر وازرق ، يخال ان لمس أحرق ، كما قال الصنوبري (٨) :

تخيله ساطعاً وهجه فتأبى الدنو الى وهجه !

وفي تلك الانهار أوان على هيئة الطير السابحة ، والغانية عن الماء السائحة ، فمنها ما هو على صور الكراكي (٩) وأخر تشاكل

١] الزبرجد : حجر كريم

٢] عدي بن زيد : شاعر عرف عنه وصفه للخمر ، وهو نصراني وجاهلي .

٣] حمص : نبات حامض .

٤] خربصيص : نبات له حب يتخذ منه طعام .

٥] الاقيشر السعدي : شاعر اموي ، كوفي اشتهر بوصف الخمرة .

٦] القوازيز : اقداح الشراب .

٧] الحانة : اي الدنيا .

٨] الصنوبري : شاعر حلبي اشتهر بوصفه للجنائن .

٩] الكراكي : ج . الكركي : طائر كبير

المكاكي (١) وعلى خلق طواويس وبط ، فبعض في الجارية (٢) وبعض في الشط . ينبع من افواهها شراب ، كأنه ، من ازرقه سراب ؛ لو جرع منه جرعة الحكمي (٣) لحكم بانه الفوز . وشهد له كل وصاف للخمر ، من محدث وعتيق .

انهار العسل

ويعارض تلك المدامة انهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية الى الأنوار (٤) ولا هو في موم (٥) متوار ، ولكن قال له العزيز القادر :

« كن ! » فكان . واهاً لذلك عسلا ! لو جعله الشارب المخمور غذاءه طول الأبد ، ما قدر له عارض سموم (٦) ، ولا لبس ثوب المحموم . وذلك كله بدليل الآية :

مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها انهار من ماء غير آسن (٧) وانهار من لبن لم يتغير طعمه ، وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات . »

فليت شعري عن النمر بن تولب العكلي (٨) ! هل يقدر له ان يذوق ذلك الأري (٩) ، فيعلم ان شهد الفانية ، اذا قيس اليه ، وجد يشاكه الشري (١٠) وهو لما وصف أم حصن (١١) ذكر حواري (١٢) بسمن وعسل مصفى ، قال :

---

١) المكاكي : ج المكاء ، طائر من القطا
٢) الجارية : يقصد بها الماء ٣) الحكمي : ابو نواس
٤) الانوار : الزهور البيضاء ٥) الموم : الشمع
٦) السموم ، مرض يصيب الحجاب بين القلب والكبد
٧) آسن : اسن الماء ، أنتن ٨) العكلي ، شاعر مقل
٩) الاري ، الشهد من العسل ١٠) الشري ، الحنظل
١١) ام حصن ، المرأة التي يشبهها الشاعر المذكور ١٢) الحواري : الخبز الابيض

ألم بصحبتي ، وهم هجوع خيالٌ طارق من أم حصن

لها ما تشتهي عسلا مصفى اذا شاءت ، وحوارى بسمن

ولو خالط منّ (١) من عسل الجنان ما خلقه الله ، سبحانه ، في هذه الدار الفانية الخادعة كالصاب والمقر (٢) ، لعدّ من اللذائذ المرتقبات .

الأسماك

واذا منّ الله ، تبارك اسمه ، بورود تلك الأنهار ، صاد فيها الوارد سمك حلاوة لم ير مثله ، او بصر به احمد بن الحسين (٣) لأحقر الهدية التي أهديت اليه فقال فيها :

اقلّ ما في اقلها سمكٌ يسبح في بركة من العسل

فأما الانهار الخمرية فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك البحرية والنهرية ، الا انه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، المقابلة بالنور الباهر . فاذا مد المؤمن يده الى واحدة من ذلك ، شرب من فيها عذباً ، لو وقعت منه الجرعة في البحر الذي لا يستطيع الشارب ، لحلت منه اسافل وغوارب (٤)

١] المن : قدر صغير

٢] المقر : المر ، الحامض

٣] احمد بن الحسين : المتنبي

٤] غوارب : اعوج المرتفع

ندامى الجنة

علماء اللغة والنحو

وكأني به ، اذا استحق تلك الرتبة ، بيقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من ادباء الفردوس ، كأخي ثالة (١) واخي دوس (٢) ، ويونس بن حبيب الضبي (٣) وابن مسعدة المجاشعي (٤) فهم ، كما جاء في الكتاب العزيز :

« ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين . »

فصدر احمد بن يحيى (٥) ، هنالك ، قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد ، فصارا يتصافيان ويتوافيان . وابو بشر عمرو بن عثمان (٦) قد رخصت سويداء قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكسائي (٧) واصحابه ، لما فعلوا به في مجلس البرامكة وابو عبيدة (٨) صافي الطوية لعبد الملك بن قريب (٩) والملائكة

---

١) اخو ثالة : (محمد بن يزيد) مؤلف كتاب « الكامل » في اللغة والادب والنوادر

٢) اخو دوس ، كنية ابن دريد من مشاهير اللغويين في العصر العباسي الثاني

٣) يونس بن حبيب : يونس النحوي ، لأنه اختصر في علم النحو

٤) ابن مسعدة المجاشعي ، من علماء العصر العباسي ايضا في اللغة والنحو

٥) احمد بن يحيى ، هو المعروف بثعلب ، من اشهر النحاة في العصر العباسي الثاني

٦) ابو بشر عمرو بن عثمان ، سيبويه

٧) الكسائي ، امام مذهب الكوفيين

٨) ابو عبيدة ، (معمر بن المثنى ، يهودي الاصل ، شعوبي النزعة ، من اشهر العلماء بأخبار العرب

٩) عبد الملك بن قريب ، الأصمعي ، من اشهر الادباء ولد ومات في البصرة (٧٣٩-٨٣٢)

يدخلون عليهم من كل باب « سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار ! »

وابو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ، ومقاتل الفرسان والأصمعي ينشدهم ما احسن قائله ...

ونهش نفوسهم للعب ، فيقذفون تلك الآنية في انهار الرحيق ، ويصفقها الماذيّ (١) اي تصفيق وتقترع تلك الآنية فيسمع لها اصوات تبعث بمثلها الاموات . فيقول الشيخ : « آه لمصرع الاعشى ميمون! وددت انه ما صدته قريش لما توجه الى النبي (ﷺ) . ولو انه اسلم ، لجاز ان يكون بيننا في هـــذا المجلس ، فينشدنا غريب الأوزان مما نظم في دار الاحزان ويحدثنا حديثه مع من مدحه او هجاه ، وخانه في الزمن او رجاه ! ؟

النزهة في الجنة

ثم انه (٢) ادام الله تمكينه ، يخطر له حديث شيء كان يسمى « النزهة » في الدار الفانية ، فيركب نجيبا (٣) من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سجسج (٤) بعد عن الحر والقر ، فيسير في الجنة على غير منهج ومعه اناء فيه ج ، وشيء طعام الخلود . فاذا رأي نجيبه يُلمِعُ (٥) بين كثبان العنبر رفع صوته متمثلاً بقـــول البكري (٦)

---

١) الماذي ، العسل الابيض

٢) انه ، يعني ابن الفارح

٣) النجيب ، الجمل القوي

٤) سجسج ، الريح الليّنة

٥) يلمع ، يسير سريعاً خفيفاً

٦) البكري ، « الأعشى »

ليت شعري متى تحب بنا النا قة بين العذيب فالصيبون (١)
محقباً زُكرةً ، وخبز رقاقٍ وحباقاً ، وقطعة من نونِ (٢)

احاديث الشعراء

الاعشى

فيهتف هاتف : « انشد ايها العبد ، المغفور له لمن هـذا الشعر ؟ » .

فيقول الشيخ : « نعم ! حدثنا اهل نقتنا عن اهل نقتهم ، ان هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل . » فيقول الهاتف : « انا ذلك الرجل منّ الله علي بعد ما صرت من جهنم على شفير ، ويئست من المغفرة »

فيلتفت اليه الشيخ هاشاً باشاً مرتاحاً . فاذا هو بشاب غرانق (٣) وقد صار عشاه حوراً ، وانحناء ظهره قواماً . فيقول : « سحبتني الزبانية الى سقر (٤) فرأيت رجلاني عرصات (٥) القيامة ، بتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، والناس يجتمعون به من كل أوب (٦) : « يا محمد يا محمد ! الشفاعة ؟ نمت بكذا ؟ ونمت بكذا » فصرخت في يدي الزبانية : « يا محمد اغثني ، فان لي بك حرمة ! » فقال : « يا

---

٢) العذيب والصيبون : موضعان
٢) الزكرة ، زق صغير للخمر . والنون ، السمك
٣) غرانق ، حسن الوجه
٤) سقر ، من اسماء جهنم
٥) عرصات : الساحات
٦) اوب ، جهة

علي ! بادره فانظر ماحرمته » . فجاءني عـــلي بن ابي طالب ، صلوات الله عليه ، وانا اعتل (١) كي ألقـــى في الدرك الاسفل من النار . فزجرهم عني ، وقال : « ما حرمتك ؟ » فقلت انا : القائل :

الا ايهذا السائلي : اين يممت ؟ فان لها ، في اهل يثرب موعدا !

فآليت ، لا ارثي لها مـن كلالة

ولا من حفي حتى تلاقي محمـدا (٢)

وقد كنت اؤمن بالله وبالحساب ، واصدق بالبعث ، وانا في الجاهلية الجهلاء . فـذهب علي الى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله ، هذا اعشى قيس قد روى مدحة فيك ، وشهد انك نـــبي مرسل . » فقال : « هلا جاء في الدار السابقة ! » فقال علي ، رضوان الله عليه : « قد جاء ، ولـكن صدته قريش وحبه للخمر » فشفع لي ، فادخلت الجنة على ان لا اشرب فيها خمرا فقرت عيناي بذلك . وان لي منادح (٣) في العسل وماء الحيوان . وكذلك من لم يتب عن الخمر في الدار الساخرة ، لم يسقها في الاخرة .

زهير بن ابي سُلمى

وينظر الشيخ في رياض الجنة ، فيرى قصرين منيفين . فيقـول في نفسه : « لأبلغن الى هذين القصرين فأنظر لمن هما . » فاذا

---

١) اعتل ، اسعى

٢) الكلالة ، التعب

٣) منادح ، اغاني

قرب منها رأى على احدهما مكتوباً : « هـذا القصر لزهير بن ابي سلمى المزني . » (١) وعلى الآخر : « هـذا القصر لعبيد بن الابرص الاسدي . » (٢) فيعجب من ذلك ويقول : « هذان ماتا في الجاهلية ! ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء . وسوف انتس لقاءهما فأسألهما بم غفر لهما . »

فيبتدىء بزهير فيجده شاباً كالزهرة الجنية ، قد وُهب له قصر من ونية (٣) ، كأنه ما لبس جلباب هـرم ، ولا تأفف من البرم (٤) ، وكأنه لم يقل في المبيية :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش
ثمانين حولا ، لا أبا لك ، يسأم !

ولم يقل في الاخرى :

ألم ترني عمرت تسعين حجة وعشراً تباعاً عشتها ، وثمانيا !

فيقول : « جير جير ! (٥) انت ابو كعب وبجير ! » فيقول نعم ! » فيقول ، أدام الله عزه : « بم غفر لك ، وقد كنت زمان الفترة والناس همل ، لا يحسن منهم العمل ؟ » فيقول : « كانت نفسي من الباطل نفورا ، فصادفت ملكاً غفوراً . وكنت مؤمناً بالله العظيم . ورأيت ، فيما يرى النائم ، حبلا نزل من السماء ، فمن تعلق به من سكان الارض نجا . فعلمت انه من امور

---

١) زهير ، من اشهر شعراء الجاهليين
٢) عبيد ، من شعراء الجاهليين
٣) الونية ، اللؤلؤة
٤) البرم ، برم بالشيء : ضجر منه
٥) جير ، نعم

الله ، واوصيت بني وقلت لهم عند الموت : « ان قام قائم يدعوكم الى عبادة الله فأطيعوه . » ولو ادركت محمداً لكنت اول المؤمنين به . وقلت في الميميه ، والسفه ضارب بالجران .

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم !
يؤخر ، فيوضع في كتاب ، فيدخر
ليوم حساب ، او يعجل فينقم

فيقول : الست القائل :

وقد اغدو على ثبة كرام نشاوى ، واجدين لما نشاء (١)
يجرون البرود ، وقد تمشت حميا الكاس ، فيهم ، والغناء !

افأطلقت لك الخمر كغيرك من اصحاب الخلود ؟ ام حرمت عليك مثلما حرمت على اعشى قيس ؟ فيقول زهير : « ان أخا قيس ادرك محمداً فوجبت عليه الحجة لانه بعث بتحريم الخمر ، وحظر ما قبح . وهلكت انا ، والخمر كغيرها من الاشياء ، يشربها اتباع الانبياء ، فلا حجة علي . »

فيدعوه الشيخ الى المنادمة فيجده من ظرفاء الندماء ، فيسأله عن اخبار القدماء .

عبيد بن الابرص

ثم ينصرف عنه الى عبيد . فاذا هو قد أعطي بقاء التأبيد «٢»

---

١) ثبة : جماعة
٢) التأبيد : ويقصد به الخلود

فيقول : « السلام عليك : يا اخا بني أسد ! » فيقول : « وعليك السلام !

— وأهل الجنة أذكياء ، لا يخالطهم الاغبياء — لعلك تريد ان تسألني بم غفر لي ؟ » فيقول : « أجل ! وان في ذلك لعجباً ! فيقول عبيد : « اني كنت أدخلت الهاوية ، وكنت قلت ايام الحياة :

من يسألِ الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب !

وسار هذا البيت في آفاق البلاد . فلم يزل يُنشد ، ويخفف عني العذاب ، حتى أطلقت من القيود والأصفاد . ثم لم يزل يكرر حتى شملتني الرحمة ببركة هذا البيت ، وان ربنا لغفور رحيم ! »

فاذا سمع الشيخ ما قال ذلك الرجلان طمع في سلامة كثير من الشعراء .

عدي بن زيد

فيقول لعبيد : « أالك علم بعدي بن زيد العبادي ؟ » فيقول : « هذا منزله قريباً منك ! » فيقف عليه فيقول : « كيف كانت سلامتك على الصراط ؟ » فيقول : « اني كنت على دين المسيح ! ومن كان من اتباع الأنبياء قبل ان يُبعث محمد : فلا بأس عليه ، وانما التبعة على من سجد للأصنام » ...

فيقول الشيخ : « لقد هممت ان اسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه ، وهو قولك :

أدوَاحٌ مودع ام بكور انت ، فانظر لاي حال تصير !

« فانه يزعم ان « أبت » يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك « فأنظر » ، وانا استبعد هذا المذهب ولا اظنك اردته ! فيقول عدي بن زيد : « دعني من عنه الاباطيل ...

« ولكني كنت ، في الدار الفانية ، صاحب قنص ، فهل لك ان نركب فرسين من خيل الجنة ، فنبعثها على صيرانها (١) وخيطان (٢) نعامها ، وامراب ظبائها ، وعانات (٣) حمرها ، فان للقنيص لذة ! » فيقول الشيخ : « انما انا صاحب قلم ، ولم اكن صاحب خيل ! ... وما يؤمنني ، اذا ركبت طرفا (٤) — وانا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيل الا بعد ما كبروا فهم ثقال، على اكتافها عنف!

أن يقذفني السابح على صخور زمرد ، فيكسر لي عضداً او ساقاً فأصير ضحكة في اهل الجنان » ! فيبتسم عدي ويقول : « ويحك اما علمت ان الجنة لا يرهب لديها السقم ، ولا تنزل بسكنها النقم ؟ »

فيركبان سابحين من خيل الجنة ، مركب كل واحد منهما لو عدل بمالك العاجلة من اولها الى آخرها ، لرجح بها وزاد في القيمة عليها . فاذا نظر الى صوار ترتع في رياض الفردوس ، صوب الشيخ الجليل المطرد (٥) الأخنس (٦) ذيال ، قد رتع هنالك طويل ايام وليال . فاذا لم يبق بين السنان وبينه الا قيد ظفر ، قال له :

---

١) الصيران : القطعان من بقر الوحش .
٢) الخيطان : النعام .
٣) العانات : القطعان من حمر الوحش .
٤) الطرف : الجواد الصغير السن .
٥) المطرد : الرمح القصير
٦) الاخنس : الثور المتوحش

« أمسك يا عبد الله ! فاني لست من وحش الجنة التي انشأها الله سبحانه ، ولم تكن في الدار الزائلة . ولكني كنت في محلة الغرور اورد في بعض القفار . فمر بي ركب مؤمنون قد اكرى (١) زادهم فصرعوني ، واستعانوا بي على السفر . فعوضني الله بأن اسكنني في الخلود . » فيكف عنه الشيخ ويعمد لعلج (٢) وحشي ، ما التلف عنده بمخشي ، فاذا صار الحرص منه بقدر انملة ، قال : « أمسك ياعبد الله ! فان الله انعم علي ورفع عني البؤس . وذلك صادني صائد بمخلب وكان اهابي (٣) له كالسلب ، فباعه في بعض الأمصار فاتخذ منه غرب (٤) سقي بائه الكرب ، وتطهر بنزيعه (٥) الصالحون . فشملتني بركة من اولئك ، فدخلت الجنة ارزق فيها بغير حساب . »

ابو ذؤيب الهذلي

وينصرف مولاي الشيخ وصاحبه عدي . فاذا هما برجل يحتلب ناقة في اناءٍ من ذهب فيقولان : « من الرجل ؟ » فيقول : « ابو ذؤيب الهذلي » (٦) فيقولان : « حييت وسعدت ! اتحتلب مع انهار من لبن ؟ » فيقول لا بأس ! انما خطر لي ذلك مثلما خطر لكما القنص . فقيض الله بقدرته لي هذه الناقة مطفلا . فقمت احتلب على العادة . واريد ان اشوب ذلك بضرب (٧) نحل . »

---

١) اكرى ، نفس
٢) العلج ، حمار الوحش
٣) الاهاب ، الجلد
٤) الغرب ، الدلو
٥) النزيع ، الماء المأخوذ من البئر .
٦) ابو ذؤيب الهذلي ، احد الشعراء المخضرمين
٧) الضرب ، العسل

فاذا امتلأ إناؤه من الرسل (١) ، كون الباري ، جلت عظمته خلية من الجوهر ، ونبع نولها (٢) في الزهر فاجتني ذلك ابو ذؤيب ومزج حليبه . فيقول : « الا تشربان ! » فيجرعان من ذلك الحليب جرعاً لو فرقت على اهل سقر لفازوا بالخلد .

النابغتان

ويمضي في نزهته ذلك فيمر بشابين يتحادثان كل واحد منهما على باب قصر من در ، قد اعفي من البؤس والضر . فيسلم عليهما ويقول « من انتما ؟ - رحمكما الله ! — وقد فعل ! » فيقولان : ، نحن النابغتان ، نابغة بني جعدة (٣) ونابغة بني ذبيان . (٤)

فيتحادثون جميعاً . ثم يشتهون مرأى الاعشى ، « فلا تتم الكلمة الا وابو بصير قد خسهم » فيتذاكرون في شعر النابغة الذبياني واختلاف الرواة فيه ، ويشتهون حضور الرواة فيأتيهم حالاً المازني والشيباني ، وابو عبيدة ، والاصمعي ...

مجلس غناء

ويمر رف من إوز الجنة . فلا يلبث ان ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لأمر . ومن شأن طير الجنة ان يتكلم . فيقول (الشيخ) . « ما شأنكن ؟ » فيقلن . « ألهمنا ان نسقط في هذه الروضة . فتغني لمن فيها » فيقول . « على بركة الله القدير ! » فينتفض فيصرن جواري كواعب يرفلن في وشي الجنة

---

١) الرسل ، اللبن .

٢) النول ، النحل

٣) النابغة الجعدي ، حسان بن قيس

٤) النابغة الذبياني ، من اشهر شعراء الجاهلية - وهو الذي مدح بني غسان

وبأيديهن المزاهر (١) وانواع ما يلتمس به الملاهي . فيعجب ، وحق له العجب ، وليس ذلك بعجيب من قدرة الله ، جلت عظمته .

فتغني احداهن بصوت « لو نحت من صلم احجار ثم سمع ذلك الصوت لرقص » . وبعد ان يمتعها ويتيقن حذقها يقول .

« ويحك ألم تكوني الساعة بوزة طائرة ! فمن اين لك هذا العلم ؟ لو نشأت بين معبد وابن سريج (٢) ، لما هجت السامع بهذا الهيج ! فكيف نفضت عنك يد الاوز ؟ » فتقول : « وما الذي رأيت من قدرة بارئك ! انك على سيف (٣) بحر لا يدرك له عبر سبحان من يحيي العظام ، وهي رميم ! »

لبيد

فبينما هم كذلك اذ مر شاب في يده محجن (٤) ياقوت ، فسلم عليهم فيقولون : « من انت ؟ » فيقول : « انا لبيد (٥) بن ربيعة ابن مالك بن جعفر ابن كليب ... » فيقول : « اكرمت اكرمت ! لو قلت : لبيد ، وسكت ، لشهرت باسمك ! فما بالك في مغفرة ربك ؟ » فيقول : « انا بحمد الله في عيش قصر ان يصفه الواصفون ، لا هرم ولا برم » . فيقول الشيخ : تبارك الملك القدوس ! كأنك لم تقل في الدار الفانية .

---

١) المزاهر ، الآلات طرب تشبه العود — ومفردها مزهر

٢) معبد وابن سريج : مغنيان مشهوران في العصر الاموي

٣) سيف البحر ، شاطئه .

٤) المحجن : العصا

٥) لبيد : من مشاهير شعراء الجاهلية

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس :« كيف لبيدٌ ؟ »

فأنشدنا ميميتك المعلقة فيقول » : « هيهات ! اني تركت الشعر في الدار الخادعة . ولن اعود اليه في الدار الآخرة ، وقد عوضت ما هو خير وأبر ! .

العودة الى الغناء

ويختار له غناء القيان في الفسطاط (١) ومدينة السلام (٢) ويذكر ترجيعهن بمبية المخبل السعدي (٣) فتندفع تلك الجواري التي تقلنهن القدرة من خلق الطير الى خلق الحور ، ملحنة قول المخبل .

ذكر الرباب ، وذكرها سقمٌ وصبا ، ليس صبا عزمٌ !

فلا يمر حرف ولا حركة الا ويوقع في النفوس مسرة .لو عدلت بمسرات اهـــل العاجلة ، منذ خلق الله آدم الى ان طوى ذريته ، لكانت الزائدة على ذلك زيادة الثلج المتموج على دمعة الطفل ، والغضب الشامخ على الهباءة (٤) .

مشاجرة النابغة الجعدي والاعشى

ويقول نابغة بني جعدة ، وهو جالس يستمع . ، يا ابا بصير اهذه الرباب التي ذكرها السعدي هي ربابك التي ذكرتها في قولك:

فما نطق الديكُ حتى ملاء ت كوب الرباب له، فاستدارا ؟

---

١) الفسطاط : مدينة بمصر

٢) مدينة السلام : بغداد

٣) المخبل السعدي ، شاعر جاهلي

٤) الهباءة ، الغبار .

فيقول ابو بصير : « قد طال عمرك ، يا ابا ليلى ، واحسبك اصابك الفند (١) فبقيت على فندك الى اليوم ... اما علمت ان اللواتي يسمين بالرباب اكثر من ان يحصين ؟ افتظن ان الرباب هذه هي التي ذكرها القائل :

ما بال قومك ، يا رباب ، خزراً كأنهم غضاب ! (٢)

او التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

« وجارتها ام الرباب بأسفل » ؟

فيقول نابغة بني جعدة : « اتكلمني بمثل هذا الكلام ، يا خليع بني ضبيعة ؟ وقد متّ كافراً واقررت على نفسك بالفاحشة . وانا لقيت النبي (ﷺ) فانشدته كلمتي ...

أغرّك ان عـدّك بعض الجهال رابع الشعراء الاربعة ؟ واني لأطول منك نفساً واكثر تصرفاً . ولقد بلغت بعدة البيوت ما لم يبلغه احد من العرب قبلي ...

فيغضب ابو بصير ويقول : « اتقول هذا ، وان بيتاً مما بنيت يعدل بيتاً من بنائك ! وان اسهبت في منطقك ، فان المسهب كحاطب الليل ... اتعيّرني مدح الملوك ، يا جاهل ! ، ولو قدرت على ذلك هجرت اليه اهلك وولدك ! ولكنك خلقت جباناً ... »

فيقول الجعدي : « اسكت يا ضل بن ضل » (٣) . فاقسم ان دخولك الجنة من المنكرات . ولكن الاقضية جرت كما شاء الله . لحقك ان تكون في الدرك الاسفل من النار ، ولقد صلي بها من

---

١) الفند ، الخرف

٢) خزر ، ضيق العين

٣) ضل بن ضل ، يراد به لا يعرف من امه

هو خير منك ! ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت انك غلط بك ... »

ويثب نابغة بني جعدة على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب ..

فيقول الشيخ ، اصلح الله به : « لا عربدة في الجنان ! انما يعرف ذلك في الدار الفانية ، بين السفلة والفجاج (١) ، وانك يا ابا ليلى لمتسرع (٢) ولولا ان في الكتاب الكريم : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون ! » لظننتك اصابتك نزف في عقلك ! فاما ابو بصير فما شرب الا اللبن والعسل ، وانه لوقور في المجلس . »

ويريد ان يصلح بين الندماء فيقول : « يجب ان نحذر من ملك يعبر ، فيرى هذا المجلس ، فيرفع حديثه إلى الجبار الاعظم فلا يجر ذلك الا الى ما نكرهان ! » واستغني ربنا ان ترفع الاخبار اليه ؟ ولكن جرى ذلك مجرى الحفظة في الدار العاجلة ...

ثم يصطلحان ويمر بالجالسين حسان بن ثابت فيتحدث معهم مدة .

ويفترق اهل ذاك المجلس وبعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة !

عوران قيس

فبينما هو يطوف في رياض الجنة يلقاه خمسة نفر على خمس اينُق فيقول : « ما رأيت احسن من عيونكم في اهل الجنان ! فمن انتم خلد الله عليكم النعيم ! » فيقولون : « نحن عوران قيس ... »

فيسأل احدهم ، الشماخ بن ضرار ، عن اشياء في شعره فيلفيه نسي كل شيء ، وكذلك تميم بن أبي ، فلا ينال منهما جواباً شافياً لان صعوبة يوم الموقف ، وفيه انتظار الحكم الآلهي ، تنسي الانسان كل ما عمله في الدنيا .

ثم يستطرد ابن القارح الى ذكر قصته في « يوم الموقف » :

---

١) الفجاج ، الحفر ٢) متسرع ، مسرع الى التهلكة

القسم الثاني

يوم الموقف

دينونة ابن القارح

فيقول : انا اقص عليك قصتي :

لما نهضت انتفض من الرَّيم (١) ، وحضرت عرصات القيامة ، ذكرت الآية : « **تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة فاصبر صبراً جميلاً !** » فطال عليَّ الامد ، واشتد الظمأ والرمد ، وانا رجل مهياف (٢) . فافتكرت ، فرأيت امراً لا قوام لمثلي به . ولقيني الملك الحفيظ بما كُتِب لي من فعل الخير ، فوجدت حسناتي قليلة كالوماض في العام الأرمل (٣) . إلا ان التوبة في آخرها كأنها مصباح أبيل ، (٤) رُفع لسالك سبيل.

حواره مع رِضوان

فلما اقمت في الموقف زهاء شهر او شهرين ، وخفت من الغرق في العرق ، زينت لي النفس الكاذبة ان انظم ابياتاً في رضوان خازن الجنان ، عملتها في وزن : « قفا نبك من ذكرى حبيب

---

١) الريم ، القبر

٢) مهياف ، سريع العطش

٣) الارمل ، السنة التي يقل بها المطر

٤) ابيل ، راهب

وعرفان » ووسمتها برضوان . ثم ضانكت الناس ، حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى . فما حفل بي ، ولا اظنه أبه لما اقول .

فغبرت برهة نحو عشرة ايام من ايام الفانية . ثم عملت ابياتاً في وزن : « بان الخليط ولو طوعت ما بانا » (١) ووسمتها باسمه كذلك . ثم دنوت منه ففعلت كفعلي الاول ، فكنت كأنما احرك ثبيراً (٢) ، او التمس من العضرم (٣) عبيراً . فلم ازل اتتبع الاوزان التي يمكن ان يوسم بها « رضوان » حتى افنيتها ، وانا لم اجد عنده مغوثة ، ولا اظنه فهم ما اقول ! فلما استقصيت الغرض وما نجحت ، دعوت بأعلى صوتي : « يارضوان يا امين الملك الجبار الاعظم على فراديس الجنان ! الم تسمع ندائي لك ، واستغاثتي بك ؟ » فقال : « لقد سمعتك تذكر « رضوان » وما علمت مقصدك فما الذي تطلب ايها المسكين ؟ » فقلت : « انا رجل لا صبر لي على اللواب (٤) ، وقد استطلت مدة الحساب ، ومعي صك بالتوبة ، وهي للذنوب كلها ماحية . وقد مدحتك بأشعار كثيرة ، ووسمتها باسمك ! » فقال : « وما الاشعار ؟ » فقلت : « الأشعار جمع شعر ، والشعر كلام موزون تقبله القريحة على شرائط إن زاد او نقص أبانه الحس. وكان اهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات ، فجئت بشيء منه اليك لعلك تأذن لي بالدخول من هذا الباب ، فقد استطلت ما الناس فيه ، وانا ضعيف . ولا ريب اني ممن يرجو المغفرة وتصح له بمشيئة الله تعالى . » فقال : « انك تغبن الرأي ، أتأمل ان

---

١) من شعر جرير في الهجاء

٢) ثبير : اسم جبل

٣) العضرم ، تراب صمد التفت

٤) اللواب ، العطش الشديد

آذن لك بغير اذن من رب العزة ؟ هيهات ! هيهات ! ... »

حواره مع زفر

فتركته وانصرفت بأملي الى خازن آخر يقال له « زفر » .

وبعد ان يمدحه بعدة قصائد يدخل فيها اسم « زفر » فلا ينجح بحجج فيقول زفر :

لا اشعر بالذي قصدت ، واحسب هذا الذي تجيئني به قرآن ابليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة . انما هو للجان وعلموه ولد آدم . فما بغيتك ؟ » فذكرت له ما اريد . فقال : « والله ماقدر لك على نفع . فمن اين انت ؟ » فقلت : « من امة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ! » فقال : « صدقت ! ذلك نبي العرب ، ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض ، لان ابليس اللعين نفثه في بلاد العرب ، فتعلمه نساء ورجال . وقد وجب علي نصحك ، فعليك بصاحبك لعله يتوصل الى ما ابتغيت » . فمشيت مما عنده .

ثم يهتدي إلى حمزة بن عبد المطلب ، عم محمد ، فيمدحه فيوصله الى علي بن ابي طالب . ولكنه يضيع صك التوبة في الطريق فيطلب علي شاهداً على توبته ، فيشهد له قاضي حلب . على انه لا ينال الخلاص قبل انتهاء الدينونة ؛ فيتذمر ثم يلجأ الى « العترة المنتخبين » حتى تخرج فاطمة فتوصي به اخاها ابراهيم فيتعلق ابن الفارح بركابه ، ويطير الفرس ، حتى يصل الى الصراط .

عبور الصراط

فلما خلصت من تلك الطموش (١) ، قيل لي : « هذا الصراط

١] الطموش ، جماعة الناس

فاعبر عليه ، فوجدته خالياً لا عَرِيب (١) عنده . فبارت نفسي في العبور ، فوجدتني لا استمسك . فقالت الزهراء ، صلى الله عليها لجارية من جواريها : « يافلانة أجيزيه ! » فجعلت تمارسني (٢) ، وانا اتساقط عن يمين وشمال . فقلت لها : « ياهذه ! ان اردتِ سلامتي ، فاستعملي بي قول القائل في الدار العاجة :

« ستِ ، ان اعياكِ امري فاحمليني زَقفُونَهَ ! »

« فقالت : وما زَقفونه ؟ » قلت : « ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ، ويحمله ، وبطنه الى ظهره . اما سمعت قول الجحجاول من اهل كفرطاب .

« صلحتْ حالتي الى الخلف ، حتى

صرت امشي الى الوراء زقفونه ؟ »

فقالت : « ما سمعت بزقفونة ، ولا الجحجاول ، ولا كفرطاب إلا الساعة » . فتحملني وتجوز كالبرق الخاطف .

طلب الجواز

فلما صرت الى باب الجنة ، قال لي رضوان : « هل معك من جواز ؟ » فقلت : « لا ! » فقال : « لا سبيل الى الدخول الا به ! »

فَسَعِلتْ (٣) بالامر . وعلى باب الجنة ، من داخل ، شجرة صفصاف ، فقلت : « اعطني ورقة من هذه الصفصافة ، حتى ارجع

١] لاعريب ، لا احد

٢] تمارسني ، تداولني

٣) بعلت ، دهشت

الى الموقف ، فآخذ عليها جوازاً » . فقال : « لا اخرج شيئاً من الجنة الا باذن من العلي الاعلى تقدس وتبارك ! »

فلما دجرتُ (١) بالنازلة ، قلت : « انا لله وانا اليه راجعون لو ان للأمير ابي المرجي خازناً مثلك ، لما وصلت اله ، ولا غيري الى درهم من خزائنه ! »

دخوله الجنة

والتفت ابراهيم ، صلى الله عليه ، فرآني ، وقد تخلفت عنه . فرجع الي ، فجذبني جذبة حصّلني بها في الجنة . وكان مقامي في الموقف مدة ستة اشهر من شهور العاجلة ، فلذلك بقي علي حفظي ما نزلنه الاهوال ، ولا يمكنه تدقيق الحساب .

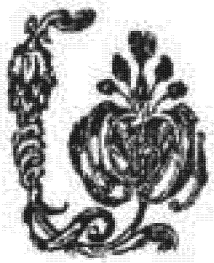

١) دجرت ، جرت

القسم الثالث

المقام في الجنة

حميد بن ثور

يلتقي الشيخ بتطوافه في امصار الجنة بجماعة من الشعراء فيسألهم فأيكم حميد بن ثور ؟ » (١) فيقولون : « هذا ! » فيسلم عليه الشيخ ويقول : « إيه يا حميد ! لقد احسنتَ في قولك :

ارى بصري قد رابني ، بعد صحة
وحسبك داء ان تصحّ وتسلما

فكيف بصرك ؟ » فيقول : « اني لأكون في مغارب الجنة ، فالمح الصديق من اصدقائي وهو بمشارقها ، وبيني وبينه مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة سيرها في العاجلة . فتعالى الله القادر على كل بديع ! »

مأدبة الجنة

تهيئة الطعام

ويبدو له ان يصنع مأدبة في الجنان ، يجمع فيها من امكن من شعراء الحضرمة والاسلام ، والذين أملوا كلام العرب ، وجعلوه محفوظاً في الكتب . ويخطر له ان تكون كمآدب الدار العاجلة

---

١) حميد بن ثور ، شاعر اسلامي

اذ كان الباري ، جلت عظمته ، لا يعجزه ان يأتيهم بجميع الاغراض من غير كلفة ولا ابطاء . فتنشأ ارجاء (١) على الكوثر تجعجع لطحن بُر الجنة .

ويجبس (٢) في صدره ارجاء تدور فيها البهائم ، فيشتمل بين يديه ما شاء من البيوت فيها احجار من جواهر الجنة ، تدير بعضها جمال تسوم (٣) في عضاه (٤) الفردوس ، وأينق ، وصنوف من البغال ، والبقر .

فاذا اجتمع من الطحن ما يظن أنه كاف للمأدبة ، تفرق خدمة فجاؤوا بالعباريس (٥) ، وضروب الطير التي جرت العادة بأكلها : كأبجاج (٦) العكارم (٧) ، وجوازل (٨) الطواويس ، والسمين من دجاج الرحمة ، وفراريج الخلد . وسيقت البقر ، والغنم ، والابل لتعتبط (٩) . فارتفع يعار (١٠) المعز ، وثواج (١١) الضان ، وصياح الديكة لعيان المدية . وذلك كله ، بحمد الله ، لا ألم فيه ، وانما هو لعب ! فلا اله الا الله الذي ابتدع خلقه من غير روية ، وصوره بلا مثال !

---

١) ارجاء ، حجارة الطحن
٢) يجبس ، يضم في صدره
٣) تسوم ، ترعى
٤) العضاه ، نبات ذو شوك
٥) العباريس ، ج عمروس ، الجدي
٦) ابجاج ، فراخ الطير
٧) العكارم ، انثى الحمام
٨) جوازل ، فراخ الحمام
٩) لتعتبط ، لتنحر
١٠) يعار ، صوت المعز
١١) الثواج ، صياح الغنم

فاذا حصلت النحوض (١) فوق الارفاض (٢) ، قال : احضروا من الجنة الطباة الساكنين بحلب على بر الأزمان » . فتحضر جماعة كثيرة فيأمرهم باتخاذ الاطعمة . وتلك لذة يهبها الله ، عز سلطانه بدليل قوله : « **وفيها ما تشتهيه الانفس ، وتلذ الاعين ، وانتم فيها خالدون ! وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون ! لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ! »**

المدعوون

فاذا أتت الاطعمة افترق غلمانه لاحضار المدعوين . فلا يتركون في الجنة شاعراً اسلامياً ولا مخضرماً ، ولا عالماً بشيء من اصناف العلوم ، ولا متأدباً ، الا احضروه ، فيجتمع خلق كثير . فتوضع الحون من الذهب ، والقواثير (٣) من اللجين . عليها الآكلون وتنقل اليهم الصحاف ...

الشرب والغناء

فاذا قضوا الارب من الطعام ، جاءت السقاة بأصناف الاشربة والمسمعات بالأصوات المطربة . ويقول : « عليّ بمن في الجنة من المغنين والمغنيات ، ممن كانوا في الدار العاجلة فقضيت له التوبة . » فتحضر جماعة من رجال ونساء ، فيهم الغريض ، ومعبد ، وابن سريج ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحق

---

١) الارفاض : الاختناب حيث يقطع اللحم

٢) الحون ، ما يوضع عليه الطعام

٣) القواثير ، وهي الخوان ، اي ما يوضع عليه الطعام

الرقص

ويذكر الابيات التي تنسب الى الخليل بن احمد (١) ، والخليل يومئذٍ في الجماعة ، وانها تصلح لان يرقص عليها . فينشىء الله القادر ، بلطف حكمته ، شجرة من الجوز ، فتونع لوقتها . ثم تنفض عدداً لا يحصيه الا الله ، سبحانه . وتنشق كل واحدة منه عن جوار يرقن الرائين ، يرقصن على الابيات المنسوبة الى الخليل واولها :

ان الخليطَ تصدّعْ فَطِرْ بدائك ، اوقع ! (٢)

فتهتز ارجاء الجنة ...

ويقول : « من هذه الابيات ، يا ابا عبد الرحمن ؟ » فيقول الخليل : « لا اعلم ! » فيقول : « انا كنا في الدار العاجلة نروي هذه الابيات لك . » فيقول الخليل لا اذكر شيئاً من ذلك . ويجوز ان يكون ما قيل حقاً . فيقول : « انسيت ، يا أبا عبد الرحمن ، وانت اذكى العرب في عصرك ! » فيقول الخليل : « ان عبور الصراط ينفض الخلد (٣) مما استودع . »

ويعبر طاووس من طواويس الجنة يروق من رآه حسناً . فيشتهيه ابو عبيدة مَصوصاً (٤) . فيكون كذلك في صحفة من الذهب . فاذا قضى منه الوطر ، انضمت عظامه بعضها الى بعض ، ثم تصير طاووساً كما بدا . فتقول الجماعة : « سبحان من يحيي العظام وهي رميم ! » ويفترق اهل ذلك المجلس ، وهم ناعمون !

---

١) الخليل : من اشهر علماء اللغة والنحو .
٢) تصدع : تفرق . ٣) الخلد : البال ، الفكر .
٤) المصوص : طعام من لحم الطير يطبخ وينقع في الخل .

القسم الرابع

جنة العفاريت

ويبدو له ان يطلع الى اهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ويسير . فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشاني وهي ذات ادحال وغماليل فيقول لبعض الملائكة : « ما هذه يا عبد انا ؟ » فيقول هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ وذكروا في « الاحقاف » وفي « سورة الجن » وهم عدد كثير . » فيعرج عليهم . فاذا هو بشيخ جالس على باب مغارة ، فيسلم عليه فيحسن الرد ... فيقول : « ما اسمك ايها الشيخ ! » فيقول : « أنا الهيثمور احد بني الشيصبان ، ولست من ولد ابليس ، ولكنا من الجن الذين كانوا يسكنون الارض قبل ولد آدم . »

اناشيد الجن

فيقول : « اخبرني عن اشعار الجن . فقد جمع المعروف « بالمرزباني قطعة صالحة . » فيقول ذلك الشيخ : « انا ذلك هذيان لا معتمد عليه ! وهل يعرف البشر من النظم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض ؟ وان لهم خمسة عشر جنساً من الموزون ، قل ما يعدوها فقائلون ، وان لنا لالآف اوزان ما سمع بها الانس وانا كانت تخطر بهم أطيفال (١) منا عارفون ، فتنفث اليهم مقدار

---

١) اطيفال : تصغير اطفال .

الضوازة (١) من اراك تعهن (٢) ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل ان يخلق آدم بكور (٣) او كورين .

ثم يتلو عليه من نظمه رويا قصته .

لغة الجن

فيقول : « لله دوك يا ابا عدرش ! فكيف السنتكم ؟ أيكون فيكم عرب لا يفهمون عن الروم ، وروم لا يفهمون عن العرب ، كما نجد في أجيال الانس ؟ » فيقول : « هيهات ! ايها المرحوم ! إنا اهل ذكاء وفطن ولا بد لأحدنا ان يكون عارفا بجميع الالسن الأنسية ولنا ، بعد ذلك ، لسان لا يعرفه الانيس ! »

ويتلو عليه قصيدة فيها ذكر مغامراته زمن الكفر ثم ذكر توبته ، منها :

مكة أفوت من بني الدردبيس ... فالجني بها من حسيس ! (٤)

* * *

لا انتهي عن غرضي بالرقي

اذا انتهى الضيغم ، دون القريس (٥)

---

١) الضوازة : السواك .
٢) الاراك : شجر السواك .
٣) الكور : ١٥٠ سنة .
٤) الدردبيس : من قبائل الجن .
٥) الرقي : التعاويذ .

وأدلج الظلماءَ في فتية
ملجنٍ ، فوق الماحل البربيس (١)
في طاسم تعزف جنّاتُه أقفرَ ، إمن عفاريت ليس (٢)
تحملنا في الجنح خيلٌ لها اجنحةٌ ليست كخيل الانيس
وأينقٌ تسبق ابصاركم مخلوقةٌ بين نعامٍ وعيس (٣)

* * *

لا نسكَ في أيامنا عندنا
بل نكس الدينُ ، فما إن نكيس (٤)
فالاحد الاعظم والسبت كالاثنين والجمعة مثل الخميس
لا مُجسٌّ نحن ، ولا هُودٌ ولا نصارى يبتغون الكنيس
نمزق التوراة من هونها ونحطم الصلبان حطمَ اليبيس
نحارب الله جنوداً لابٍ ليس أخي الرأي الغبين النجيس
ونسلم الحكم إليه — اذا قاس — فيرضى بالضلال المقيس .

* * *

---

١) ادلج : سار في الليل .
١) ليس : أبيس : شجاع .
٢) عيس : الجمال .
٣) نكس : اعمل عكسه .

تزين للشارخ والشيخ أن
يفرغ كيساً في الحنا ، بعد كيس (١)
وتقتري جن سليمان كي
تطلق منها كل غاوٍ حبيس (٢)
صُير في قارورة رُصصت فلم تغادر منه غير النَسيس (٣)
وتخرج الحسناءَ من بيتها مطروحةً عن سوء ظن حديس

* * *

لا اتقي البر لأهواله واركب البحر أوان القريس (٤)
نادمت قابيلَ ، وشيتاً وها بيل على العاتقة الخندريس
ورهط لقمان وأيسارَه عاشرت من بعد الشباب اللبيس

* * *

ثُمت آمنت ! ومن يُرزق الايمان يظفر ، بالخطير النفيس
جاهدت في بدر ، وحاميت في
أحدٍ ، وفي الخندق رعت الرئيس

---

١) الشارخ : الفتى .
٢) تقتري : تتبع .
٣) النسيس : بقية الروح ،
٤) القريس : البرد الكثير

وراء جبريل وميكال نخ لي في الكبة خلي للسيس (١)
وطار في اليرموك، بي سابح والقوم في ضرب وطعن خليس
حتى تجلت عني الحرب كالجـ مرة في وقـدة ذاك الوطيس
والجمـل الانكـد شاهـدته بئس نتيج الناقة العنتريس (٢)
وزرت صفين على شطبة جرداء، ما سائسها بالاريس (٣)
مجـدلاً بالسيف أبطالها وقاذفاً بالصخـرة المرمريس
وسرت قـدام علـي غـداة النهر حتى فل غرب الخميس (٤)
صادف مني واعظ توبـة فكانت اللقـوة عند القبيس

فيعجب لما سمعه من ذاك الجني ويكره الاطالة عنده ، فيودعه

الاسد والفريسة

ويجم (٥) فاذا هو بأسد يفترس من صيران (٦) الجنة وحسيلها (٧) فـلا تكفيه هنيدة ولا هند (٨) . فيقول في نفسه : « لقد كان الاسد يفـترس الشاة العجفاء فيقيم عليها الايام ، لا يطعم سواها

---

١) الكبة : الصدمة بين الجيشين
٢) الجمل الانكد : جمل عائشة
٣) شطبة : فرس حسنة القوام
٤) الخميس ، الجيش
٥) يجم ، يمشي
٦) صيران ، قطعان بقر الوحش
٧) الحسيل ، الحجول
٨) هنيدة ولا هند ، اي مائة ولا مائتان

شيئاً ! » فيلهم الله الاسد ان يتكلم ، وقد عرف ما في نفسه ، فيقول : « يا عبد الله ! اليس احدكم في الجنة ، تقدم له الصحفة ، فيأكل منها مثل عمر السموات والارض ، يلتذ بما اصاب ، فلا هو ممكتف ولا هي الفانية . وكذلك انا افترس ما شاء الله . فلاتأذي الفريسة بظفر ولا ناب ، ولكن تجد من اللذة كما اجد ، بلطف ربها العزيز . »

اقصى الجنة

بيت الخطيئة

فيذهب ، فاذا هو ببيت في اقصى الجنة ، كأنه حفش (١) امة راعية . وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة ، وعنده شجرة قميئة(٢) ثمرها ليس بزاك : فيقول : « يا عبد الله ! لقد رضيت بحقير ! » فيقول : « والله ! ما وصلت اليه الا بعد هياط ومياط (٣) وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت انها لم تكن ! » فيقول : « من انت ؟ » فيقول : « انا الحطيئة العبسي ! (٤) فيقول : « بم وصلت الى الشفاعه ؟ » فيقول : « بالصدق ! » فيقول : « في اي شيء ؟ » فيقول : « في قولي :

أبت شفتاي اليوم الا تكلما بهجر ، فلا ادري لمن انا قائله !
ادى لي وجهاً شوه الله خلقه فقبح من وجه ! وقبح حامله !

فيقول : « ما بال قولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لايذهب العرف بين الله والناس [(٥)

لم يغفر لك به ؟ » فيقول : سبقني الى معناه الصالحون . ونظمته ولم اعمل به ، فحرمت الاجر عليه »

---

(١) الحفش ، البيت الحقير (٢) قميئة ، صغيرة (٣) هياط ومياط ، مجيء وذهاب (٤) الحطيئة ، اشهر شعراء الهجاء (٥) العرف : المعروف

القسم الخامس

جرائم

الخنساء وشقيقتها

... ويمضي ، فاذا هو بامرأة في اقصى الجنة ، قريبة من المطلع الى النار ، فيقول : « من انت ؟ » فتقول : « أنا الخنساء (١) السليمية . أحببت ان أنظر الى صخر . فاطلعت ، فرأيته كالجبل الشامخ ، والنار تضرم في رأسه فقال : « لقد صح مزعمك فيّ ! يعني قولي :

وان صخرا لتأتم الهداةُ به كأنه علم في رأسه نارُ » (٢)

بشار بن برد وابليس

فيطلع فيرى إبليس ، لعنه الله ، وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع (٣) الحديد تأخذه من ايدي الزبانية . فيقول « الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله ، وعدو اوليائه ، لقد اهلكتَ من بني آدم طوائف لا يعلم عددها الا الله ! » فيقول : « من الرجل ؟ » فيقول : « انا فلان بن فلان من أهل حلب ، كانت صناعتي الأدب . » ... فيقول ابليس : « فما فعل بشّار بن بُرد (٤)

---

١) الخنساء ، (تماضر بنت عمرو) كبرى شعراء العرب .
٢) علم ، جبل
٣) مقامع ، العصى التي يضرب بها الانسان
٤) بشار ، بشار بن برد من شعراء العصر العباسي الاول

فان له عندي يـــداً ليست لغيره من ولد آدم : كان يفضلني دون الشعراء ، وهو القائل :

ابليسُ أفضل منكم ايكم آدم فتبينوا ، يا معشر الاشرارِ
النار عنصره ، وآدمُ طينةٌ والطين لا يسمو سمـو النارِ

لقد قال اخق ولم يزل قائله من المبغوضين ! »

فـــلا يسكت من كلامه ، الا ورجل في أصناف العذاب ، يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل بـــه من النقم ، فيفتحها الزبانية بكلاليب من نار . واذا هو بيشار بن برد قد اعطي عينين بعد الكمه ، ينظر الى ما نزل به من النكال .

الملك الضليل

ويسأل عن امرىء القيس بن حجر (١) فيقال : « ها هوذا بحيث يسمعك . » يا ابا هند ، أخبرني عن التسبيط (٢) المنسوب اليك ، اصحيح هو عنك ؟ » وينشد الذي يرويه بعض الناس :

يا قـوم ، ان الهوى اذا اصاب الفتى
في القلب ، ثم ارتقى فهدَّ بعض القوى
فقد هـوى الرجل!

فيقول : « والله ! ما سمعت هذا قط ، وان الكذب لكثير واحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمني واساء الي . » فيعجب بما سمعه ...

---

١) امرؤ القيس ، شاعر شعراء الجاهلية .
٢) التسبيط : نوع من الشعر الغنى ،

عنترة العبسي

وينظر ، فاذا عنـــترة (١) متلدد (٢) في السعير . فيقول :
« مالك يا اخا عبس ؟ كأنك لم تنطق بقولك :

ولقد شربتُ من المـدامة ، بعد ما
ركد الهواجر ، بالمشوف المعلم ، (٣)
بزجاجـة صفراء ذات اسرة
قرنت بأزهر ، في الشمال ، مفدم (٤)

« واني اذا ذكرت قولك : « هل غادر الشعراء من متردم ! » لأقول : انما قيل ذلك وديوان الشعر قليل ، محفوظ . فاما الآن فلو جمعت ما قيل بعد مبعث النبي (ﷺ) ، لعتبت نفسك على ما قلت ولقد ضُق علي دخول مثلك الى الجحيم . »

علقمة بن عبدة

وينظر فاذا علقمة بن عبدة . فيقول : « اعزز علي بمكانك ! ما اغنى عنك سحنّاؤك (٥) ولو شفعت لأحد ابيات صادقة ليس فيها ذكر الله سبحانه ، لشفعت لك ابياتك في وصف النساء ، اعني قولك :

---

١) عنترة ، من اشهر فرسان الجاهلية وشعرائها
٢) متلدد ، متحير
٣) ركد ، سكن
٤) ازهر ، ابريق مفدم ، مسدود بالفدام
٥) سحناؤك ، يعني اشهر فضائله

فان تسألوني بالنساء ، فانني بصيرٌ بأدواء النساء ، طبيب :
اذا شاب رأس المرء ، او قل ماله
فليس له ، في ودهن ، نصيب ! ..

عمرو بن كلثوم

« فليت شعري ! ما فعل عمرو بن كلثوم ؟ » (١) فيقال : « ها هوذا من تحتك . ان شئت ان تحاوره فحاوره . » فيقول : « كيف انت ايها المصطبح (٢) بصحن الغانية ، والمغتبق (٣) من الدنيا الفانية ! لوددت انك لم تساند في قولك :

كأن متونهن متون غُدر تصفقها الرياحُ اذا جرينا :

فيقول : عمرو : « إنك لقرير العين ، لا تشعر بما نحن فيه. فاشغل نفسك بتمجيد الله ، واترك ما ذهب فانه لا يعود . واما ذكرك سنادي فان الاخوة ليكونون ثلاثة او اربعة ، ويكون فيهم الأعرج ، والا نجق (٤) فلا يعابرن بذلك . فكيف اذا بلغوا المائة في العدد ؟ »

طرفة

ويعمد لسؤال طرفة بن العبد (٥) فيقول : « يا ابن اخي ، يا طرفة ، خفف الله عنك ! اتذكر قولك :

---

١) عمرو بن كلثوم : بطل وشاعر جاهلي
٢) المصطبح ، الشارب صباحا
٣) المغتبق ، الشارب مساء
٤) الانجق ، الاعور القبيح
٥) طرفة بن العبد ، صاحب المعلقة الثانية شاعر جاهلي معروف ، مات وهو في سن الشباب

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم ، إن متنا غداً ، اينا الصدي ؟

« قولك :

ارى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مُفسد (١)

« فكيف صبوحك الان وغبوقك ؟ اني لاحسبها حميا ! ولو لم يكن لك أثر ، في الدار العاجلة ، إلا قصيدتك التي على الدال ، (٢) لكنت ابقيت اثراً حسناً ! » فيقول طرفة : « وددت اني لم انطلق مصراعاً ، ودخلت الجنة مع الهبع والطغام ..

أوس بن حجر

ثم يرى اوس بن حجر (٣) فيسأله عن بيت ورد في شعره وفي شعر النابغة لمن هو ! فيقول أوس :

« قد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة فأسأله عما بدا لك . فلعله يخبرك ، فهو أجدر ان يعي هذه الاشياء . فاما انا فقد ذهلت : نار توقد ، وبنان يعقد ، اذا غلب عليّ الظمأ ، رُفع الي شيء كالنهر فاذا اغترفت منه لأشرب ، وجدته سعيراً مضطرماً . ولقد دخل الجنة من هو شرٌ مني ولكن المغفرة ارزاق ، كأنها النشب (٤) الدار العاجلة ! »

الأخطل

واذا هو برجل يتضور (٥) فيقول : « من هذا ؟ » فيقال :

---

١) نحام ، حريص على جمع المال

٢) اي المعلقة .

٣) اوس بن حجر ، من اقدم شعراء الجاهلية

٤) النشب ، المال .

٥) يتضور ، يتوجع

« الاخطل التغلبي ! » (١) فيقول له : « ما زالت صفتك الخمر حتى غادرتك اكلا لبجر ! فكم طربت السادات على قولك :

أناخوا ، فجروا شاصياتٍ كأنها رجالٌ من السودات لم يتسربلوا (٢)

فقلت : « اصبحوني ! لا ابا لابيكم ! »

وما وضعوا الاثقال الا ليفعلوا (٣)

فصبوا عقاراً في الاناء كأنها

اذا لحموها ، جذوة تتأكلُ ! (٤)

ثم يقول له : « اخطأت في امرين : جاء الاسلام ، فعجزت ان تدخل فيه . وعاشرت يزيد بن معاوية . » فيزفر الاخطل زفرة تعجب لها الزبانية ويقول : « آه على ايام يزيد ! أسوف (٥) عنده عبراً وامزح معه مزح خليل .. ولقد فاكهته بعض الايام وانا سكران ملتخ (٦) فقلت :

الا اسلم ، سلمت ، ابا خالدٍ ! وحياك ربُّك بالعنقزِ (٧)

اكلتَ الدجاج ، وأفنيتها . فهل في الخنانيص من مغمزِ ! (٨)

---

١) الاخطل ، اشهر شعراء الامويين اشتهر بوصفه للخمر

٢) شاصيات ، زقاق ملئت حتى ارتفعت قوائمها .

٣) اصبحوني ، اسقوني عند الصبح

٤) العقار ، الخمر

٥) أسوف ، أثم

٦) ملتخ ، غير متزن بكلامه بسبب السكر

٧) العنقز ، نبات طيب الرائحة .

٨) الخنانيص : ج . خنزير : ولد الخنزير .

فما زاد عن ابتسام ، واهتز للصلة ! »

ويسأله الشيخ عن مذهب يزيد « أكان موحداً ام ملحداً »

فيقول الاخطل : كانت تعجبه هذه الابيات :

أخالدَ ؟ هاتي خبريني وأعلني حديثك اني لا اسر التناجيا (١)

حديث ابي سُفيان ، لما سما بها الى أُحد ، حتى أقام البواكيا (٢)

وكيف بفي امرأ عليٌّ ، ففاته واورثه الجُدَّ السعيد معاويا .

وقومي فعُليني ، على ذاك قهوةً تحلبها العيسي كُرماً شآميا . (٣)

اذا ما نظرنا في امور قديمة وجدنا حلالا شربها المتواليا

فلا خلفَ بين الناس ، ان محمداً تبوأ رمساً ، في المدينة ثاويا !

فيقول : « عليك البهة ! قد ذهلت الشعراء من اهل الجنة والنار عن المدح والنسيب ، وما شُدهت (٤) عن كفرك ولا اساءتك ! »

وابليس يسمع ذلك الخطاب كله ، فيقول للزبانية : « ما رايت اعجز منكم ، إخوان مالك ! ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه فلو ان فيكم صاحب نخيزة (٥) ، لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه الى سقر ! » فيقولون : « ليس لنا على اهل الجنة سبيل ! »

ثم يعود الى كلام الاخطل فيقول : أأنتَ القائل هذه الابيات :

---

١) اعلني : جاهري .

٢) سما : ارتفع .

٣) علليني : اسقيني

٢) ما شدهت : ما حرت بما انت فيه !

٤) نخيزة : طبيعة .

ولست بصائمٍ رمضان طوعًا ولستُ بآكلٍ لحم الاضاحي
ولست بقائم ، كالعبر ، ادعو قبيل الصبح :« حي على الفلاح ! »
ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند مُنبلج الصباح !

فيقول : « اجل ! واني لناديه سادم (١) ! وهل اغنت الندامة ! »

المهلهل

ويل من خطاب اهل النار ، فينصرف الى قصره المشيد . فاذا صار على ميلٍ او ميلين ، ذكر انه ما سأل عن مهلهل التغلبي ، ولا عن الشنفرى ، وتأبط شرا . فيرجع على ادراجه ، فيقف بذلك الموقف وينادي : « ابن عدي بن ربيعة ؟ » فيُقال : « زد في البيان ! » فيقول : الذي يستشهد النحويون بقوله :

ضربت صدرها إلي ، وقالت : « ياعديا لقد وقتك الاواقي »

فيُقال : « انك لتعرف صاحبك بامرٍ لا معرفة عندنا به ! ما النحويون ؟ وما الاستشهاد ؟ وما هذا المذيان ؟ »

فيقول : « اريد المعروف بمهلهل (٢) التغلبي ، اخي كليب وائل الذي كان يضرب به المثل . » فيقال : « ها هوذا يسمع حوارك ، فقل ما تشاء ! » فيقول : يا « عدي بن ربيعة ! أعزز علي بولوجك هذا الموليج ! لو لم آسف عليك الا لأجل قصيدتك التي اولها :

أليلتنا بذي حُسم ، أنيريْ ! اذا انت انقضيت ، فلا تحوري !

---

١) سادم ، بمعنى عادم .
٢) المهلهل ، (عدي بن ربيعة) من اقدم الشعراء الجاهليين .

« لكانت جديرة ان تطيل الاسف عليك . »

الشنفري وتأبط شراً

ويسأل عن الشنفري (١) الازدى فيلفيه « قليل التشكي » (٢) والتألم لما هو فيه . فيقول : « اني لا اراك قلقاً مثل قلق اصحابك ! » فيقول : « اجل ! اني قلت بيتاً في الدار الخادعة ، فانا اتأدب به وذلك قولي :

غوى فغوت ! ثم ارعوى بعد وارعوت

وللقبرُ ، ان لم ينفع الشكوَ ، اجملُ ! »

واذا هو قرين مع تأبط شراً (٣) ، كما كان في الدنيا الغرارة .

---

١) الشنفري ، شاعر جاهلي قديم

٢) « قليل التشكي » ، هكذا ينعته صديقه تأبط شراً

٣) تأبط شراً ، شاعر جاهلي كان معاصراً للشنفري

القسم السادس

الرجوع الى الجنة

آدم

فاذا رأى فقد الفوائد لديهم ، تركبهم في الشقاء السرمد ، وعمد لحله في الجنان . فيلقى آدم ، عليه السلام ، في الطريق . فيقول : « يا أبانا ، صلى الله عليك ! قد روي لنا عنك شعر منه قولك :

نحن بنو الارض وسكانها منها خلقنا ، واليها نعود !

والسعيد لا يبقى لاصحابه والنحس تمحوه ليالي السعود !

فيقول : « ان هذا القول حق ، وما نطقه الا بعض الحكماء ولكني لم اسمع به حتى الساعة . » فيقول : « فلعلك ، يا أبانا ، قلته ثم نسيت ! فقد علمت ان النسيان متسرع اليك ، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة في قرآن محمد ﷺ : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل ، فنسي ولم نجد له عزما ! » وقد زعم بعض العلماء أنك سميت « انسانا » . لنسيانك . واحتج على ذلك بقولهم في التصغير : « أنيسيان » . وفي الجمع : « أناسي » وقد روي أن الانسان من النسيان عن ابن عباس ، وقال الطائي :

لا ينسي تلك العهود ، وانما سميت إنسانا لانك ناسي ! »

فيقول آدم ﷺ : « أبيتم الا عقوقاً وأذية ! إنما كنت اتكلم

العربية ، وانا في الجنة . فلما هبطت الارض ، نقل لساني الى السريانية ، فلم انطق بغيرها الى ان هلكت . فلما ردني الله ، سبحانه وتعالى ، الى الجنة عادت علي العربية . فاي حين نظمت هذا الشعر ؟ في العاجلة ام في الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب ان يكون قاله وهو في الدار الماكرة ، الا ترى قوله : « منها خلقنا واليها نعود » ؟ فكيف اقول هذا المقال ولساني سرياني ؟ واما الجنة قبل ان اخرج منها ، فلم اكن ادري بالموت ، فيها ، وانه مما حكم على العباد . واما بعد رجوعي اليها ، فلا معنى لقولي : « واليها نعود ! » لانه كذب لا محالة ، ونحن معاشر اهل الجنة خالدون مخلدون ! »

فيقول : « ان بعض اهل السير يزعم ان هذا الشعر وجده يعرب في متقدم الصحف السريانية ، فنقله الى لسانه ، وهذا لا يمنع ان يكون . وكذلك يروون لك ، صلى الله عليك ، لما قتل قابيل هابيل :

تغيرت البلاد ، ومن عليها فوجهُ الارض مُغبرٌ قبيحُ !

واودى ربعُ اهليها فبانوا وغودر في الثرى الوجه المليح !

فيقول آدم عليه السلام : « أعزز علي بكم ، معشر بني ! انكم في الضلالة متهوكون ! (١) آليت (٢) ما نطقت هذا النظيم ، ولا نطق في عصري . وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة الا بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم ابيكم ، ثم على حواء امكم ، وكذب بعضكم على بعض ! »

---

١) متهوكون : متهورون .

٢) آليت : اقسمت .

اللذة القصوى

ويذكر الشيخ ما كان يلحق اخا الندام ، من فتور في الجسد من الندام ، فيختار ان يعرض له ذلك من غير ان يتزف له لب (١) ، فاذا هو يخال في العظام الناعمة دبيب نمل ، أسرى في المقبرة على رمس ، فيترنم بقول اياس بن الارت :

أعاذل ، لو شربت الخمر حتى يقال لكل نملة دبيبُ
اذن لعذرتني ، وعلمت اني اتلفتُ من مالي ، مصيبُ !

ويتكي على مفرش من السندس ، ويأمر بالحور العين ، ان يحملن ذلك المفرش ، فيضعنه على سرير من سرر اهل الجنة ، وانما هو زبرجد او عسجد . فيكون الباري، فيه حلقاً من الذهب تطيف به من كل الانحاء حتى يأخذ كل واحدة من الغلمان ، وكل واحدة من الجواري المشتبهة بالجمان ، واحدة من تلك الحلق ، فيحمل على تلك الحال الى محله المشيد بدار الخلود . فكلما مر بشجرة نفضت اغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ، وبمسك ما جني من دماء الغور (٢) ، بل هو بتقدير الله الكريم . وتناديه الثمرات من كل اوب ، وهو مستلقٍ على الظهر : « هل لك ! يا ابا الحسن ، هل لك ! » فاذا اراد عنقوداً من العنب او غيره ، انقضب له من الشجرة بمشيئة الله ، وحملته القدرة الى فيه . واهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ، « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين »

ينتهي ابو العلاء ، بهذا المقطع ، تصوير الجنة والنار وما فيهما ، ثم يبدأ بالرد على رسالة ابن القارح ونحن نقف بدورنا عند هذا الحد من رسالة الغفران لننتقل الى المنتخبات .

---

١) زف له : حصل له دوار . ٢) الغور : ج . غائر : نوع من الغزلان

منتخبات شعرية

قدرة الله

انفرد الله بسلطانه فماله في كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكمُ وهل لها عن ذي رشادٍ خفاء
إن ظهرت فارُ كما خبروا في كل أرضٍ فعلينا العفاء
تهوى الثريا ويلين الصفا من قبل ان يوجد أهلُ الصفاء
فقد فقد الصدقُ ومات الهدى واستحسن الغدرُ وقلَّ الوفاء
واستشعر الحاقد في شقه ان الردى مما عناه الشفاء
واعترف الشيخ بأبنائه وكلهم ينذر منه انتفاء
ربَّهمُ بالرفق حتى إذا شبوا عنا الوالدَ منهم جفاء
والدهرُ يشتف أخلاقه كأنما ذلك منه اشتفاء

نار الشيبة

أولو الفضل في اوطانهم غرباء تشذُّ وتنأى عنهمُ القربا
فاسبثُوا الراح الكميت اللذة ولا كان منهم للخراد سباءُ

وحسبُ الفتى من ذلة العيش أنه
يروحُ بأدنى القوت وهو حباء

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نصَّ لي بين النجوم خباء
أرابيك في الودِّ الذي قد بذلته فاضعف أن أجدي لديك رياء
وما بعد مَرِّ الخمسَ عشرةَ من صباً ولا بعد مَرِّ الاربعين صباء
أجدك لا تَرضى العبادة ملبساً ولو بانَ ما تبديه قيل عباء
وفي هذه الارض اركود منابت فمنها عليَّ ساطع وكِباء
تواصلَ حبلُ النسلِ ما بين آدم وبيني ولم يوصل بلامي بباء
تناءب عمروٌ إذ تناءب خالدٌ بعدوى فما أعدتني النؤباء
وزهدني في الخلقِ معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء
وكيف تلافي الذي فات بعد ما تلفَّع نيران الحريق أباء
اذا نزل المقدار لم يك نقطا نهوضٌ ولا للمخدرات إباء
وقد نطحتْ بالجيش رَضوى فلم تُبلْ
ولُزَّ برايات الخميسِ قباء
على الوُلد يحنو والد ولوَ انهم ولاةٌ على امصارهم خطباء
وزادك بُعداً من بنيك وزادهم عليك حقوداً أنهم نجباء

بدون أبا أفقاهم في مؤرَّبٍ من العقد ضاقت حله الا رباء
وما أدَّبَ الاقوام في كل بلدة الى المَينِ إلا معشر أدباء
تتبَّعنا في كل نَقبٍ ومخرَمٍ منايا لها من جنسها نُقباء
إذا خافت الاسدُ الخماصُ من الظبا
فكيف تعدّى حكمهن ظباء

الحكمة الضائعة

اذا كان علمُ الناس ليس بنافعٍ ولا دافعٍ فالخسرُ للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتمّ وضاعت حكمةُ الحكماء
وهل يأبق الانسان من مُلك ربه فنخرجَ من ارضٍ له وسماء
سنتبع آثار الذين تحملوا على ساقةٍ من أعبدٍ واماء
لقد طال في هذا الانام تعجّبي فيا لِرَواءٍ قوبلوا بظماء
أرامي فتشوِي من أعاديه أسهمي
وما صاف عنيَ سهمه برِماء
وهل أعظمٌ الا غصونٌ وريقةٌ وهل ماؤها الا جنى دماء
وقد بان أن النحس ليس بنافلٍ له عملٌ في أنجُمٍ — الفُهَماء
ومن كان ذا خودٍ وليس بمكثرٍ فليس بمحسوب من السكرَماء

شهاب أمور ثم تركب هولها على عنت من صاغرين قماء
أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء
يقولون ان الدهر قد حان موته ولم يبق في الايام غير ذماء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وكيف أقضي ساعة بمسرة وأعلم ان الموت من غرمائي
خذوا حذراً من اقربين وجانب ولا تذهلوا عن سيرة الحزماء

البلاء باق

قد حجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
وهل يجود الحيا أناساً منطوياً عنهم الحياء
يا عالم السوء ما علمنا ان مصليك اتقياء
لا يكذبن امرؤ جهول ما فيك لله اولياء
ويا بلاداً مشى عليها اولو افتقار واغنياء
اذا قضى الله بالمخازي فكل اهاليك اشقياء
كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض انبياء
فانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤك العياء

حكمٌ جرى لمليك فينا ونحن في الاصل اغبياء

استعجال الموت

حياة عناءٌ وموت عَنَا فليت بعيدَ حمام دَنا
يد صفرت ولهاةٌ ذوت ونفس تمنت وطرفٌ رَنا
وموقدُ نيرانه في الدجى يروم سناء برفع السنى
يحاول من عاش ستر القميص وملء الخميص وبُرء الضنى
ومن ضمه جدثٌ لم يُبَل على ما أفاد ولا ما اقتنى
يصير ترابًا سواء عليه مسُ الحرير وطعنُ القنا
وشربُ الفناء بخضر الفرند كأن على آسنٍ الفنا
ولا يزدهي غضبٌ حلمه ألقلبه ذاكرٌ أم كنا
يُهنأ بالخير من ناله وليس الهناء على ما هنا
واقربْ لمن كان في غبطةٍ بلُقيا المنى من لقاء المنا
أعائبةٌ جسدي روحه وما زال يخدم حتى ونى
وقد كلفته أعاجيبها فطوراً فؤادي وطوراً ثنا
يُنافي ابن آدم حالَ الغصونِ فهاتيك أجنتْ وهذا جنى
تغير حِناؤه شيبه فهل غير الظهر لما انحنى

إذا هو لم يُغنِ دهرٌ عليه جاء الفرىّ وقال الخنسا
وسيّانِ مَن أمّه حُرةٌ حصانٌ ومن أمّه فرتنيّ
ولي مَوردٌ بآناءِ المنون ولكنْ ميقاته ما أتى
زمانٌ يخاطب أبناءه جهاراً وقد جهلوا ما عنى
يبدّل باليسر إعدامَه وتهدم أحداثهُ ما بنى
لقد فزتَ ان كنت تعطى الجنا نَ بكة اذ زرتها أو مِنَى

الموت راحة

تعالى رازق الاحياء طراً لقد وَهَت المروءةُ والحياء
وان الموت راحة هبرزىّ أضرّ بلُبه داءٌ عياء
ومالي لا أكون وصىّ نفسي ولا تعصي اموري الاوصياء
وقد فتشت عن إصحاب دينٍ لهم نسكٌ وليس لهم رياء
فألفيتُ البهائم لا عقولٌ تقيم لها الدليلَ ولا ضياء
وإخوان الفطانة في اختيالٍ كأنهم لقومٍ أنبياء
فأما هؤلاء فأهلُ مكرٍ وأما الاولون فأغبياء
فان كان التُقى بلهاً وعياً فأعيارُ المذلة أتقياء
وأرشدُ منك أجربُ تحتعبءٍ تهبُّ عليه ريحٌ جربياء

وجدتُ الناس كلُّهم فقيرٌ ... ويُعدَمُ في الانام الاغنياء
نحبُّ العيش بغضاً للمنايا ... ونجن بما هوينا الاشقياء
يموت المرء ليس له صفيٌّ ... وقبل اليوم عزَّ الاصفياء
أتدري الشمس أنَّ لها بهاءً ... فتأسف ان يفارقها الاياء

الأحلام الضائعة

اسرينا وطالبُنا هاجعٌ ... وعند الصباح حمدنا السرى
بنوا آدمٍ يطلبون الثرا ... ءَ عند الثريَّا وعند الثرى
فتىً زارعٌ وفتىً دارعٌ ... كلا الرجلين غدًا فامترى
فهذا بعين وذاي يروح ... وذلك يؤوب بضادٍ ورا
وعامل قوت ذرا حبه ... وخدنُ ركازٍ ضحا فاذَّرى
وكورُك فوق طويلِ المطا ... وسرجك فوق شديد القرا
ويُجري ذفاريها جدُّها ... بمثل الظلام إذا ما جرى
كأن بصاقَ الدَّبى فوقها ... اذا وقدت في الأنوف البُرا
وذلك من حر أنفاسها ... يُضاعفه حرُّ يومٍ جرى
تلوم على أم دفرٍ أخاك ... وراءك أن هوى قد ورى(١)

(١) لم ذكر - الذئب

عهدتك تشبه سيد الضراء ... ولستَ مشابهَ ليثِ الثرى
تأدب فان وجدت خلسةً ... فيا للسليكِ أو الشنفرى
هو الشر قد عم في العالمين ... أهل الوهود وأهل الذرا
ليفتن في صمته تاسك ... إذا افتن فيما يقول الورى
فكنوا حبوحيةَ الشرب أمَّ ... ليلى ومكه أمَّ القرى
وقالوا بدا المشتري في الظلامِ ... فياليت شعريَ ماذا اشترى
وترجو الرباحَ وأين الرباحُ ... ونعتُك في نفسك الخيسرى
عذيريَ من مارد فاجر ... تقرأ والمخزياتِ افترى
فهوِّنْ عليك لقاءَ المنون ... وقُلْ حين تطرق أطرقَ كرا
وناد اذا أوعدتك أعتري ... فصبراً على الحكم لما اعترى
ونفسي ترجّى كاحدى النفوس ... وتُذرِي النوائبُ سُكنَ الذُرى
وكم نزل القيلُ عن منبرٍ ... فعاد الى عُنصرٍ في الثرى
وأخرجَ عن مُلكه عارياً ... وخلّف مملكةً بالعرا
اذا الضيفُ جاءك فابسِمْ له ... وقرّبْ اليه وَشيكَ القِرَى
ولا تحقرِ المُزدرَى في العيون ... فكم نفع الهيّن المزدرى
ولا تحمل البزلُ تلك الوسو ... قَ إلا بأزرارها والسُرا

أَجلْ خَرَّتْنِيَ وَثَّابةٌ سواها التي مشتِ الخَيْزَرَى
فان سَراء الليالي دمى أوَانَ شبيبتنا فانسرا
ونومي موتٌ قريب النشورِ ومونى نومٌ طويل الكرَى
نؤمّل خالقنا اننا صرينا لنشرب ذاك الصَّرَى
سواء عليَّ اذا ما هلكتُ مَنْ شاد مكرمتي او ذرى
فأودى فلانٌ بسُقمٍ أضرَّ وأودى فلانٌ بعرقٍ ضرا
أبالنَّبْلِ أدركَ أم بالرِّما ح بين أسنتها والشُّرا
فهل قام من جَدَثٍ ميِّتٌ فيُخبِر عن مَسْمَعٍ او مَرا
ولو هبَّ صدقه معشرٌ وقالَ أناسٌ طغى واقترى
ولم يَقْرِ في الحوض داعي السوا م الا ليورده ما قرى
أفرّ وما فرَّ نافرٌ بمعتصم من قضاءٍ فرى
أحنّ الى اهلٍ فاتني وما للشَّبوبِ وعيش الفرا
متى قرقر الهاتف العكرمي هيّج شوقًا الى قرقرى
وقد يَفْسُد الفكرُ في حالةٍ فيوهمك الدُّرَّ قطرَ السَّرا
سقاك المنى فتمنَّيتها وصاغ لك الطيفُ حتى انبرى
فلا تدنُ من جاهلٍ آهلٍ لو انتزعتْ خَمْسُه مادرى

أبى سيفه قتل أعدائه وساف وليدته أو هرى
وتخلف الانسُ في شأنها وأبعدُ بمن باع ممن شرى
مُغنّيةٌ أعطيت مُرغباً فغنّتْ وناجتهُ تكْترى
وهاوٍ ليُخرج ماء القلبِ وراقٍ ليجنى ثَوْلاً أذى
فان نال شهداً فأيسرُ به على انه بسقوطٍ حرى
نزولٌ كما زال اجدادُنا ويبقى الزمانُ على ماترى
نهارٌ يضيءُ وليلٌ يجيءُ ونجمٌ يغور ونجمٌ بدى

الحكام

مالي غدوتُ كفافِ رُؤْبَةَ قيدت
في الدّهرِ لم يُقدَرْ لها إجراؤها
أعلت عِلّةَ قال وهي قديمةٌ أعيا الاطبةَ كلّهم إبراؤها
طال الثواء وقد أتى لمفاصلي أن تستبدّ بضمّها صحراؤها
فترت ولم تفتر لشرب مدامة بل للخطوب يغولها إسراؤها
ملء المقام فكم أعاشر أمةً أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرّعيةواستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فرقاً شعرتُ بأنها لا تقتني خيراً وأنّ نرادها شعراؤها
أثرت أحاديث الكرام بزعمها وأجاد حبس أكفها إثراؤها
واذا النفوس تجاوزت اقدارها حدّ البعوض تغيرت سُجراؤها
كصحيحة الأوزانِ زادتها القوى
حرفاً فبان لسامعٍ نكراؤها
كريت فسُرّت بالكرى وحياتها أكرت فجرّ نواثباً إكراؤها
سبحان خالقكَ الذي قرّت به غبراء توقد فوقها خضراؤها
هل تعرف الحسد الجيادُ كغيرها فالبهمُ تحسدُ بينها غراؤها
ووجدت دنيانا تشابه طامناً لا تستقيم لناكح أقراؤها
هُويت ولم تسعف وراح غنيمها تعباً وفاز براحة فقراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حبّها وتقرأت لتنالها قرّاؤها
واذا جرت النفس عن شغف بها فكان زخر غويتها إغراؤها

الله ، رجال الاديان

فقدتْ في ايامك العلماء وادلهمّتْ عليهمُ الظلماء
وتغشّى دهماءنا النيّ لمّا عطلات من وضوحها الدهماء
للعليك المذكّراتُ عبيدٌ وكذلك المؤنثات إماء
فالهلالُ المنيف والبدرُ والنفرْ قدُ والصبحُ والثرى والماء

والثريا والشمس والنار والسترة والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا أخي استغفر الله فلم يبق فيّ الا الذماء
ويقال الكرام قولاً وما في العصر الا الشخوص والاسماء
واحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء
هذه الشهب خلتها شبك الدهر لها فوق اهلها الماء
عجباً للقضاء ثم على الخلق فهمت ان تبسل الحزماء
او ما يبصرون فعل الردى كيف يبيد الاصهار والاحماء
غلب الموت منذ كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء
فارقبي يا عصماء يوماً ولو انك في رأس شاهق عصماء
وارى الاربع الغرائز فينا وهي في جثة الفتى خصماء
إن توافقن صح اولاً فما ينشفك عنها الامراض والاعماء
ووجدت الزمان اعجم فظاً وجبار في حكمها العجماء
إن دنياك من نهار وليل وهي في ذاك حية عرماء
والبرايا حازوا ديون منايا سوف تقضى ويحفر الغرماء
ورد القوم بعد ما مات كعب وارتوى بالنمير وفد ظماء

حيوانٌ ، وجامدٌ غير نامٍ ، ونباتٌ له بُسُقيا غَماء
ولَوَ انّ الانام خافوا من العقبى كما جارتِ المياهَ الدماء
اجدرُ الناس في العواقب بالرحمة قومٌ في بَدْئهم رُحَما
وغَضِبنا من قول زاعم حقٍ اننا في أصولنا لُؤماء
انت يا آدمَ آدمَ السِربِ حوّا ؤك فيه حوّاء أو أدماء
قرمتنا الايامُ هل رُثتِ السنجامَ لمّا ثوى بها قَرماء
عالَمٌ حائرٌ كطيرِ هواءٍ وهَوانٍ تضمّها الدأماء
وكأنّ الهمامَ عَمْرَو بنَ دَرْما ءَ فَلَتْه من أمه دَرْماء
والبَهَا الشميم تحميه من وط ءِ مُعاديك أرنبٌ شمّاء
وعَرانا على الخُطام ضِرابٌ وطعانٌ في باطلٍ ودِماء
أسْوَدُ القلب أسْود ومتى ما تَصْغَ أذنى فأذْنه صَمّاء
قد رمى نابلٌ فأنْمَى واصمى ولياليك لهـا إغْماء
انّ رَبّ الحصن المَشيد بتَيْما ءَ تولّى وخُلّفتْ تيماء
أومأت للحذّاء كفُّ الثريّا ثم صُدّ الحديث والايماء
شهدتْ بالمِلاك أنجمُها الستّةُ ثم الخَضيبُ والجذماء
فَهِمُ الناس كالجهولِ وما يظفرُ الا بالحسرة الفُهَماء

تلتقي في الصعيد أمٌّ وبنت وتساوى القرناء والجلّاء
وأنيقُ الربيع يُدركه القيظ وفيه البيضاء والسحماء
وطريقي الى الحِمام كريهٌ لم تُهَبْ عند هولهِ البَيْهاء
ولو ان البيداء صارم حربٍ وهي من كلِّ جانبٍ صرماء
كيف لا يُشرِكُ المُضيقين في النعمةِ قومٌ عليهم النعماء

نار الشبيبة

أولو الفضل في لوطانهم غُرباءُ تَشِذ وتنأى عنهمُ القُربا
فما سبئوا الراحَ الكميتَ لذةٍ ولا كان منهم للخرادِ سِباءُ
وحسبُ الفتى من ذِلة العيش أنه يروحُ بأدنى القوتِ وهو حِباء
إذا ما خَبتْ نار الشبيبة ساءني ولو نُصَّ لي بين النجوم خِباء

كلهم سيء

إن مازت الناسَ أخلاقٌ يعاش بها فانهم عند سوء الطبع أسواء
أو كان كل بني حواء يُشبهني فبئس ما ولدت في الخلق حواء
بُعدي من الناس برءٌ من سقامهم وقربهم للحجا والدين أدواء
كالبيت أفرد لا إيطاء يدركه ولا سِنادَ ولا في اللفظ إقواء

نوديتُ ألويت فـانزل لا يراد أتى
سيرى لوى الرمل بل للنبت إلواء
وذاك أن سواد الفود غيره في غرة من بياض الشيب أضواء
إذا نجوم قتير في الدجى طلعت فالجفون من الاشفاق أنواء

سكارى وعذارى

أقيمي لا أعد الحج فرضاً على عجز النساء ولا العذارى
فقي بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها إذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعاً إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا اخذوا الزوائف أو لجوهم ولو كانوا اليهود أو النصارى
متى آداك خير فافعليه وقولي إن دعاك البر آرى
فلو قبل الغواة عرفت كشفي من الكذب المموه ما توارى
ولا تتقي بما صنعوا وصافوا فقد جاءت خيولهم تبارى
جرت زمناً وتسكن بعد حين وأقضية المهيمن لا تجارى
لعل قران هذا النجم يثني إلى طرق الهدى أمماً حيارى
فقد أودى بهم سغب وظمء وأينقهم بتلفة حسارى

وما أدري أمن فوق المهارى ... ألبٍ إذا نظرتُ أمِ المهارَى
أتتهم دولةٌ قهرتْ وعزّتْ ... فباتوا في ضلالتها أسارَى
وظنوا الطهر متصلاً بقومٍ ... وأقسم إنهم غيرُ الطهارى
وما كريت عيونُ الناس جمعاً ... ولكن في دُجُنتها تكارَى
لهم كَلِمٌ تخالف ما أجنّوا ... صُدورهم بصحته تمارى

الفساد

آدم

فسلٌ ابو عالمنا آدم ونحن من عالمنا افسل (١)
والخير محبوب ، ولكنه يعجز عنه الحيُّ ، او يكسل
والارض للطوفان مشتاقة لعلها من دنسٍ تُغسل .

حواء وبنوها

ان مازت الناس اخلاقٌ يعاش بها
فانهم عند سوء الطبع اسواء
او كان كلُّ بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الخلق حواء

الاجساد

ايا جسد المرء ، ماذا دهاكا وقد كنت من عنصر طيب
تخبثت ، اذ جُمعتْ اربعٌ
لديكَ ، وانضحكتَ في الحي بي (٢)
فلا تجزعنَّ اذا ما الحما . مُ صاح بوفد الضنا : هي بي !

---

١) افسل : احقر
٢) اربع : هي العناصر الاربعة ، الماء والهواء والنار والتراب

تصير طهوراً ، اذا ما رجعتَ إلى الاصل ، كالمطر الصيب

كلاب و كلب

وقد غلب الاحياءَ في كل وجهة هواهم ، وان كانوا غطارفةً غُلبا
كلابٌ تعاوت او تعاوت لجيفة واحسبني اصبحت الأمَّ كلبا

هل ينفع المسك ؟

بنتُ عن الدنيا ولا بنتَ لي فيها ، ولا عرسٌ ، ولا أختُ
ان مدحوني ، ساءني مدحهم وخلتُ اني في الثرى سخت (١)
جسمي انجاسٌ ، فما سرني اني بمسك القول ضمختُ
من وسخٍ صاغَ الفتى ربَّه فلا يقولنَّ توسختُ

الارض لا تحمل

كأنما الارضُ شاع فيها من طيب ازهارها بخورُ
اثنتْ على ربها السواري والنبتُ والماء والصخور
ونحن فوق التراب ثقل يكاد من تحتنا يخورُ

---

١) سخت : غصت

الانسان اظلم

قد فاضتِ الدنيا بأدناسها على براياها واجناسها
وكلُّ حيٍّ فوقها ظالمٌ وما بها اظلمُ من ناسها

متفرقات

والشرُّ في الجد القديم غريزةٌ في كل نفس منه عرقٌ ضارب

* * *

فلا تعذلينا ، كلُّنا ابن لئيمةٍ
وهل تعذبُ الاثمار، ان لؤمَ الغرسُ؟

* * *

لقد فعلوا الخير القليل تكلفاً
وجاؤوا الذي جاؤوهُ من شرهم طبعا

* * *

القلب كالماء ، والاهواء طافيةٌ عليه مثل حباب الماءِ في الماء

* * *

تفرقوا كي يقل شرُّكمُ فانما الناس كلهم وسخُ !

* * *

يغدو على خله الانسانُ يظلمه كالذيب يأكل عند الغرة الذيبا :

* * *

اين الحق ؟

وجدتُ الناسَ في هرج ومرجٍ غواة بين معتزلٍ ومرجي
فشأن ملوكهم عزف ونزف واصحاب الامور جباة خرجِ (١)
افي الدنيا ، لحاها اللهُ ، حقٌ فيطلب في حنادسها بسرجِ ؟

الدين مكر

افيقوا ، افيقوا يا غواةُ فأنما ديانتكم مكر من القدماء
ارادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا ، ومات سنّة اللؤماء

مقلدون

عاشوا كما عاش اباء لهم سلفوا واورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون ، من غي ، لمن سجدوا

العقل يحاسب

والعقل يعجب ، والشرائع كلها خبر يُقلّدُ لم يقسه قائسُ
متمجسون ومسلمون ومعشر متنصرون وهائدون رسائس (٢)

---

١) نزف : سكر
٢) رسائس : جمع رسيس وهو اول كل شيء ويقصد بها هنا : اليهودية اقدم الاديان

وبيوت نيرانٍ تُزار تعبداً ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمون كواكباً وطباعُ كلٍ في الشرور حبائس

العقل

يرتجي الناسُ ان يقوم امامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساءِ (١)
كذب الظنُّ ، لا امام سوى العقـ ـلِ مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والارساء
انما هذه المذاهب اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحي ثقلا على الجلساء

احتيال

ولا تطيعنَّ قوماً ما ديانتهم الا احتيالٌ على اخذ الاتاواتِ
وإنما حمل التوراةَ قارئها كسبُ الفوائد لا حب التلاوات
إن الشرائع القمت بيننا إحناً واودعتنا اقانين العداوات
وهل أبيحت نساء القوم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات !

حيرة

سألتُ المحدثَ عن شأنه فما زال يضعف حتى ارتبك

* * *

١) : هو الامام المعصوم الذي تقول به الباطنية .

اجاز الشافعيُّ فعالَ شيءٍ وقال ابو حنيفة لا يجوز !

* * *

عالم السوء

قد حُجبَ الدين والضياءُ وإنما ديننا رياءُ
يا عالمَ السوء ، ما علمنا ان مُصليكَ اتقياءُ
لا يكذبن امرؤ جهول ما فيك لله اولياء
كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض انبياء
فانصرفوا ، والبلاء باقٍ ولم يزُل داؤكَ العياءُ
حكمٌ جرى للمليك فينا ونحن في الاصل اغبياء

رجال الدين

رويدك قد غُررت وانت حرٌ بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يُحرم فيكمُ الصهباءَ صبحاً ويشربها على عمدٍ مساءَ
تحسّاها فمن مزجٍ وصرفٍ يُعلُّ كأنما ورد الحساء
يقول لكم غدوتُ بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين ، لا جهةٍ اساءَ

نتيجة البحث

وقد فتشت عن اصحاب دين ... لهم نسك ، وليس لهم رياءُ
فألفيت البهائم لا عقولٌ ... تقيم لها الدليل ، ولا ضياء
واخوانَ الغطانةِ في اختيالٍ ... كأنهم لقوم انبياءُ
فأما هؤلاء فاهلُ مكرٍ ... واما الاولون فاغبياء

فساد المرأة

من قصيدة لبن آراء المعري في المرأة

ترنمُ في نهارك مستعيناً ... بذكر الله في المترغات (١)
وهينم ، والظلامُ عليك داجٍ ... لدى وُدقٍ تمعن مهينمات (٢)
ولا تُرجع بايماء سلاماً ... على بيضٍ اشرن مسلمات
فوارسُ فتنةٍ ، اعلامُ غيٍ ... لقينك بالاساور معلمات (٣)
وسامٌ ما اقتنعن بحسن اصل ... فجئنك باخضاب موسمات
وقد يصبحن ، عن بر ونسك ، ... باطيبِ عنبرٍ متنسمات
كأنَّ خواتمَ الافواه فُضت ... عن الصُهُبِ العِذاب مختَّمات (٤)

١) المترغات : الطيور المترددة
٢) المهينمة : هي الصوت الخفي
٣) معلمات : المتزينات
٤) الصهب : الخمور

ثنتهنَّ الجماجمُ عن مرادٍ بشيبٍ ، فاثنينَ مجمجمات (١)
خمورُ الريقِ لنَ بكلِّ حالٍ على طُلّابهن محرّمات
ولكن الاوانسَ باعثاتٌ ركابك في مهالكَ مقتنات
صحبنكَ فاستفدت بهن ولداً اصابك من اذاتك بالسمات (٢)
ومن رُزقَ البنين فغير ناءٍ بذلك عن نوائبَ مسقمات
فمن ثُكلٍ يهاب ، ومن عُقوقٍ وارزاء يجئن مصممات
وان تُعطَ الاناث فاي بؤسٍ تبين في وجوهِ مقسّمات (٣)
يُردن بعولةً ، ويردن حيّاً ويلقين الحطوب ملومات
ولسنَ بدافعاتٍ يومَ حربٍ ولا في غارةٍ متغشّمات (٤)
ودفنٌ ، الحوادث فاجعاتٌ ، لاحداهنَّ احدى المكرمات
وقد يفقدن ازواجاً كراماً فيا للسوة المتأيمات
يلدن اعادياً ، ويكنَّ عاراً اذا امسين في المتهضّمات (٥)

* * *

---

١) مجمجمات : مهمهات
٢) السمات : من الوسم وهو الكي
٣) مقسمات : جميلات
٤) المتغشم : الشجاع
٥) المتهضمات : المضيومة حقوقهن

وما الجاراتُ الا جاريات ... بعيبك ان وُجدن مُهيّمات (١)
فلا تسأل اهند ام لميس ... ثوت في النسوة المتخيمات
ولا ترمق بعينك رائحات ... الى حمّامهن مُكمّمات
ومن عاشرت من انسٍ فحاذر ... غوائلَ مُرّدٍ مُتهكمات (٢)
متى يطمعن فيك يُرِبن تيهاً ... لاَطيبِ مطعمٍ متأجمات (٣)
وليس عكوفهنّ على المصلّى ... أماناً من غوارز محرمات
ولا تحمد حسانك ان توافت ... بايدٍ للسطور مقومات
فحمل مغازلِ النسوان اولى ... بهنّ من اليراع مقصمات
سهامٌ ان عرفن كتابَ لسنٍ ... رجعن بما يسوء مسمّمات (٤)
ويتركن الرشيد بغير لبٍ ... اتين لهديه متعلمات
ليأخذنَ التلاوةَ عن عجوزٍ ... من اللائي فقرن مهتمّات
يسبحن المليك بكل جنحٍ ... ويركعن الضحى متأثمات
فما عيبٌ على الفتياتِ لحنٌ ... اذا قلن المرادَ مترجمات (٥)
ولا يدنين من رجلٍ ضريرٍ ... يلقنهن آياً محكمات ،

---

١) مهيمات : مقومات
٢) مرد : عاصيات
٣) تأجم : استنشاط غضبا
٤) اللسن : اللغة
٥) لحن : خطأ في الاعراب

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمّته من المتثغبات (١)
وان طاوعن امرك، فانه غيداً يزرن عراثسات متيمات،
اخذن كريش طاووس لباساً ومسكاً بالضحى متلغبات (٢)
وابعدهنّ عن ربات مكرٍ سواحرَ يغتدين معزمات
يقلن تهيجُ الغيابَ حتى يجيئوا بالركاب مزنّات (٣)
وتعطف هاجرَ الخلانِ كيما يزول عن السجايا المسئمات (٤)

الشرف الضائع

اذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليدُ
فان خالفتني ، واضعت نصحي فانت وان رُزقت حجىً ، بليد
الا ان النساء حبال غيٍ بهنّ يضيّع الشرفُ التليد .

خير النساء

خير النساء اللواتي لم يلدن لكم فان ولدن فخير النسل ما نفعا
واكثر النسل يشقي الوالدان به فليته كان عن آبائه دُفعا
اضاع داريك من دنيا وآخرة لا الحي اغنى ولا في هالك شفعا
وكم سليلٍ رجاه للجمال أبٌ فكان خزياً باعلى هضبة رُفعا

١) تتثم : شاب ٢) تلغم : تطيب ٣) مزنات : من زمم الجمل : خطمه
٤) المسئمات : التي تحدث السآمة

السعادة

كلاهما عناء

حياة عناءٌ وموتٌ عنا فليت بعيدَ حمام دنا
يدٌ صفرت ، ولهاةٌ ذوت ونفس تمنّت ، وطرف رنا
يحاول من عاش سترَ القميـ ـص ومل ءَ الخميص ، وبُرءَ الضنى
اعائبةٌ جسدي روحه وما زال يخدم حتى وَنى
ولي مورد باناء المنون ولكنّ ميقاته ما أنى ،

الى الأذى

نادى حشا الام بالطفل الذي اشتملت
عليه : ويحك الا تظهر ومتُ كمدا ؛
فان خرجتَ الى الدنيا لقيتَ اذىً
من الحوادث ، بلهَ القيظَ والجمدا
وما تخلّصُ يوماً من مكارهها وانت لا بدّ فيها بالغٌ أمدا
وربّ مثلك ولّاها على صغرٍ حتى اسنّ فلم يُحمَد وما حَمِدا
لا تأمنُ الكفُّ من ايامها شللاً ولا النواظرُ كفّاً عنّ او رمدا

فان ابيتَ قبول النصح معتدياً فاصنع جميلاً ،ودع الواحدالصمدا
فسوف تلقي بها الامال واسعةً اذا اجزتَ مدى منها رأيت مدى
وتركبُ اللجَّ تبغي ان تفيدغنىً وتقطعُ الارض لا تلفي به عَدَدا
وان سعدتَ فما تنفكُّ في تعبٍ وان شقيتَ فمن للجسم لو هَمَدا
ثم المنايا فاما ان يقال مضى ذميمَ فعلٍ ، واما كوكب خمدا .

يا ام دفر

ما كان في هذه الدنيا بنو زمنٍ الا وعندي من اخبارهم طرفُ
يخبر العقلُ ان القوم ما كرموا ولا افادوا،ولاطابوا،ولا عرفوا
عاشوا قليلا،وماجوا في ضلالتهم ولا يفوزون ان جُوزوا بما اقترفوا
اذا شقيت فجسمٌ نالهُ نصبٌ ، وان ترفتَ فماذا ينفع الترفُ ؟
يا ام دفرٍ لحاكِ الله والدةً منك الاضاعة والتفريط والسرفُ
لو انك العرس اوقعتُ الطلاق بها لكنك الام،هل لي عنك منصرفُ

ثوب .. وقلب

تقواك زادٌ فاعتقد انه افضلُ ما اودعتهُ ماقي السقاء
آه غداً من عَرقٍ نازلٍ ومُهجةٍ مولعةٍ بارتقاء

ثوبي محتاجٌ إلى غاسلٍ وليت قلبي مثلَه في النقاء
موتٌ يسيرٌ معه راحةٌ خيرٌ من اليسر وطولِ البقاء
وقد بلونا العيشَ اطوارَه فما وجدنا فيه غيرَ الشقاء
تقدّم الناس ، فيا شوقنا الى اتّباع الاهل والاصدقاء
ما اطيبَ الموت لمُشرّابه ان صحّ للاموات وشكُ التقاء

اين الحق ؟

متفرقات

وانما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته .

* *

سألتموني فاعيتني اجابتكم من ادّعى انه دارٍ فقد كذبا .

* *

اذا قلت المحالَ رفعت صوتي وان قلت اليقين اطلت همسي .

* *

اما اليقين ، فلا يقين وانما اقصى اجتهادي ان اظنّ واحدسا

* *

نفارق العيش لم نظفر بمعرفةٍ اي المعاني باهل الارض مقصود

* *

الغيب مجهول يحار دليله واللبّ يأمر اهله ان يتقوا .

* *

رأيت الحق لؤلؤة توارت بلجّ من ضلال الناس جمّ .

مصيرنا

الروح ومصيرها

والروح ارضيةٌ في رأي طائفةٍ وعند قوم ترقى في السماوات

تمضي، على هيئة الشخص الذي سكنت

فيه، الى دار نعمى او شقاوات

الريح ستسكن

روح اذا اتصلت بشخص لم يزلْ هو وهي في مرض العناء المكمدِ

ان كنتِ من روح فيا ريحُ اسكني او كنتِ من لهب فيا لهب اخمدِ

هباء

لو كان جسمك متروكاً بهيئته بعد النلافِ، طمعنا في تلافيهِ

كالدنّ عُطّل من ريحٍ تكون به ولم يُحطَّم فعادت مرة فيه

لكنه صار اجزاءً مقسمةً ثم استمرّ هباء في سوافيه

لا تناسخ

يقولون ان الجسم ينقُل روحه الى غيره حتى يهذّبها النقلُ

فلا تقبلنْ ما يخبرونك ضلّةً اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل

ماهية الروح

والروح شيءٌ لطيفٌ ليس يدركه
عقلٌ ، ويسكن من جسم الفتى حرجا
سبحان ربك، هل يبقى الرشاد له وهل يحسّ بما يلقى اذا خرجا؟
وذاك نورٌ لاجساد يحسّنها كما تبيّنَ تحت الليلة السُرُجا
قالت معاشر : يبقى عند جثته وقال ناس: اذا لاقى الردى عرجا(١

الفساد في الاصل

حوتنا شرورٌ لاصلاحَ لمثلها فان شذّ منا صالحٌ ، فهو نادرُ
وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن بامرٍ سبّبته المقادر
وفي الاصل غشٌ، والفروع توابعٌ وكيف وفاءُ النجل، والاب غادر؟
فقل للغرابِ الجونِ ،ان كان سامعاً، أأنت على تغيير لونك قادر؟(٢

عزلة

اذا حضرت عندي الجماعةُ اوحشت فما وحدتي الا صحيفة اينامي
طهارة منلي في التباعد عنكمُ وقربكمُ يجني همومي وادناسي

لا تعاشرهم

توحّدْ فانّ الله ربّك واحدٌ ولا ترغبنْ في عشرة الرؤساء

(١) عرج : صعد الى السماء (٢) الجون : الاسود

يُقلُّ الأذى والعيبُ في ساحة الفتى وأن هو أكدى ؛ قلةُ الجلساء

الغنى

اغنى الانام تقيٌّ في ذرى جبلٍ يرضى القليل ويأبى الوني والتاجا
وافقر الناس في دنياهمُ ملك يضحي الى اللجب الجرّار محتاجا

للحيوان روح كالانسان

غدوتُ مريضَ العقلِ والدين فالقنى
لتسمعَ أنباء الامور الصحائح
فلا تأكلنْ ما اخرج الماءُ ظالماً ولا تبغِ قوتاً من غريض الذبائح (١
ولا بيضَ أمّاتٍ ارادت صريحَه لاطفالها دون الغواني الصرائح (٢
ولا تنجعنّ الطير ، وهي غوافلٌ ، بما وضعت ، فالظلم شر القبائح
ودع ضربَ النحل الذي بكرت له
كواسبَ من ازهارِ نبتٍ فوائح (٣
فما احرزته كي يكونَ لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
مسحتُ يدي من كلّ هذا فليتني ابهتُ لشأني قبل شيب المسائح (٤

---

(١) غريض : طري . (٢) الصرائح : الصافيات اللون ؛ الجبلات
(٣) ضرب : عسل ابيض (٤) المسائح : ذوائب الشعر

الخمرة

البابليّة بابُ كل بليةٍ فتوقينَ هجوم ذاك البابِ
حاة جرّت ملاَ الصديق وهجره وأذى النديم وفرقة الاحبابِ
هتكتْ حِجابَ المحصَنات وجشمت
مُهنَ العبيدِ تهضّمَ الارباب
وتوَهِمُ الشيبَ المدالفَ أنهم لبسوا على كِبَرٍ برودَ شباب(١
واذا تأملتَ الحوادث ألفيتْ صهبُ الدنانِ اعادي الالباب

حقير يسير

لا تعذلاني فالذي ابتغي من هذه الدنيا حقير يسير
بت اسيراً في يدي برهة تسير بي وقتي اذا لا اسير
كظائر قيل الا تغتدي فقلت اني وجناحي كسير .

---

(١) مدالف : جمع مدلف وهو الشيخ يمشي ببطء

عطفاً امير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لانتفرق
مابيننا يوم الفخار تفاوتٌ ابداً كلانا في المعالي مُعْرِقُ
إلا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوّق

... ماذا يمكننا ان نعتقد برجل يخاطب الخليفة بهذه اللهجة ؟ هل هو يمدح الخليفة حقاً ؟ أم يمدح نفسه ويفتخر بشخصه ؟

واذا كان لابد لنا من الجواب على هذه الاسئلة فنجيب : انه ليس في التاريخ السياسي والادبي في جميع العصور العباسية من بلغت به الجرأة والشجاعة والاعتداد بالنفس حتى يخاطب الخليفه بهذا الخطاب ، خصوصاً ، اذا ادركنا ان المخاطب هو احد الشعراء الذين تضيق بهم بغداد وان كان من اشراف الطالبيين . فأن الطالبيين في ذلك الوقت لم تكن لهم القوة التي تدفع وتسمح لأحدهم ان يخاطب الخليفة بهـــذه اللهجة مهما كانت مكانة الخليفـة من الضعف .

من هو قائل هذه الابيات :

مقامي على الهوان وعندي ... مقـولٌ صارمٌ وأنفٌ حميٌ
وإباءٌ محلـقٌ بي عن الضـيم ... كما راغَ طائرٌ وحشيُ
أيُ عذر له إلى المجد إن ذلّ ... غلامٌ في غمده المشرفيُ

هذه الروح الوثابة ، وهذا الغناء الجياش يذكرنا بشاعر طالما تناقلت شعره السن الرجال ، يذكرنا بالمتنبي ، ولكن هل قائل هـذه الابيات المحلقة هو المتنبي ، لا ، بل انه رجل ، كانت له آمال اكبر من آمال المتنبي . وكانت له شاعرية تبذ شاعرية المتنبي في بعض الفنون ، رجل ، قاسى ماقاسى المتنبي واكثر ، رجل عرفته مصائب الدهر ، وكوارث الايام ، ولكنه بقي صامـداً ، لم تحطم تلك المصائب في نفسه اية ذرة من الآمال الكبيرة التي تضطرم في صدره ، بل انها زادت اضطرام تلك الثورة ليلفظها شعراً جميلا قوياً .

فتى انشد الشعر وهو في العاشرة من عمره بينما كانت الايام تكيل

له ضربائها ، وبينا كان والده الجليل يساق الى السجن من دبار فيها العز وفيها المكانة ولها الاحترام .

من هو ذلك الفتى الشاعر ؟ ومن هو ذلك الشيخ الجليل الذي تجلد ولده وجولته ، وبكى فراقه بعيون من الشعر ؟

اما الفتى فهو الشريف ابو الحسن محمد الرضي الموسوي ولد في بغداد سنة ٣٥٩ هـ والملك عندئذ لبختيار بن معز الدولة بن بويه والخلافة للخليفة العباسي المطيع لله .

واما الوالد فهو ابو احمد الحسين الموسوي يرتفع بنسبه الى ان يبلغ السيد موسى الكاظم ، ثم يتدرج الى ان يبلغ الحسين بن علي بن ابي طالب امير المؤمنين وآخر الخلفاء الراشدين .

كان والد الشريف يتولى نقابة الاشراف الطالبيين الى جانب امارة الحاج بالناس . وهذه مرتبة لا يصبها الا من له مناقب واعمال تؤهله كي يبلغها ، ولقد كان الحسين الموسوي ذلك الرجل .

وفي زمن بختيار بن معز الدولة حرم الحسين من امارة الحج والنظر في المظالم ، وابتدأت بوادر القلق ، وغيوم الشك والوجل تتلبد فوق ذلك البيت الكريم ، حتى اذا اتت سنة ٣٦٧ هـ الموافقة ٩٧٧ م ودخل الى بغداد سلطان جديد هو عضد الدولة الذي ازال عن بغداد كلمة سلفه وسلطته ووحد دولة آل بويه ، وارتد الى النظر في الحالة الداخلية ، وما ان بلغت سنة ٣٦٩ حتى ابتدأت تلك الغيوم تتقشع فوق ذلك البيت الكريم عن جو حافل بالرياح والاعاصير ، اذ امر عضد الدولة باعتقال رب البيت وحبسه في قلعة فارس ، ومصادرة املاكه ، واذا قلنا ان الشريف كان يومئذ في العاشرة من عمره لتبين لنا اي اثر تركته هذه الحادثة بل هذه الكارثة في نفسه . وقيل ان احدى قصائده الجيدة المبكرة نظمها في ذلك الوقت عندما بلغه ان المظفر بن عبدالله وزير عضد الدولة قال لأبيه حين جيء به

اليه : « كم تدل علينا بالعظام النخرة » ! يعني عظام اجداده الأئمة . فثارت نفس الشريف لهذه الاهانة ورد عليها بهذه القصيدة التي تدل على عبقرية مبكرة ، وجرأة ظاهرة نادرة :

تُصافي المعالي والزمانُ معاندُ وتنهض بالآمال والجدُ قاعدُ

إلى ان يقول معرضاً بالخليفـــة تعريضاً جارحاً مشيداً بقوة الفاطميين في مصر :

وطاغٍ يُعيرالبغيَ غَرْبَ لسانهِ وليس له عن جانب الحق ذائدُ

ولو كان بين الفاطميين رفرتْ عليه العوالي والظُبا والسواعد

قلنا ان عضد الدولة اعتقل الموسوي وارسل به الى فارس . ثم بينا ان الشريف بقي في داره يتلهف على تلك الايام السعيدة في كنف ذلك الاب الكريم العظيم كالطود الشامخ فاذا ببذا الواقع الاليم بعد سجن والده يدعه ذاهل العقل ، رقيق الاحساس ، ولم تكن هـــذه النكبة إلا لتخلق من الشريف شاعراً ينظر الى الحياة بمنظار الرجال وهو في سن الصبيان ، وليس مثل الحياة والايام تصقل النفوس وتحرك الشعور ، فالشريف الذي عرف حياة الشرف والعز والجاه ، ترى ماذا كان شعوره وهو يرى نفسه في حالة يرثى لها من الهوان والفقر ؟

ان هذه الحادثة وان كانت ذات سيئات من بعض النواحي التي تتناول شخص الشريف الرضي إلا انها احسنت اليه ، اذ صقلت ادبه وعززت نفسه وايقظت شاعريته ، والهبت احساسه .

ولقد كنا ننتظر ان يقتحم الشريف ميدان الهجاء ، فيهجو عضد الدولة الذي امر بسجن والده ، ولكن الشريف لم يفعل ذلك لان اعمال عضد الدولة العمرانية واهتمامه بحالة البلاد جعلت شتمه صعباً ، يضاف اليها قوة عضد الدولة

وبغضه كل هذه العوامل ضف اليها محبة اهل العراق لعضد الدولة من جهة اخرى ، جعلت شعور الشريف يختبىء في نفسه الى حين الحاجة ، وحين يقدر له ان يزيح عن صدره هذا الشعور بكره عضد الدولة ودولته

ولم يطل الامر حتى توفي عضد الدولة في سنة ٣٧٢ والشريف في الثالثة عشر من عمره ، إلا ان الشريف مع هذا لم يأمن لدهر ولم يرتح اليه ، فهو يعلم ان موت عضد الدولة لاجل مشكلته ، بل ان ابناءه سوف يسيرون على خطة والدهم ، إلا انه اسرع ببشر والده بموت عضد الدولة :

ابلغا عني الحسين(١) ألوكاً ان ذا الطود بعد عهدك ساخاً

إلا ان الامر لم يطل ايضاً هذه المرة كما طال في سالفها ، واذا تخاوف الشريف تنقشع شيئاً فشيئاً عندما اختلف ابناء عضد الدولة ، صمصام الدولة الذي استلم الملك بعـــد ابيه ، وشرف الدولة الذي اخذ البيعة لنفسه في بلاد فارس .

وكان لابد لشرف الدولة من ان يحسن إلى الذين اساء اليهم والده وهو الذي يتمشى مع سياسة مخالفة لسياسة اخيه الذي سار على سياسة والده ، وكان ان افرج عن ابي احمـــد الموسوي واخيه ابو عبدالله وغيرهم من الذين سجنهم والده .

وكان من المفروض ان يرحب الشريف بهذا الافراج ، ولكنه لم يستطع ايضاً لان صمصام الدولة كان له بالمرصاد .

ولكن الحرب ما ليثت ان قامت بين الاخوين ، وكانت الغلبة فيها لشرف الدولة فيهزم اخاه ودخل بغداد دخول الفاتحين ، وصار من حق الموسوي دخول بغداد ورؤية ولديه الحبيبين ، إلا ان عودته الى بغداد لم يرافقها اعادة املاكه اليه فلذا كانت الفرحة بالعودة غير تامة .

---

(١) والد الشريف (٢) الوك : رسالة

ولا بد ايضاً من أن نأتي على ذكر قصائد الشريف عند ما كان والده لا يزال اسيراً في فارس ، اما هـذه القصائد فهي التي دعيت بالقوافي ، وهذه القوافي زاخرة بالنبرم والضجر والضيق ونتائج النكبة التي منيت بها هذه العائلة الكريمة .

خطوبٌ لا يقاومها البقاءُ وأحوالٌ يَدِبُّ لها الضَّراءُ

ودهرٌ لا يصحُّ به سقيمٌ وكيف يصح والايام داءُ

الى ان يقول :

فلا تحزَنْ على الايام فيها إذا غدرتْ وشيمتنا الوفاء

وهنا يظهر الشريف التجلد في مقارعة الخطوب .

وفي قصيدة اخرى يقول :

فتىً سنُّه عن خمس عشرة حجةً تربّى له فضلاً ومجداً ومحتدا

تفرد لا يُفشي الى غير نفسه حديثاً ولا يدعو من الناس منجدا

وهنالك قصائد عديدة قالها الشريف في مدح ابيه وشكوى الدهر والايام ، وجميع هذه القصائد تتميز بروح الكآبة التي تشع بين سطورها ثم مدح والده هذا المدح الذي تميز بتمجيد رجولته ، واحترام هذه الرجولة ثم التعريض بمن خذلوه في هذه المحنة .

وفي سنة ٣٧٦ يعود الموسوي الى بغداد ، ونزيد ، ان هذا الوقت الطويل الذي قضاه والده في السجن والغربة جعلت منه شيخاً هزيل الجسم قارع الايام طويلا فأذا به يختلف عما كان عليه قبل رحيله ، ولكن الشريف يستقبله استقبال الابن المشتاق لرؤية والده وصديقه :

طلوعٌ هداه إلينا المغيب ويومٌ تمزّق عنه الخطوب

لقيتك في صدره شاحباً ومن حلية العربي الشحوب
إليه تمج النفوس الصدور وفيه تهنى العيون القلوب

انظر الى قلب الشاعر يرقص فرحاً من خلال هذه الكلمات . ولقد مدح الشريف ايضاً شرف الدولة الذي انقذ والده :

وانت(١) طوقته بالمن جامعة قامت عليه مقام الحلى الخلل

وفي هذه السنة نفسها ادخل الفرح ثانية على قلب الشريف ايضاً عند ما توفي المطهر بن عبدالله وزير عضد الدولة ، ولقد شمت الشريف بموت هذا الوزير وهجاه بقصيدة دالية بعد موته ، والشريف يخرج عن حدود اللياقة وفي هجوه ليت ، غير انه معذور لم يخرج عن كونه انساناً تألم وشقي بسبب هذا الرجل الظالم .

وجبان لويت عنه فأمسى وجل العين من صراع الرقاد

وهكذا تستمر الحياة مع الشريف يفرح يوماً نفسه باسترداد املاك ابيه اليه ، ثم الامتيازات التي كانت له قبل ذلك المصاب الذي وقع له . وفي سنة ٣٨٠ تعود هذه الامتيازات كامارة الحج ، والنظر في المظالم إلى والد الشريف ، فتهيج نفس الشريف بالشعر ويطلق لنفسه العنان تعبر عن هذه الفرحة .

أنظر إلى الايام كيف تعود وإلى المعالي الغر كيف تزيد
والى الزمان بنا وعاد عطفه فارتاع ظمآن وأورق عود

ويتعرض هنا إلى الأقارب الذين شمتوا به فيقول :

حسدوك لما فات سعيك سعيهم صعداً فما نقع الغليل حسود

(١) يقصد شرف الدولة

وما اقبل عام ٣٩٦ حتى أعيدت الأملاك إلى والده ، وكان الموسوي في هذه الأثناء قد فقد نور عينيه ، فيفرح الشريف بعودة هذه الأملاك لانها تعين الشيخ على مطالب الحياة ، بعد ان فقد نعمة النظر .

وما رد الزمان عليك حفظاً من الاملاك والمال المضاع

وناحية اخرى تدل على احترام الشريف لوالده ، وتقديره له ، فقد كان الموسوي دائم السعي لفض الخلافات الناشبة بين السنة والشيعة ، وكان رجلا صالحاً كريماً ، فهو من اهل الصلاح والأصلاح ، ولقد قدر الشريف لوالده هذه المزايا الطيبة فمدحه معدداً مآثره في هذا السبيل .

ولولاك عليّ بالجماجم سورها وخندق فيها بالدماء الذوائب

وفي سنة ٤٠٠ مات ابو احمد الموسوي ذلك الشيخ الصالح . وكان موته كارثة حلت بولده الشريف ، فرثاه بقصيدة طويلة معدداً مناقبه ، ذاكراً أحزنه لفراقه وتمثل هذه القصيدة صدق العاطفة نحو الراحل الكريم .

أنعاك للخيل المغيرة شزباً خبط المغار بهن من لم يجرم
كالسرب أوجس نبأة من قانص فمضى يلف مؤخراً بمقدم

الخ ما في هذه القصيدة من التوجع على فقد والده .

اذن عليه منذ الان فصاعداً ان يشق طريقه بنفسه ، عليه ان يعتمد قواه في مكافحة الخطوب ، التي المت به منذ صغره والتي جعلت شعره يشيب وهو في العشرين من عمره .

ونعود إلى الشريف الفتى لنحدد العوامل التي تكاتفت لتجعل من الشريف رجلا يسعى ليكون صاحب الكلمة الاولى في الديار الأسلامية بأسرها . نظرة إلى الشريف في مستهل شبابه لنتبين هل كان من الممكن ان يفكر الشريف في مثل هذا؟ ثم ما هي الخصائص التي توفرت في الشريف

الرضي، وماهي خصائص شعره ؟ ثم ما هي الفنون التي اعتمدها الشريف ؟

نحن ندرك ان الشريف امضى طفولته في بيت عز وجاه ، في بيت علم وادب ومعرفة وتقوى ، في بيت زعامة زمنية ودينية ، وليس هذا الوصف بكثير على نقيب الطالبيين وهم يشكلون في ذلك الوقت كثرة لا يستهان بها ، وإلا لما اصبح امير الحج منهم ، وسأحاول في هذه الدراسة القصيرة ان اوضح ما امكن العوامل التي خلقت الشريف الطامح الشاعر الفنان ، وسأحاول ان اتناول كلا من هذه الشخصيات علني اوفق إلى اعطاء صورة صحيحة لحياة ذلك الشاعر الذي احتل مكانة مرموقة في عالم الأدب والسياسة .

في عصر الشريف الرضي وفي العصر الذي سبقه عرف الأدب العربي نهضة عظيمة في جميع الفنون والاداب والفلسفة وغيرها من امور المعرفة . وفي ذلك العصر برز اشهر علماء اللغة والشعر . ففيه عرف النقد الأدبي ، والجدل العلمي ، والنثر الفني ، والشعر الحر ، والتفكير الانساني . واذا قلنا ايضا انه كان للشريف الرضى إلى جانب والده شقيق من أئمة العلم واللغة . واذا اعتبرنا ايضا انه كان للتعلم في ذلك الوقت مكانة سامية ، لعرفنا لماذا اقبل الشريف الرضي على العلوم والأدب يغترف منها اغترافاً ، ثم يجادل ويناقش ويؤلف ، ومن تآليفه ، كتاب مجازات الآثار النبوية ، وكتاب ، تلخيص البيان عن مجازات القرآن ، وكتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وكتاب اخبار قضاة بغداد ، وكتاب الخصائص ، ومنهم من يعتقد ان نهج البلاغة من وضع الشريف الرضي ، ولنا عودة إلى الحديث عن نهج البلاغة . وهذا الحديث رهن بتوضيح حالة العصر ومشاكله المذهبية .

ان تآليف الشريف تدل دلالة واضحة على سعة اطلاعه ، وتبصره بالفنون الأدبية ، والشريف لم تقتصر معرفته على الجوانب الجادة الصارمة من الأدب ، بل زاد من ثقافته في إطلاعه على الشعر الماجن ، ومعرفته اساليب اهل الهوى والحب . وهو الشاب صاحب العاطفة المتفتحة ، والوجدان الملتهب ، وما دمنا

قد ذكرنا الوجدان فسنجد لدى الشريف ذخيرة قيمة من الشعر الوجداني.

لم يقنع الشريف بدراسة الأدب في الكتب ، بل درس الحياة عن كثب . فعرف اخيار الناس واشرارهم ، وعرف اصحاب المرتبات السامية ، واهل الامكنة الوضيعة .

اذن لم يكن الشريف كالمعري . ولكنه كان كالمتنبي في معاشرة الناس ، ويزيد عنه في ان المتنبي صرف دهره وفنه من اجل فنون محدودة. او بمعنى اوضح ، لقد كانت في حياته وشعره الصرامة التي لم تسمح لنسمة واحدة تعطر هذه الصراحة القوية التي امتاز بها شعره . اما الشريف فقد عمل لعظائم الآمال ، كما ذاق مر الحياة ، و اعطى نصيباً كبيراً من وقته وفنه لقلبه ووجدانه .

وبين هذين العاملين عاش الشريف معظم ايامه محاولاً ان يوفق بينهما. انهما العقل والقلب ، المجد والحب ، لم ينتصر احدهما على الآخر ، فلم يكن لينسى عقله وهو في طريقه ملبياً نداء قلبه ، ولم يتجاهل امر قلبه وهو في طريقه لتلبية نداء واجبه وعقله . لذا كان الشريف والحالة هذه من فحول الرجال ، واعظم الشعراء ، وانقى اهل الوجدان .

قلنا سابقاً ان عصر الشريف كان عصر القلم ، القلم الذي كانت له المنزلة السامية ، القلم الذي احترمه الشريف ومجّده في اكثر من مكان في شعره ، فلنسمع الشريف يمدح الصاحب بن عباد ولم يجد احسن من القلم لتمجيد صاحبه .

لك القلم الماضي الذي قرنته ... بجري العوالي كان أجرى وأجودهم.

وفي مكان آخر يمجد القلم بقوله :

له قلم ان جرى غربُهُ ... أمنّا القنا وخشينا البراعا.

ان احترام الشريف للقلم يعتمد على ما كان للقلم من تأثير في علاقات الناس ، ثم اعجاب شديد . وبعد ، ألا يحق للأديب الشاعر ان يعجب بالقلم وهو يشاهد ما للقلم من مكانة سامية ؟ ثم هذه المعاني الجميلة التي يسطرها القلم . انه يبعث الحياة ، حياة المعاني والكلمات ، حياة الأدب . ولقد كرس الشريف عبقريته للغوص على كرائم المعاني وطريفها ، ثم الالفاظ العذبة السهلة . ومن تجيد الشريف للقلم تجيده لأدبه واحترامه لفضائله اذ جعلها ذات مرتبة فريدة ، ومن ذلك قوله :

منحتك من منطقي تحفةً رأيتُ بها فرحةً تُستلَبُ

ارأيت اليه انه يعتبر قصيدته تحفة ، ويمنحها كهدية ثمينة ، ولها ولا شك في نفس الرجل مكانة محترمة .

بقيت كيف كان الشريف رجلا مثقفاً وهذه الثقافة العالية يضاف اليها امر نسبه ومكانته التي جعلته يندفع نحو اهل العلم والادب من اهل زمانه ، فيصادقهم ويخلص لهم الود .

والشريف رجل مخلص اذا صادق ، دائم الغضب والنقمة إذا خاصم . واخلاص الشريف للخليفة العباسي المطائع مضرب الأمثال وان حاول البعض ان يشوه هذا الاخلاص والصدق في العاطفة ، معتمدين في ذلك على الحادثة التي رقمت للمطائع ، والتي تشبه إلى حدما ، ما وقع للمتوكل عندما كان البحتري في ديوانه ، وكيف دخل بهاء الدولة عليه ، ومعه جمع من رجاله الاشداء وعندما قبل الارض بين يديه جلس على كرسي ، ثم دخل بعض من رجاله يتظاهرون بتقبيل يديه ، فجذبوا الخليفة بحمائل سيفه ، ثم القوا به إلى الارض ، وكان الشريف في هذه الاثناء جالساً فلم يدافع عنه ولم ينجده بل توارى عن الانظار . لا اريد ان ابرر موقف الشريف الرضي في هذه الحادثة ولكنني اعتقد ان مساعدة الشريف للخليفة كان يعرفها الشريف من ضروب

الجنون ، فبذا فضل ان يتوارى لانه كان يدرك تمام الادراك ان كل جهد يبذله مع هؤلاء القساة ان هو إلا ليزيد الامر عسرا ، ولكن صدق العاطفة يبرز في ما قاله الشريف في الطائع قبل هذه الحادثة ، ثم بعدها. ولم يكن للشريف ان يأتي على ذكر هذه الحادثة ويعتذر عن تقصيره لانه كان يدرك كما ذكرنا بأنه لا فائدة من المساعدة والنجدة . واذا عرفنا ان الشريف كان مرتبطاً مع الناس ، ومسؤولاً عن فئة خاصة منهم ، لتبين لنا ان تفكير الشريف كان بعيداً جداً ان الضرر الذي سيلحق به سوف لا يقتصر عليه بل سوف يلحق بأهله وعشيرته وجماعته . وفي هذه الحادثة يقول الشريف بعد ان مضى الزمن عليها.

ومن نجاتي يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخل من حزم ينجيني

مرقت منها مروق النجم منكدراً ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني

وكنت أول طلاع ثنيتها ... ومن ورائي شر غير مأمون

من بعد ما كان رب الملك مبتسماً ... إلي أدنوه في النحوى ويدنيني

إلى ان يقول :

هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد صل ولاج ابواب السلاطين

اذن ، فهو خائف ، ترى هل استمر هذا الخوف ؟ وهل كره حقاً ابواب السلاطين ؟ ستتبين ذلك قريباً ..

قلت ان الشريف مدح الطائع وسأثبت هنا بعض الأمثلة في مدحه له قبل موته وبعده . يمدح الطائع قبل موته فيقول .

ارجوك للأمر الخطير وإنما ... يرجى المعظم للعظيم المعضل

ثم في قصيدة اخرى

وكم لك من غرام بالمعالي وهم في الاماني وارتياح

ثم ايضا

هذي الخلافة في يديك زمامها وسواك يخبط قعسر ليل أليل

وغيرها :

يلقى الخطوب ووجهه طلق ويخوضهن وقلبه جذل

هذه امثلة من قصائد فاها الشريف والطائع يتربع على كرسي الخلافة . واليك امثلة اخرى من القصائد التي فاها الشريف في الطائع وهو خليفة مخلوع يعيش في زوايا النسيان والاهمال :

إن كان ذاك الطود خرّ فبعد ما استعلى طويلا

ثم يقول في مكان آخر

فاتني منك انتصار بيميني فتلافيت انتصاراً بمقالي .

وما دمنا في الحديث عن اخلاق الشريف واخلاصه ، فلا بد ان نذكر هنا اخلاص الشريف لصديقه الودود المعروف بأبي اسحاق الصابي الذي كان صديقاً لوالد الشريف . والذي انتقلت صداقته من الاب إلى الابن ، فاذا بها صداقة متينة . ولقد كان الصابي من الادباء المعروفين ، ورئيس كتبة لدى الخليفة المطيع لله ، وكان قد نكل به عضد الدولة ابان تنكيله عندما مكنته الفرصة من ذلك ، ويضاف إلى صداقة الشريف للصابي امر ميولها المشتركة في الادب والشعر والبيان . وكان الصابي من اكثر الناس تشجيعاً للشريف فيما يتعلق بالخلافة . لذا احبه الشريف واخلص له الود ، ولقد مدح الصابي الشريف ايضاً مدحاً خالصاً يبرهن عن احترام وتقدير :

أبا حسن لي في الرجال فراسة تعودت منها ان تقول فتصدقا

وقد خبرني عنك أنك ماجد ستترقى من العلياء ابعد مرتقى

ولقد قدر الشريف للرجل هذا الاحترام وهذه البشائر الطيبة فوعده بأن يشركه في هذا المجد الذي ينتظره عندما اجابه على هذه القصيدة .

فان راشني دهري اكن لك بازيا يسرك محصوراً ويرضيك مطلقا

اشاطرك العز الذي أستفيده بصفقة راض أن غنيت وأملقا

ولقد خص الشريف الصابي بعاطفته ووجدانه عندما قال :

كم ذميل اليكم ووجيف (١) وصدود عنالكم وصدوف

ومرام بكم لوان غراما جر نفعاً للواجد المشغوف

حتى عندما اشتدت العلة بالصابي اثناء مرضه ، وابتلي بالمصائب والأوجاع كان الشريف دائم التفكير به ، دائم العطف عليه ، وهذه الابيات القصيرة تبين لنا مدى العاطفة الصحيحة والود الحقيقي :

ولو أن لي يوماً على الدهر إمرة وكانت لي العدوى على الحدثان

خلعت على عطفيك برد شبيبتي جواداً بعمري واقتبال زماني

وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي وإن قل من غربي وغض عناني

حتى انه عندما مات الصابي رثاه الشريف بقصيدة من عيون الشعر الرثائي :

ارأيت من حملوا على الاعواد ارأيت كيف خبا ضياء النادي

جبل هوى لو خر في البحر اغتدى من وقعه متتابع الازباد

ما كنت اعلم قبل دفنك في الثرى ان الثرى يعلو على الاطواد

لا ينفذ الدمع الذي يبكى به ان القلوب له من الأمداد

(١) الذميل والوجيف — من ضروب السير

قد كنت اهوى أن اشاطرك الردى لكن اراد الله غير مرادي
يا ليت اني ما اقتنيتك صاحبا كم قنية جلبت أسى لفؤادي .

ارأيت الى هذا الرثاء الرائع ، وهذا التفجع الجميل ، وما دام حديثنا يتعلق بالرثاء عند الشريف فلنرى كيف رثى الشريف والده ذلك الرثاء المهيب ، الذي يمثل صدق العاطفة والرجولة ، هو يريد ان يبكي لكنه يعلم ان البكاء لا نفع منه ، هو يريد ان يقول ، إلا ان المقال لا رجاء فيه ، فهو يطوي اذن حزنه بين جوانحه ، ويصبر ، وليس كالرجال يعرفون سر الصبر ، ويطيقون احتماله :

ابكيك لو نفع الغليل بكائي واقول لو ذهب المقال بدائي
واعوذ بالصبر الجميل تعزيةً لو كان بالصبر الجميل عزائي .

الواقع ان الشريف عاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس ، هم المطيع لله ، والطائع لله ، والقادر بالله ، اما عهد المطيع فأننا لا نستطيع القول ان الشريف فكر بالخلافة في تلك الاثناء لانه كان لا يزال صبياً .

ننتقل إلى عصر المطيع لله ، وفي هذا العصر ايضا لا يمكننا ان نتصور الشريف يعمل ضد صديقه الطائع ، لأنه كما تقدم كان يجمل له الود والصداقة . والحقيقة ان الشريف الرضي كان يسعى دائماً إلى عظائم الامور . وهو ان أخذ بالمثال ، وليس نشاء قلبه فانه لم يكن ينسى مجده ومطالب نفسه ، انه رجل يسعى إلى هدف في الحياة ، وان استظل وقتاً ، او بضع وقت شجرة انقاء هجير الصحراء في ذلك الا ليجمع قواه من جديد نحو صراع اطول ، ومجد اعظم . ومن ذلك قوله :

متى أرى البيض وقد أمطرت سيل دم ينساب سيل البطاح
توارثوا الملك ولو انجبوا لورثوه عن طعان الرماح

ثم يقال الشريف هذا في زمن الطائع ، ومع اني لا انكر ان الشريف كان يحاول استغلال جميع الظروف كي يصل الى غرضه . إلا ان عصر الطائع لم يكن ليسمح للشريف ببدا التفكير بضاف اليها امر حداثة سنه ، ثم يجب أن لا ننسى ان امويه لم تكن قد سويت عاماً فما يتعلق بأملاك والده . فكيف يمكن لرجل فقير ان يفكر بانقلاب سياسي ! وان يطمح إلى مركز هام . وهو يدرك ما هو فيه من الضيق . ثم يجب ان لا ننسى ايضا ان الديلم والاتراك كانوا ينصبون من يشاؤون من بني العباس في كرسي الخلافة ، والشريف لم يكن يريدان يكون خليفة فالعوبة بين يدي الديلم والترك ، انه يبغي انتزاع الخلافة انتزاعاً . وحتى حين خلع الطائع كان الشريف يحترمه ويقدره . اذن ، لم يبق الا عهد القادر بالله وهو العهد الذي فكر فيه الشريف تفكيراً جدياً بالخلافة ، وهو وان استقبل الخليفة الجديد بالترحاب.

مجدٌ أمير المؤمنين ، أعدته غضّاً كنور المؤرق المياسِ
بعثتَ في قلب الخلافة فرحةً دخلتْ على الخلفاء في الأرماس

إلا انه يعود ويخاطبه بالقصيدة التي مطلعها : لمن الخدوج تزعن الأينق . الى ان يصل ليقول :

إلا الخلافة مزتك فاني أنا عاطل عنها وانت مطوّق.

وقال القادر عندئذ : على رغم أنف الشريف

يمكننا بعد هذا التوضيح ان ندرك ان الشريف كان يفكر بأمر الخلافة في عهد القادر بالله . ففي ذلك الوقت انصرف الشريف الى امر نفسه يتدبرها مع الملوك ، والوزراء ، والامراء . وهو يدرك تمام الادراك ان هؤلاء الكلمة التي تسمع والرأي الذي يرجح . وبما ان الشريف كان رجلا سياسياً او بمعنى اوضح كان يريد ان يكون له رأياً في المعضلات السياسية الدائرة في ذلك الوقت ، فلذلك كان على صلة دائمة بالملوك والامراء والقواد ، يمدح هذا ويجل ذاك . وهنالك ناحية لا بد ان أجس الشريف من اجلها فيما أجل ، وهي موضوع حبه لوطنه وحدبه عليه ، واجلاله لمن ينفعه ، كما انه كان من جهة اخرى كما ذكرت يهوى المجد ، ويفكر بغده . فلذا فكر ان يتزوج زواجاً سياسياً كما يتزوج اليوم الملوك والرؤساء من بعضهم البعض ، بغية توطيد اواصر الصداقة والعلاقات ، ولقد اسف الرضي كل الاسف عندما فشل هذا الزواج .

أمانيُّ نفس ما تُناخ ركابها وغيبة حظ لا يُرَجَّى إيابها

وهو يعني بذلك عدم عقد هذه المصاهرة او الصفقة . أما ماذا استفاد الشريف من صحبته للأمراء والملوك والوزراء ؟ لقد استطاع ان يحافظ على منصب والده في ان يكون امير الحج ، والصلة بين اهل الشام والعراق والحجاز وفارس ، لان الشريف ورث فيما ورث عن والده صداقة القبائل المرابطة في الصحاري والقفار طوال طريق الحج .

واكثر الملوك الذين كان الشريف على صلة بهم هو بهاء الدولة الذي مدحه بكرام القصائد ، والتي لم تكن للتزلف والكسب ، بل كانت سجلا للاخلاق ، وتصويراً للرجولة . الم نقل ان الشريف كان رجلا ، والرجل يحب فضائل الرجولة ، ويبتهج بها ، ويقدر من يتحلى بفضائلها .

يا قوام الدين والفا ... رج للدين مضيعه
أنت راعيه وهاديه ... اذا ضل طريقه

ويقول في مكان آخر

لا زعزعتك الخطوب يا جبلُ ... وبالعدا بل لا بك العلل
قد يوعك الليث لا لذلته ... على الليالي ويسلم الوعلُ

وبقي خصائل بناه الدولة مكانتها في نفس الشريف حتى بعد موته حيث رثاه الشريف قائلا :

رزيئةٌ لم تدع شمساً ولا قمراً ... ولا غماماً ولا نجماً ولا فلكا

الى ان يقول :

لا تبصر الدهر بعد اليوم مبتسماً ... ان الليالي أنست بعده الضحكا.

قلت ان الشريف كان امير الحج ، ولأمارة الحج في حياة الشريف وقعه وشعره اثراً . بل آثاراً خلدت تلك العبقرية ، وذلك الذوق الفني الخالص ، وكان الشريف ، قد صرف الخواطر التي تتعلق بالخلافة من خاطره بعد ان ادرك انه لا يمكنه بلوغها وانه وان بلغها فسوف لا يسعد على كرسي الخلافة في خضم هذا المعترك السياسي الدنس ، اذن لينصرف الى ما هو اجدى وانفع .

وهكذا انطلق الشريف الى شأن حياته ، وكان كما نعلم قد فتح مكتبة او مدرسة سماها « دار العلم » وفدت عليها الطلاب للدرس والاطلاع ، فكان الشريف واحالة هذه كما تقدم ايضا مصلحاً اجتماعياً ، وداعية من دعاة انتشار الادب وازدهار المعرفة .

ومواسم الحج ابادي بيضاء على الشعر العربي ، ففي هذه المواسم غرد الشريف اجمل الأغاني ، ولحن اعذب الالحان . اذ ان لشهوده موسم

الاعياد والحاجات الحسان من شآميات ، ومغربيات ، وعراقيات ، وحجازيات ، يؤدين فريضة الحج ، وهن يرفلن بأثواب الغوى والشباب ، ثم يطفن حول الكعبة ، او في ذهابهن إلى رمل الحجارة بأنامل رخصة ، تلك الأنامل التي داعبت أوتار قلبه الحساسة ، وبعثت النشوة في نفسه ، واطلقت شياطين الشعر في اودية العبقرية ، فترنم «بالحجازيات» التي أضحت مضرب الامثال فيقولون : لا تعقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت : وخمريات أبي نواس ، وزهديات أبي العتاهية ، وتشبيهات ابن المعتز ، ومدائح البحتري ، وحجازيات الشريف الرضي »

اذن فحجازيات الشريف الرضي تمثل لوناً زاهياً من الوان الأدب العربي ، وهي في الوقت نفسه تعيد إلى الاذهان ، تلك الاناشيد التي اطلقها قبله شاعر هنالك في فيافي الحجاز ، وبطاح مكة ، يستقبل القادمات من مختلف الاقطار الاسلامية فرحاً جذلاً . ثم يودعهن بعد أمد وهو على امل بلقاء ثان ، قد يتم وقد لا يتم ، يذكرنا بعمر ابن ابي ربيعة ، بصاحب الاغاريد العذبة . ولقد احيا الشريف عهد عمر بل زاد عليه الواناً لم تكن معروفة ، ولم يكن عمر قد توصل اليها ، فحجازيات الشريف وغرامياته تقطر لوعة ، وتذوب صبابة ، يترنم المتيمون بها ، ويعتقد كل منهم ان ، الشريف يصور عواطفه ، ويتحدث بلسانه ، ويشعر بقلبه ، واذا اعتبرنا ان الشريف كان نقيب الطالبيين ، وكان امير الحاج ، وكان الطامح إلى مقام الخلافة ، لتبين لنا جرأة الشريف . في عصر اوشك ان يشمله الجمود ، وان يسيطر عليه التزمت . وفي نظري ان هذا الواقع الاجتماعي والديني في حياة الشريف هو الذي حرض ودفع به الى ان يفرد اناشيد الغوى والصبابة ، والعفاف والجمال ، اذ لو كان الشريف كالنواسي مثلا ، مطلق الحرية والتصرف لما ترك بعده هذا التراث

الأدبي الشعري العفيف الرائع ، او لكان كأحد اولئك الشعراء الذين كانت تزخر بهم ارض العراق ، امثال السلامي الذي فتن اهل العراق ببطرافة شعره وجنونه .

وفيهن سَكرَى اللحظ سُكرَى من الصبا

تعاتب حلوَ اللفظ حلو الشمائلِ

ثم ابن نباته السعدي ، ثم السري للرفاء ، ثم اعقب ذلك شاعران مجيدان هما ابن حجاج وابن سكرة ، اللذان وافقت اشعارهما اذواق اهل زمانها ، ولنستمع الى هذين البيتين من الشعر لأبن سكره الذين اسكرا اهل بغداد وفتنا الراي العام :

ويوم لا يقاس إليه يوم يلوح ضياؤه من غير نار

أقمنا فيه لـلذات سُوقاً نبيع العقل فيها بالعُقار.

هذا إلى جانب اشعار العباسي وبشار وغيرهما من اهل المجون . ثم يجب ان لا ننسى ايضاً ان عصر المتنبي الادبي كان لا يزال مزدهراً والاعجاب به في ازدياد . رغم انه مات منذ امد طويل . والشريف الرضي لم يكن يحب المتنبي بل كان يحقد عليه ويعتقد انه هو احق ببذه الشهرة منه ، لما في شعره من جمال وروعة لها روعة شعر المتنبي وقوته ، إن لم تكن تفوقه ، ثم يجب ان لا ننسى ايضا أن من الاسباب التي جعلت الناس يلهجون بذكر المتنبي ويتغنون بشعره هو سبب مذهبي بحت . فلقد كان المتنبي سنياً وكان الشريف طالبياً علوياً ، وحتى ذلك الوقت لم يكن عامة الناس وهم الذين سمعوا وعرفوا الحوادث الجسيمة التي تعاقبت على الاسلام من جراء هذا التطاحن الديني ، والعداء المذهبي . لم يكن لهم ان ينتازلوا عن

عصبيتهم ، فاذا بقيت مكانة المتنبي متينة ، وهـذا ما سنتحدث عنه ايضاً في حديثنا عن نهج البلاغة .

نريد من هذا ان نبرهن ان العصر الذي عـاش فيه الشريف كان عصراً اديباً زاهيـا ، اما القيم الاجتماعية فقد كانت هزيلة . فلذا قدر الشعراء الذين انسجم انتاجهم مع ما في النفوس من ضعف وانحلال . فما رأيك في شاعر حفظ شعره وقدر في عصره بدعر الانطاكي من قوله ؟ :

أستغفرُ الله من عقل نطقتُ بـهِ

مالي وللعقل ؟ ليس العقل من شأني !

هل من الممكن ان يتحدر الشريف إلى هذه المرتبة ، ويكون من هذه الطبقة الماجنة من الشعراء ؟ كلا ان يكون ذلك . بل سيكون الشاعر الذي يقول :

تضاجعني الحسناء والسيف دونها

ضجيعـان لي والسيف ادناهما مني

وفي مكان آخر :

لولا هواك لما ذللت وإنمـا عزي يعيرني بذل فؤادي

هل تنتظر من هذا الرجل الشريف ان يكون ماجناً ؟ ان يذل فؤاده في سبيل مجده وعزه ؟

الواقـع ان الصراع بين القلب والعقل قـد بلغ اشده في نفس الشريف ، انه يرغب ، ويحب ، ويريد ، ويعشق . ولكنه مع كل هذا في اضطرار نكي يعف ويتمسك باهـداب العقل والفضيلة ، وهناك ميزة خـاصة في شـعر الشريف وغرامياتـه ، وحجازياته .

لم يكن الشريف كما بينا من اولئك الشعراء المتماجنين ، كان يعيش في بغداد . انه فيما يتعلق بموضوع قلبه ، وشعره ، كان شعر سكان البادية ، ان شعر العفاف والتقى ، الا يمكننا ان نترفع بالوجد والصبابة عن الجون والعيث التي بشرت بها مدرسة النواسي ؟ اجل ، يمكننا ذلك . ولقد جسد الشريف هذه الحقيقة النبيلة .

قلت ان شعر الشريف شعر بداوة. وازيد على ذلك ان من اهم ميزات شعر البداوة ، ابتعاده عن الاسفاف والتذلل ، وهذا ما نلمسه في شعر الشريف . ولكن الشريف البغدادي كان ينسى بدويته في بعض الاحيان ، ويندمج في هذا الجو الحافل الذي يعيش فيه . إنه نداء القلب ، ونداء العاطفية ، وهل يجرم الشريف اذا طلق تعففه وعقله وقتاً قصيراً ؟ واذا نظر الى الحياة بنظار الرجل الشاعر ، الفنان . ونحن نرى اليوم الملوك يتنازلون عن عروشهم ، والقواد يهملون امور جيشهم من اجل ثغر صغير ، وعيون نجلاء وجيد اتلع .

ولم ار كالعيون ظبا سيوف ارقن دماً وما رمن الجفونا

ثم

وليلة وصل بات منجز وعده حبيبي فيها بعد طول مطال
شفيت بها قلباً اطيل غليله زماناً فكانت ليلة بليالي
فيا زائراً لو أستضيع فديته بأهلي على عز القبيل ومالي

انا اعذر الشريف وهو يذكر لياليه . فهل انت تعذره ؟

قلت ان شعر الشريف مثل العفاف والنبل وسأرحل بك الى بطاح مكة حيث نلتقي هناك بأمير الحج يجد مواسم العيون ،

ويعني عودة هـذه المواسم ، انه رجل قبل ان يكون شاعراً ، وانه شاعر قبل ان يكون امير حج ، ونقيب اشراف . انـه يعشق الحسن ، ويهوى الجمال ، ويجد الملاحة ، واي انسان حساس لا يهوى الجمال ويسبح له ، فكيف اذن بالشريف ؟

سوف لا يفلت الشريف ابداً ، مع كل هـذا ، من رباط عقله ، فهو وان كان يهوى العناق ، ويدرك لذته لا بـد له من ان ينبه نفسه إلى انها تمادت في خيالها وفي تمنياتها ، انه يشقى في هذا النعيم ، يرى الجمال امامه ، والنعيم بين يديه ، ولكنه لا يقدم . ترى ايكون الشريف الرضي اكثر تعففاً من آدم في هذا السبيل ، ان آدم نفسه لم يقدر ان يصمد امام الاغراء ، فهبط الى الارض من الجنة ، اما الشريف ترى هل يهبط من مكانته في عالم النبل والعفاف الى مصاف المجان والعابثين .

قلت ما معناه ان مطالب الشريف ، ومكانته الاجتماعية والادبية لم تسمح له بالتبذل والاسراف في الغزل الماجن ، والقول العابث ، وهنالك عامل قوي جعل الشريف يترفع بأدبه وشعره عن ما وصل اليه النواسي وغيره من شعراء الغزل والمجون في العراق ، وفي غيرها من العـالم الاسلامي ، ما هو هذا العامل ؟ نعود مرة اخرى الى موضوع البيئة ، فالبيئة تكيف الشخص في اكثر الاحيان فاذا كانت بيئة وضيعة دفعت بصاحبها الى الفجور ، والاسفاف ، والابتذال . واذا كانت بيئة مثقفة ، كريمة ، نبيلة ، جادة ، فلا بد لها ان ترفع صاحبها الى الجودة والعفة والانتقاء ، وتفهم الجمال النبيل الهادىء ، وهذا ما حصل فعلا لصاحبنا الشريف .

لم يعرف الشريف الحانات الرخيصة ، والمواخير في بغداد ولكنه كان دائم الصلات بالعائلات الكريمة الراقية ، فلذا ارتفع بشعره

عن بيئة الحانات ، والمجالس الماجنة ، وكانت علاقاته مع هذه العائلات الراقية علاقات كريمة طيبة ، وانا لا انكر ان الشريف وجد الحسن الجلال ، والجمال الشامخ ، في مثل تلك البيوتات ، والعراق معروف عن نسائه : بالقدود الهيفاء ، والعيون السوداء ، التي تهز مشاعر النفوس ، وتحرك لواعج القلوب . ولا شك ان الشريف قد هزته النشوة وهو ينتقل من دار الى دار ، كما تنتقل النحلة من زهرة الى زهرة ، ولكن حاله لم تكن كحال النحلة ، فانتقاله من رؤية حسناء ، الى الاجتماع باخرى ، كانت علاقة بريئة عفيفة ، وفي نظري ان مثل هذه العلاقات الادبية تصقل انتاج الشاعر ، وتشحذ عبقريته لارضاء هذا العالم المثقف الذي هو احد ركائزه ، وفي نظري ايضا ان هذا الكرم وهذه العلاقات البريئة تترك النفس وقد ترفعت عن حقير المطالب ، وصغار الرغائب .

والشريف سيبقى دائماً في غراميانه بصورة عامة ، هذا الرجل الكريم ، الذي يمثل بيئته النبيلة خير تمثيل . انه لم يسف ، ولن يسف ، حسبه ان تصبح اناشيده حديث المجتمعات المحترمة الراقية على ان تضيع اشعاره بين كؤوس السكارى وعربدتهم .

وما ينطبق على غراميات الشريف بصورة عامة ينطبق ايضاً على حجازياته بصفة خاصة ، فمواسم الحج لم يكن فيها اي مكان للفاجرات المتبذلات ، ولكنها كانت وقفاً على الحرائر ، والنساء الكريمات ، اللواتي تسمح لهن حالتهن المادية والاجتماعية بتأدية فريضة الحج .

وفي نظري واعتقادي ان نظرة العذراء الخجولة الحيية لها في النفس الف معنى ، ولها في القلب اكثر من رجفة ، وانها افضل بكثير من نظرات النساء الخليعات المتبذلات ، اللواتي عرفن الحب وصالا حيوانياً ، ومتعة مستعجلة ، ولقد ادرك الشريف كل هذا وعرف ان ليس مقام الجمال بين الوحول والاقذار

ولكنه كزهرات الاقحوان في اعالي الجبال تعيش بين الثلوج الناصعة .

ولنسمع الشريف يتغنى بهذه الرنبقة الطاهرة مثلا من امثال غرامياته وعفافه . بل في هذه الظبية النجلاء العيون التي يخشى الشاعر ان يدنس حرمها ان هو فكر بأفكار تهدف للدنيس ، واذ هاجه الشوق فحسبه ان يخاصرها ، ولكنه يتركها ولم يتجاوز هذه المخاصرة العفيفة .

وفي الخباء الذي هام الفؤاد به ... نجلاء من اعين الغزلان لا البقر

ابرزتها فتخاصرنا مباعدة ... عن الخيام نعفى الخطو بالازر

ثم انثنيت ولم ادنس سوى عبق ... على جنوبي لربا بردها العطر

ثم لنتصور هذا الفتى ، المحب ، هذا البدوي الذي يذكرنا بجميل ، وقيس وغيرهم من عشاق البادية :

وكم ليلة بتنا على غير ريبة ... علينا عيون للنهى ومسامع

نقض حديثاً عن ختام مودة ... معاقلها أحشاؤنا والاضالع

يكاد غريب الليل عنه حديثنا ... يطير ارتياحاً وهو في الوكر واقع

خلونا فكانت عفة لا تعفف ... وقد رفعت في الحي عنا الموانع

سلوا مضجعي عني وعنها فانثنا ... رضينا بما يخبرن عنا المضاجع .

وحجازيات الشريف . زاخرة بهذه المواقف ، فالشريف في حجازياته ، دائم التجدد ، وان انت رافقت الشريف في هذه القصائد التي تبلغ الاربعين لوجدت في كل واحدة معناً جديداً من معاني الغزل الرفيع ، والشعر العفيف ، والاناشيد النبيلة . ان الشريف سطر الحب شريعة ، ولكنها شريعة جميلة فيها العدل ، وفيها الظلم ، وفيها الحرمان ، وفيها العطاء ، انها شريعة الحياة .

ولا يمكنني هنا ايضا إلا ان اشير الى العواصف التي احاطت بالحجازيات ، واذا قلنا ان الحجازيات اطلقها الشريف في ديار الحجاز ، ديار النبوة . وفي موسم الحج ، وهو الموسم الذي تسعى فيه جماعات المؤمنين الى مكة خاشعة خاضعة ، تاركة وراءها زخرف الدنيا ، ومطامح النفوس ، وملبية نداء قلوبها في طريقها الى الاماكن الشريفة المكرمة ، انما تسعى الى الله ، ففي هذا الجو الروحاني الطاهر ، نرى الشريف الرضي امير الحج والذي كان مثالا للمنهاج في الورع والتقى ، وحفظ هذه المرحلة الوجدانية الرائعة من ان يشوبها شوائب من المجون او التشبيب ، او اللهو والعبث . فاذا به يقطع هذه الايام الوجدانية في التسبيح والتكبير والتهليل ، مسبحا شاكرا حامدا لله روعة خلقه ، وجمال ابداعه في هذه الحسان الخاجات الساعيات مجدا روعة هذا الجمال الذي يسعى بين مناسك الحج حيث يرفلن باثواب الهوى ويسجن في امواج من العطر

ان جرأة الشريف في هذه المواقف عظيمة ، واني اعتبر الشريف ثائرا في هذه الميادين . لقد ثار على العرف والتقاليد . فالشريف الذي ادخل على موسم الحج ، هذا اللون الطريف ، كان مغامرا وكان شجاعا في ان يغني هوى قلبه ، في مثل تلك الاماكن المكرمة . ان فؤاد الشريف لن يكون اسير التقاليد ، وان لسان الشريف سيردد هذه المشاعر ، وليكن ما يكون . سيتهم نفسه بالعبودية ، فهو عبد من عباد العيون والنحور والخدود والقدود ، وليس هو باكثر من شعر يشعر فينطلق شعره عذبا طريفا جريئا . مع هذا لا بد ان نذكر ايضا ان الشريف في كل هذا كان اديبا ، وكان مثالا للادب والذوق فلم يسف ولم يتبذل ، ولم يعبث ، لقد كان عليه ان لا يسيء لشاعره ، وفؤاده ان تشوه هذه المواسم الكريمة ، بسفيه الكلام . ومتى كان الشريف سفيها مبتذلا . ؟ لا

لم يكن ، وان يكون ابداً . انه فنان يصور لوحات خالدة ، فيها عظمة الفن ، وروعة الذوق ، اوليست أمكنة اللوحات الفنية في صدر المجتمعات ، ومقام العظماء . ألا نشاهد عند دخولنا الكنائس والمتاحف لوحات تنطق بالفخر والروعة في كل لمحة من ملامحها ؟ وانا اعتبر ان اللوحات الرائعة لها تأثير سحري . ألا تنتقل وانت تنظر الى لوحة جميلة ، ألا تنتقل الى عالم ملي ، بالمشاعر والاحاسيس ؟ هكذا كانت اشعار الشريف وقصائده ، انها لوحات فنية ترسخ في قلوب الناس ، وتنقلهم الى عالم من المشاعر والاحاسيس كما تنقلنا اللوحات الرائعة المعلقة في جدران المعابد والمعارض ، الى اجواء من التأمل والالهام . هكذا فهمت الشريف ، وارجو ان اكون قد احسنت فهمه . ليس من شك ان هنالك من ينكر على الشريف هذا . فلكل رأيه ، ولكنني لم اجد في قصائده ابتذالا ، ولا فجورا ، بل وجدت نبلا وعفافاً . اظنني اطلت في هذا والآن سأنتقل الى الاستشهاد ببعض هذه الاشعار العذبة الوجدانية ، لنعيش روحاً مع الشريف في الايام الممتعة ، ولنلتمس هذا الشوق الذي قد يعود ، وقد لا يعود . فمن يضمن له ان يعود ذلك الوجه الجميل ، وتلك العيون النجلاء ، هل تعود الحسناء التي قصدت مكة لاداء فريضة الحج ، انها اتت من المغرب او من العراق ، او من مصر ، هل تراها تعود ؟ وهل يجود الزمان ان يجدت هي فيعود هو ايضاً ، قد يجود الزمان وقد لا يجود . اذن فما عليه الا ان يخلد هذه الايام ، وهذه الفتيات المختلسة من العمر ، ولتكن سجلا لقلبه . وقلوب الشعراء غريبة الاطوار . ومع غرابة اطوارها فليس مثلها تحس الجمال ، وتجد الحسن ، والدلال ، والغوى .

اذن فالشريف يصرف يومه ويعيش هذا اليوم ، وليس المستقبل حساب في عالم قلبه :

فواهاً كيف تجمعنا الليالي وآهاً من تفرقنا وآها

هذه الحسرات على لقاء قد يكون وقد يكون ، جعل الشريف يخلد بخاطره ، اما الغد فيتركه الى المستقبل ، ومن يدري ما يحمل المستقبل وما يضمر لنا من احداث وحوادث . اذن فلينشد الشريف ، ليغني غزلا فيه عفة ، وفيه حياء ، اطلقته العاطفة الصافية الدافقة ، انه يشكو ، ولكن ، شكاء السيد لا يذل ولا يلين ولا يستعطف :

يا ظبية البان ترعى في خمائله ... ليهنك اليوم ان القلب مرعاك

الماء عندك مبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمعي الباكي

هبت لنا من رياح الغور رائحة ... بعد الرقاد عرفناها بريّاك

انت النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أمرك في قلبي وأحلاك

عندي رسائل شوق لست اذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

نمامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علم العين ان القلب يهواك

انظروا الى هذا المكر يقول : من علم العين ان القلب يهواك . لي العذر ان قلت انه ماكر . فليس كجمال مكر الشعراء . انه الروعة ، وانه الكذب الحلال .

وعودة الى الحجازيات :

تذكرت بين المأزمين إلى منى ... غزالا رمى قلبي وراح سليما

لئن كنت استحلي مواقع نبله ... فاني ألاقي غبهن أليما

فلو كان قلبي بارئاً ما ألمته ... ولكن أسقاماً اصبن سقيما

ليس هذا اول حب ، وليست هذه اول قلوبه يراها ، انه يصح فيه قول القائل : تكسرت النصال على النصال . ولكنها نصال مؤلمة ، وألم الشاعر يختلف عن ألم الرجل العادي .

ثم لنحلق مع الشريف في حجازياته ، وكم كنت اود لو يقدر لي ان اعيش مع الشريف في كتاب خاص . استطيع فيه ان اتناول حجازياته واعدد ما في هذه الحجازيات من الاطياب ، ومن العطور ، ومن العيون الدافقة روعة وجمالا وفناً ، واني لفاعل ذلك ان شاء الله في المستقبل . فالحجازيات الشريف في نفسي مكانة سامية . وعودة اخرى إلى الحجازيات :

ايها الرائح المغذ تحمل ... حاجة للمعذب المشتاق
أقر عني السلام أهل المصلى ... فبلاغ السلام بعض التلاقي

وفي القرى يقولون ، المكاتبة تلثا المشاهدة

واذا مررت بالحيف فاشهد ... أن قلبي اليه بالاشواق
واذا ما سئلت عني فقل نضو ... هوى ما أظنه اليوم باقي
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ... ومني عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبل ... أعير الدموع للعشاق

لقد اضاع الشريف قلبه ! فأين يا ترى نجده ؟ كلا ، لم يفقده بل هو يعرفه اين هو ، وانا اعتقد ان الشريف كان يترك في الحجاز قلبه حقيقة ، ايكون الشريف قد احب احدى الحجازيات ؟ ليس هذا بمستبعد .

وقبل ان اختم حديثي عن حجازيات الشريف لا بد ان اصل

الى هذه القصيدة الطريفة ، التي تبين مدى فتنة الشريف بالحج ، وانه كان يرى في الشعائر الدينية ، بعض المعاني التي لا يمكن لغيره ان يراها ، ثم اقل انه شاعر ، والشاعر اكثر احساساً من غيره بل هو جبلة احساس .

ألا يا ليالي الخيف هل يرجع الهوى
ليكن لي لاجازكن نسدى القطر

فيا دين قلبي من ثلاث على م ني مضين ولم يبقين غير جو الذكر
ورامين وهنا بالحجار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر

ماذا كان الشريف يفكر ، وهو يشاهد معاصم الحسان ترمي ابليس بالحجارة ، انه كان يفكر بقلوب المعجبين والمحبين ، ان هذه الحجارة ليست سوى جمرات لاهبة تصوب الى قلوب هؤلاء المعجبين ، واظني ان اكبر جذوة ستكون نصيب قلبه :

رموا لا يبالون الحشا وتروحرا خليين والرامي يصيب ولا يدري
وقالوا غداً ميعادنا النفر من منى وما سرني ان اللقاء مع النفر
ويابؤس للقرب الذي لا نذوقه سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي ان تعط صبراً فانني نزعت يدي اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه فميعاد دمع العين منقلب السفر

لقد صبر الشريف على مصائب الدهر ، هل تراه يصبر على فراق الجمال والأحبة ؟ لن يصبر فسوف يبكي هواه ، ومنى قلبه . فاذا كان الحجاج يودعون الحج بالتكبير والتهليل ، بينما يودع هو هذه الأمكنة بالبكاء

والتحسر ، انه يودع مناسك الحج بالزفرات المتتابعة على ما يفارق من الجمال ، ومن العيون السحرية ، والنحور الفاتنة :

آه من جيد الى الدا ... ر كثير اللفتات

وغرام غير ماض بلقاء غير آت

ثم انظروا هذه الحسرة :

تنادوا بأن الثنائي غداً ... لك السوء من طالع بأغد.

واذا عاد الشاعر الى العراق ، ومضت الايام ، وحان موعد الحج ، ولم يقدر له ان يشترك فيه ، هيج اشجانه رحيل القوم الى ديار الحجاز فوقف يقول في لوعة وحسرة :

اقول لركب رائحين لعلكم ... تحلون من بعدي العقيق اليمانيا

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ... ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا

الى ان يقول :

تودعنا ما بين شكوى وعبرة ... وقد أصبح الركب العراقي غاديا

فلم أر يوم النفر اكثر ضاحكاً ... ولم أر يوم النفر أكثر باكيا.

وما دمت في التحدث عن وجدانيات الشريف ، فلا بد ان اشير الى حادثة وقعت له ، وفيها نلمس صدق الوفاء ، وليس هذا بغريب فالشريف من بيت كريم ، واروعة نبيلة .

أتينا في معرض حديثنا على ذكر الشريف المرتضى شقيق الشريف الرضي ، ولقد كان الشريف المرتضى صاحب الامالي — والعالم المفضل ، والسيد المحترم ، بين ابناء قومه . وتشبه الظروف ، ووشاية الوشاة ، اذ

يوصل هؤلاء الوشاة كلاماً سيئاً عن لسان المرتضى في اغتياب الرجل ، ولنا ان نتصور مبلغ الأفكار التي انتابت الشريف ، وهو يسمع هذا الذي سمع ، انه يعرف ان الأيام كثيرة التقلب ، وانه ابتلي الاصدقاء ، واختبر مقدار حمود الناس للصداقة :

كفى حزناً أني صديق وصادق ومالي من بني الانام صديق

هو يعرف غدر الاصحاب والاصدقاء ويتألم هذا :

تجاذبني يد الايام نفسي ويوشك أن يكون لها الغلاب

وتغدر بي الاقارب والادانى فلا عجب إذا غدر الصحاب

لقد اختبر الشريف الحياة ، وعرف اخلاص الناس ، اما ان يكون هذا الرجل شقيقه فهذا امر اشد غرابة واكثر ألماً . ولقد نظم الشريف في هذه الجفوة القصيدة التي مطلعها :

رضيت من الاحباب دون الذي يرضى

ودانيت من تقضى الديون ولا يقضى

الى ان يقول متحرقاً ، عاتباً :

فعذراً لاعدائي إذا كان أقربي

يشذب من عودي ويمرق من نحضي(١)

إذا ما رمى عرضي القريب بسهمه

عذرت بعيد القوم إما رمى عرضي

---

١ - النحض : اللحم

ولكن هذه الجفوة لم تستمر طويلا اذ سرعان ما عادت المياه الى مجاريها بين الأخوين ، فعاد الرضي يسجل هذا قائلا:

وأعظم ما لاقيت شجواً ولوعة عتاب أخ قلّ الزمان به عدى

لاحظوا معي هذا الود الذي يدوم بالرغم من كل شيء ، ان هذا البيت في نظري وحده قصيدة رائعة من الأدب الوجداني .

منحتك ما عندي من الصد معلناً وعقد ضميري ان ادوم على الود

اما الامر الوجداني الثاني ، فهو مشكلة شبابه ، وبكاؤه هذا الشباب الذي لا يدوم ، والذي يزول بسرعة البرق ، ويخلف بعده اللوعة والحسرة والخوف من مستقبل ظالم لا يرحم . انه واجف القلب ، وهو يرى الشعيرات البيضاء تتسلل الى رأسه ، منذرة اقبال الشيخوخة ، وادبار الشباب . والشريف في ذلك قصائد وجدانية جيدة .

واهاً على عهد الشباب وطيبه والغصن من ورق الشباب الناضر

سبع وعشرون اهتصرن شبيبتي وألنّ عودي للزمان الكاسر

واذا قلنا ان الشريف الرضي عرف الشيب وهو في الثالثة والعشرين من العمر تبين لنا كيف كان شعوره وهو يقول :

راحت تعجب من شيب ألم به وعاذر شيبه النهام والاسف

ولا تزال هموم النفس طارقة رسل البياض الى الفوذين تختلف

وفي ذلك يقول :

لو يفتدي ذاك السواد فديته بسواد عيني بل سواد ضمائري

وها هو الرجل يتحسر هنا .

يا قاتل الله النوائي لقد سقيتني الطرف بعيد الجمام

أعز من غني حين ولى اصيبا واختلج الهم بقايا العزائم

وله في هذا الحقل قصائد جميلة المعنى رائعة البيان .

كنت قد ذكرت في هذا البحث ان لي عودة الى كتاب نهج البلاغة ، وها أنذا اعود اليه راجيا ان اكون قد انصفت هذا التراث الفكري والأدبي الجليل . قبل ان نعطي رأينا في نهج البلاغة ونميز فيما اذا كان منحولا ، او عكس ذلك. لا بد ان نعرفه تعريفا واضحا فهو كتاب يتميز بمباحثه في الله ، وخلق العالم والملائكة والقضاء والقدر وفكرة الوسط والنواحي الاجتماعية ، ثم افكار مختلفة تتصل بالدنيا ، والتجار ، والمرأة وغيرها من المسائل .

ويمكننا ان نوضح هذه المواضيع التي تناولها نهج البلاغة فنقول ايضاً : ان صاحب النهج لم يكن فيلسوفا ، او عالماً ينظر الى الاشياء بنظار المدقق ، ولكنه كان صاحب دائرة معارف دينية واخلاقية وتشريعية وحياتية ، علمته الظروف الصعبة التي رافقت حياته ، وانطقته البلاغة والايمان وحبه للخير والناس ، وساعد على ذلك المثل العليا التي طالما احبها الامام علي ودافع عنها ، ومات في سبيلها . اذن فنهج البلاغة خبرة رجل وعندما نقول رجلا فهذا يعني الرجولة بكامل معانيها السامية ، عرف الحياة واختبر الناس . ورافق اعظم مصلح ، وخير الانبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ ، وهذا يكفيه مكرمة علاوة عما له من المكرمات والفضائل .

اما فيما يتعلق بنهج البلاغة وصحة انتسابه الى الامام فمنهم من ينكر ذلك انكاراً تاماً متذرعين ببعض العبارات الواردة في النهج وخاصة في خطبة الشقشقية ـ مثلا ، لا تصدر عن رجل سبق الناس بالورع والتقوى ، وانما هي عبارات قد املاها الطبع الشاعري ، والتأنق في الاسلوب عند رجل اديب قد استولى على اسلوبه الفني قبل ان تأخذه السياسة والاجتماع والامور الدينية .

ثم يتذرع هؤلاء ايضاً بان اكثر الافكار المبثوثة عنا وهناك في النهج لم

تكن معروفة في زمن الامام ، بل ان اكثرها قريب كل القرب من بعض اراء اليونان وغيرها من الفلسفات والنظريات ، بعدما ترجمت هذه الفلسفات الى العربية . ومثل ذلك ما جاء في خلق العالم ، « ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبلة حتى لزبت ، فجعل منها صورة ذات اعضاء ، ووصول واعضاء وفصول : ثم نفخ فيها من روحه فمثلت انساناً ذا اذهان يجيلها ، وفكر يتصرف بها ، معجوناً بطينة الالوان المختلفة والاشباه المؤتلفة والاضداد والاخلاط المتباينة من الحر والبرد والبلة والجمود »

ويقول اولئك الذين يعتقدون ان نهج البلاغة ليس من تأليف الامام : ان هذه الاراء تذكرنا بالمذاهب الطبيعية اليونانية كمذهب طاليس وغيره القائل : بان الماء هو اصل الوجود . وانكسمندريس القائل (باللامتناهي) وهو عبارة عن مجموعة من الاضداد والاخلاط المتباينة من حر وبرد ورطوبة ويبوسة الخ .. ومن ذلك يقول هؤلاء ان المسلمين لا يقبلون بان يتحدث عن صفات الله او ذاته او من يجرب ان يتفلسف على ذات الله ؛ فكيف اذا كان هذا الرجل هو الامام علي رضي الله عنه . الى غير ذلك من الاراء التي يعتقد هؤلاء انها لم تكن متداولة في زمن الامام .

اما الفريق الثاني فيقول : ان نهج البلاغة من تأليف الامام ومن وضعه ، معتمدين بذلك على امانة الشريف الرضي ، وما اتفق مما جاء في نهج البلاغة من الاحداث التي وافقت حياة الامام ، الى غير ذلك من الاسباب التي يراها هؤلاء انها وجيهة كي يكون نهج البلاغة للامام . ولم يكن للشريف سوى شرف جمعه فقط .

وبأتي فريق آخر ، وهذا الفريق وسط بين الفريقين الاولين ، وانا ارى رأي هذا الفريق فأقول : ان الحياة الادبية كانت مربوطة — ان صح هذا التعبير — بالحياة السياسية الى حد كبير ، ومثل ذلك ان كل فئة ، وكل جماعة كان

فما شاعر او اكثر من شاعر بعدد مآثرها ، ويجد اعمالها . واذا ذكرنا ان النزاع بين الامويين والعلويين قد بلغ حـــداً كبيراً ، واخيراً مضرب الامثال وورثه الاجيال لمئات السنين ، تبين لنا انه لم يكن من بد لكل من الفريقين ان يعتمد جميع الوسائل لمحاربة الفريق الآخر . قلت جميع الوسائل ويدخل ضمن هذا طبعاً الوسائل الادبية . ولقد بينت ما للأدب من تأثير على الجماهير ، وعلى المثقفين ايضاً .

فكما امر الامويون بشتم الامام من على المنبر ، كذلك فعل العلويون بيزيد ، وكل من هؤلاء له شأنه في امور الدعاية لمذهبه ورأيه ، ونحن في عصرنا هذا نرى الدعاية والتشويق من الامور التي تساعد على نجاح القضية التي نسعى لنجاحها ، ألم تساعد ابواق الصهيونية العالمية مثلاً على ايجاد دولة اسرائيل ، بينما اكتفت ابواق الفئة الاخرى تهاجم بعضها البعض وتدخل في جدل سياسي داخلي مما اضاع الفرصة امامها لكسب المعركة حتى الآن.

ألم يكن قميص عثمان من العوامل التي اثارت الناس ضد الامام علي والتي عرف معاوية كيف يستغلها .

اذن فالشريف الرضي كان يقصد من وراء نهج البلاغة قصداً سياسياً صرفاً ، وكأني به يقول ، وقد انتهى من وضع النهج : هذه ثروة الامام الفكرية ، والادبية ، والدينية والاجتماعية ، فكيف تنسوها ! اجددوا مجد الطالبيين واسعوا لاعادة سلطانهم . ويؤيد هذا مطمح الشريف الى مقام الخلافة .

وفي نظري ، ان نهج البلاغة في اصله من وضع الامام علي ، وهو مجموعة الخطب التي ألقاها في مناسبات عديدة ، ونحن نعرف ان الامام كان خطيباً مفوهاً ، ومحدثاً فصيحاً . فاين هي آثاره ؟ مما لا شك فيه ان النهج حوى الكثير من هذه الآثار ، ولكنه لم يكن كله من آثار الامام .

قد تعرض نهج البلاغة كما تعرض الكثير من الكتب الدينية والسياسية ، لبعض من التلقيح والزيادة بما ينسجم مع حالة العصر ، والجو السياسي الذي

يعيش الناس فيه ، ولقد مر نهج البلاغة بين كثير من الايدي ، ويجدر بنا ان لا ننسى ان كتاب نهج البلاغة لم يكن قبل ان يجمعه الشريف . او بالاصح ان ما ضم هذا الكتاب بين دفتيه هو عبارة عن خطب واقوال واحاديث فاه بها الامام في مناسبات شتى وظروف متعددة تناقلها الالسن ووعتها افئدة مريديه حتى قيض لها ان تصل الى يد الشريف . ولا شك ان هؤلاء الذين مر النهج بين ايديهم ، زادوا عليه ما ينسجم مع مطالبهم السياسية على لسان الامام كي يكسبوا اكثر عدد ممكن من المتشيعين الذين اختلفت اراؤهم ، وتباينت اهدافهم في عصر تعددت فيه الاراء وتباينت فيه النوايا .

لذلك فنهج البلاغة لم يكن كله من وضع الامام ، ولكن فيه روح الامام وفصاحته وبلاغته . ولقد زيد عليه من الشريف او ممن سبق الشريف ما يتفق والمبدأ السياسي المرتبط الى حد بعيد بالمذاهب الادبية والاجتماعية والدينية .

ومع كل هذا فنهج البلاغة ذخيرة ادبية ، وفكرية ، وللشريف الفضل كل الفضل في اخراج هذه الذخيرة وفي اذاعتها . فهي وثيقة سياسية وادبية كان لها فضل كبير في فتح ابواب الجدل والنقد المفيد ، وفي تهذيب النفوس وارشادها ،

والان وقد اتيت على نهاية هذه الدراسة عن حياة وشعر الشريف الرضي لا بد ان القي نظرة عامة على فن الشريف . بل على فنونه الشعرية والنثرية .

لقد كان الشريف الرضي شاعراً فذاً . كان شاعر القلب ، والذكاء والعقل ، يصور الاهواء والشهوات والآلام والهم ، شاعر العفة والنبل والطهارة . وان في شعره من المعاني الانسانية والصور والحكم والامثال ، ما يجعله في مصاف كبار الشعراء ، وكان شاعراً وجدانياً انحف الادب العربي بقصائد جيدة لا تنسى .

وقبل ان نتناول بصورة مفصلة ذلك لا بد من ان نشير الى ان

الشريف ، قد عاد الى شعره الذي قاله في مستهل حياته الشعرية ، فنقحه وهذبه ، فلذا نشاهد هذه الميزة في العناية بأختيار الالفاظ ، ورعاية استعمالها ، ثم هذه المعاني التي كثيراً ما يلمح بها تلميحاً غامضاً مثيراً ، او صريحاً عاصفاً رائعاً ، على غير تكلف ، كما انه لا يقع في الاسهاب الممل .

وشعر الشريف صورة طبق الاصل عن نفسه ، انها صورة لأنفعالاته الذاتية .

فهو يفتخر بجدوده ، وبوالده وبنفسه ، انه فخر قريب الى النفس ، عزيز المادة ، لانه صادر عن نفس حساسة تنتيه عجباً وكبرياء وشموخاً . فهو يفتخر لانه احس هذا الواقع ، فأذا بلسانه يسجل ، هذه العواطف الذاتية . وكذلك عندما يعاتب ، او يشكو . ان نفسه تزخر بشتى عوامل الأسى ، والغدران ، والخيبة . وعندما يثور ، انما ثورة رجل قوي ، لا يعرف الضعف ، ولا يشكو الخوف .

وهكذا عندما يمدح ، يمدح لا حباً في كسب ، او عطية ، ولكن عن اعجاب وتقدير ، وهكذا عندما يجو ، يجو عن كره وبغضاء . لم يتكلف يوماً في شعره . وهذه من الخصائص النادرة عن الشعراء .

وعندما يتغزل الشريف ، فان غزله صادق : انه يحب ويغرم ويعشق ويشتاق ويتمنى ، فهو ككل محب او يزيد عنه في فيض العاطفة ، وجنون الهوى . ولكنه مع كل هذا لا ينسى نفسه ، وكرامته . فلذا غلبت على شعره الغزلي صفة العفاف فقد يلفه الشوق مع فتاة حسناء فيضاجعها ، ولكن ما هو نوع هذه المضاجعة ؟ ان سيفه بينه وبينها . انه سيف العفاف والنبل .

ان غراميات الشريف وذكرياته في الحجاز ، ليست سوى ذكريات الأيام التي امضاها الشريف في تلك الديار انها لواعج قلب اضناه الهوى ، ولوعه الشوق .

وفن الشريف النثري لا غبار عليه ، فهو متين واضح حسن السبك ، سهل

الفهم واسلوبه صريح لايعرف الغموض ، اضف إلى ذلك عبقريته في اخـــراج المعاني والصور .

ولقد كان الشريف شاعراً مثقفاً مبحراً بالمذاهب اللغوية والادبية ، ومن ذلك اعتقاده بخطر البلاغة ، وعدّ شأنها ، وقـــوة القلم ، ثم تقديره للبلاغـة واعجابه الكلي بالبلغاء والفصحاء .

انطفأت هذه الشعلة من الوجدان الثائر . وخبا ضوء هذا المصباح الوهاج ، وفارق الشريف الحيـــاة وهو في اوج شبابه وعنفوان فيضانه الادبي والروحي ، فترك فراغاً لا يسد ، وعمر لاتحفنا بـــآثار قيمة ، وغرر ادبية رائعة . وكانت وفاته في سنة ٤٠٦ هـ ، ودفن في داره بخط مسجد الانباريين بالكرخ ، ويقال ان الدار خربت ودرس القبر ، فنقله اخوه الشريف المرتضى الى مشهد موسى الكاظم في مقابر القريش . ومنهم من يقول انه نقل الى مشهد سيدنا الحسين بكربلاء . وقد جزع عليه السيد المرتضى جزعاً شديداً ، حتى انه لم يتمكن من الصلاة عليه ، ورثاه هو وغيره من شعراء زمانه ، وفي مختاراتنا سنثبت بعضاً من قصائده في مختلف الفنون ، كما اننا سنثبت بصورة خاصة بعض القصائد التي تظهر شعوره الديني .

مختارات شعرية

مجد وطموح

نبهتهم مثل عوالي الرماح ... الى الوغى قبل نموم الصباح
فوارس ، قالوا المنى بالقنا ... وصافحوا اغراضهم بالصفاح
غارة سامع أنبائها ... يغص منها بالزلال القراح
ليس على مضرمها سبة ، ... ولا على المجلب منها جناح(١
دونكم فابتدروا غنمها: ... دمي مباحات ، ومالي مباح!

*

يا نفس من هم الى همة ، ... فليس من عب، الاذى مستراح
قد آن للقلب الذي كده ... طول مناجاة المنى ان يراح
لا بد ان أركبها صعبة ... وقاحة ، تحت غلام وقاح
يجهدها أو يدنني بالردى ، ... دون الذي قدر ، او بالنجاح
الراح والراحة قال الفتى
والعز في حرب ضريب اللقاح(٢
في حيث لا حكم لغير القنا ... ولا مطاع غير داعي الكفاح

(١) المجلب منها : المتذمر من وقعها . الجناح : الاثم .
(٢) الضريب : الفحل . اللقاح : جمع لقوح وهي الناقة الحلوب .

ما أطيبَ الامرَ ولو أنه ... على رَذايا تَسِم في مراح (١

وشعث المفرق ذي همةٍ ... طوحه الهمُّ بعيداً ، فطاح

لما رأى الصبرَ مُضِراً به ، ... راح ، ومن لم يُطِق الذلَّ ، راح

دفعاً بصدر السيف ، لما رأى ... أن لا يُردَّ الضيمُ دفعاً براح (٢

متى أرى الزوراء مُرتجّةً ، ... تُمطَرُ بالبيض الظُبا والرِّماح (٣

يصيح فيها الموت عن ألسُنٍ ، ... من العوالي والمواضي ، فصاح

متى أرى الارض وقد زُلزلت ... بعارضٍ أغبرَ دامي السِّواح (٤

متى أرى الناسَ وقد صُبِّحوا ... أوائلَ اليوم بطعنٍ صُراح

يلتفت الضاربُ في عِطفه ... مروعاً يرقب وقعَ الجراح

متى أرى البيضَ وقد أمطرت ... سيلَ دمٍ يغلب سيلَ البطاح (٥

متى أرى البَيْضة مصدوعة ... عن كلِّ نَشوانَ طويلِ المراح (٦

مُضمَّخِ الجِيدِ نؤومِ الضُحى ... كأنه العذراءُ ذاتُ الوشاح

اذا رَداحُ الروع عنَّت له ، ... فرَّ الى ضمِّ الكعابِ الرَّداح (٧

---

(١) الرذايا : جمع رذية ، وهي الناقة الضعيفة . النعم : الابل . المراح : مأوى المواشي

(٢) الراح : جمع الراحة ، وهي باطن الكف .

(٣) الزوراء : بغداد ، ترتج . تضربها الريح .

(٤) العارض : المقصود به غبار الحرب : .

(٥) البيض : السيوف . البطاح : جمع بطحاء ، وهو سيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٦) البيضة : الخوذة من الحديد تستعمل لوقاية الرأس من الضرب .

(٧) الرداح الاولى : الكتيبة الثقيلة الجرارة . الروع : هول الحرب . الرداح الثانية : المرأة الثقيلة الاوراك .

قـوم رضـوا بالعجـز والتقاعـدا

بالسيف ، يُدمى غربُه ، كأسَ راح

توارثوا الملك . ولو نجبوا لورّثوه عن طعان الرماح

غطّى رداءُ العزّ عوراتهم فافتضحوا بالذلّ أيّ افتضاح

بَنِي ، والشاتمُ عِرضي ، كمن رَوّع آساد الثرى بالنباح

يطلب شأوي ، وهو مُستيقنٌ أنّ عِناني في يمين الجماح

فارم بعينيكَ مليّاً ترى وقعَ غُباري في عيون الطلاح (١

وارقَ على ظلعك هيهات أن يُزعزع الطودَ مرّ الرياح (٢

لا هَمّ قلبي بركوب العُلى يوماً ، ولا بلّ يدي بالسماح

إن لم أنلها باشتراط كما شئتُ على بيض الظبا ، واقتراح

تفكيره بالخلافة

قلقَ العدوّ وقد حظيتُ برتبة ،

تعلو على النظراء والامثال

لو كنت اقنعُ بالنقابة وحدها ،

لغضضتُ ، حين بلغتها ، آمالي

---

(١) الطلاح : الابل وقد اعياها السير

(٢) ارق على ظلعك : اي ارفق بنفسك

لكنّ لي نفساً تشوق أنى الستي
ما بعد أعلاها مقامٌ عالِ
قالوا : حجرتَ على ندالك ، وطالما
أرغمتُ فيه معاطسَ العُذّالِ
هيهاتَ قلَّ الحامدون ، وصار من
أحببتُه يحسدُني على أموالي
من لي بمن تركو الصنائعُ عنده.
حتى أشاطرَه كرائمَ مالي ؟

تذمره من الزمان

حقيقٌ بأن لا يهتكَ ، الدهرَ ، ثوبَه ،
على العارِ ، كأسٍ من عجاجِ الملاحمِ
وأين من الدهرِ استماعُ ظُلامتي ،
إذا نظرتْ ايامه في المظالمِ ؟
فهل نافعي ان يشعرَ المجدُ عزمتي
على هذه العلياءِ ، والمالُ ظالمي ؟

انا الأسد الماضي على كل فعلة
تمشي شفار البيض فوق الجماجم
وفي مثلها ارضيت عن عزمتي المنى ،
وصافحت أطراف القنا والصوارم
ولم أدر أن الدهر يختص اهله ،
اذا سكنت فيهم نفوس الضراغم
وما العيش الا قرحة ، ان هجرتها ،
سطوت على الدنيا بسطوة حازم
سأصبر حتى يعلم الصبر أنني
ملكت به دفع الخطوب المواجم
وآخذ ثأري من زمان تعرضت
مغارمه بيني وبين المغانم
وما تام إغفاء عن الدهر صارمي
ولكنني أبقي على غير راحم
وان أنا اهلكت الزمان ، فما الذي
يصدع عزمي في صدور العظائم؟

وفتية صدق من قريش اذا ابتدوا
أروك عطاء المال ضربة لازم
اذا طردوا في معرك المجد ، قصفوا
رماح العطايا في صدور المكارم (١)
وان سحبوا خرصانهم لكريهة ،
تصدع صدر الارض عن قلب واجم (٢)
وتثبت في علياء معد غصومهم
ثبات بنان في قلوب البراجم (٣)
أيسمح لي هذا الزمان بصاحب
طويل نجاد السيف من آل هاشم ؟
اذا أنا شيمت الحسام بكفه
مضى عزم مشبوح الذراع ضيارم (٤)
وان ضافه الهم النزيع رمى بها
نزائع لا يعلفن غير الشكائم (٥)

---

(١) طرد الرجل خصمه : تغلب عليه . (٢) الخرصان : الرماح
(٣) البراجم : المفاصل الباطنة والظاهرة من الاصابع .
(٤) الضيارم : الرجل الجري، على الاعداء .
(٥) النزيع : البعيد . النزائع : الخيل الغرائب تزعن عن قوم آخرين . الشكائم : جمع شكيمة ، وهي اللجام .

ولستُ بمستصفٍ سوى كلِّ خائضٍ
الى كلِّ بحرٍ بالقنا متلاطمِ
أُناملهُ في الحربِ عشرُ أسنةٍ
ولكنها في الجودِ عشرُ غمائمِ
طموحٌ اذا غضَّ الشجاعُ لحاظه ،
وأطرقَ عن برقِ الظُّبا كلُّ شائمِ (١)
أعاذِلُ ما سعيي لومكَ مرتعاً ،
اذا كان مصروفاً الى غيرِ لائمِ
أبتْكَ عن ليلٍ تعسفتُ متنه
كأنيَ أمشي في متونِ الاراقمِ (٢)
يُخيَّلُ لي أنَّ النجومَ ضمائرٌ ،
تقلقلُ فيه خشيةً من عزائمي
لقيتُ ظلامَ الليلِ في لونِ مفرقي ،
وفارقتُهُ والصبحُ في لونِ صارمي

---

(١) الظبا : جمع ظبة وهي حد السيف
(٢) الاراقم : أخبث الحيات

أجوبُ آجامَ المنايا ، واسدُها
تروّعني من بينها بالصمائم
وبيني وبين القوم من آل يعرب
ضغائن تنتيني زعيد المطاعم
اذا ما جنوا من مطعم ثمرَ العلى ،
جنيتُ المعالي من غصون المهاذم (١
أغرُّ بني فهرٍ وعبدَ مجاشع ،
وأيُّ وعيدٍ بعد وقع الصوارم ؟ (٢
أيوعدنا من عضَّلَ البيضَ والقنا ،
وأقسم لا ينجو بغير الهزائم
عشيةَ خضنا بالصوارم ليلهم
وفي كل جفنٍ منهمُ طيفُ حالم
تُريهم صدور السمر بين نحورهم ،
فما استيقظوا الاّ بقرع الجماجم (٣

---

(١) المهاذم : جمع لهذم ، القاطع من الالسنة .
(٢) فهر : اجد الجامع لبني قريش . مجاشع : من بني تميم .
(٣) السمر : الرماح .

كأنَّ الكرى يقتصُّ من طول نومِهم،
فيُسهرُ منهم بالقنا كلُّ نائم
وكلُّ غلامٍ خالطَ البأسُ قلبَه،
يُقطِّعُ اقرانَ الامورِ الغوائمِ (١
ونحنُ دلفْنا للارانبِ فتيةً
يُضيئونَ اطرافَ القنا في الحيازمِ
تظلُّ من خلفِ العجاجِ، كأنما
تطالعهمْ منها عيونُ القشاعمِ (٢
اذا اشتجرَ الضربُ الدراكُ، تطقت
الى الطعنِ افواهُ الذسودِ الحوائمِ (٣
وولَّوا على الخيلِ العتاقِ كأنهم
تراحُمُ بيضِ العارضِ المتراكمِ (٤
تفيضُ عيونُ الطعنِ بالدمِ منهم،
ويغسلها فيضُ العيونِ السواجمِ

---

(١) الاقران: الخيل.

(٢) العجاج: الغبار. القشاعم: النسور الكبيرة في السن

(٣) اشتجر: اختلط.

(٤) العارض: السحاب المعترض في السماء.

لقاء والده

كان عضد الدولة بن بويه قد اعتقل والد الشريف الرضي ووالده ، لاسباب سياسية وسجنهما في قلعة فارس سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) بقي فيها حتى اطلق سراحهما شرف الدولة سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) ، فقال الشاعر يذكر اعتقال ابيه ، وكيف التقى به بعد خلاصه :

طُلوعُ هداه الينا المغيبُ ، ويومٌ تمزّقُ عنه الخطوبُ
لقيتكَ ، في صدره ، شاحباً ومن حلية العربيّ الشحوب
إليه تمجّ النفوس الصدودَ ، وفيه تهنّي العيون القلوب
تغرّبتَ مستأنساً بالبعاد ، وللبيتُ في كل ارض غريب
واحرزتَ صبرك للنائبات ، وللداء يوماً يُرادُ الطبيب
لعلّ اللهُ دهراً ارتأى له يارَ يندُب فيها البعيدَ القريب
وما كان موتاً ، ولكنه فراقٌ تُشقّ عليه الجيوبُ
لئن كنت لم تسترب بالزمان ، فقد كان من فعله ما يريب
رمى بك ، والامرُ ذاوي النبات ، فآلَ ، وغصنُ المعالي رطيب
ولما جذبتَ زمامَ الزمان ، أطاع ، ولكن عصاك الحبيب
ولما استطال عليك البعاد وذلّل فيكَ المطيّ اللغوب(١)

(١) اللغوب : اشد الاعياء الشديد.

رجوتَ الايابَ ، على أنّه كقيلِ طُلوعِ البدورِ الغروب
رحلتَ ، وفي كلِّ جفنٍ دمٌ عليك ، وفي كلِّ قلبٍ وجيب(١
ولا نُطقَ إلا ومن دونه عزاءٌ تفورُ ، ودمعٌ ريب
وأنتَ تعلّلنا بالايا بِ والصبرُ مرتحلٌ لا يؤوب
وسرُّ العِدى فيك نقصُ العقول ،
وأعلمُ ان لا يُسَرّ اللبيبُ
أما علمَ الحاسدُ المستمرُّ أنّ الزمانَ عليه رقيب ؟ (٢
قدمتَ قدومَ رقاقِ السحاب تخطُّ ، والربعُ ربعٌ جديب
فما ضحكَ الدهرُ إلا إليكَ ، مذ بانَ في حاجبيه القطوبُ
حلفتُ بما ضمّنته الحَجونُ وما ضمّ ذاكَ المقامُ الرحيب(٣
لقد سرّكَ الدهرُ في الغادرين ، بعُذرٍ تضاءلُ فيه الذنوب
وأجلّى رجوعُكَ عن حاسدٍ يكَ ، هذا قتيلٌ ، وهذا سليبُ
تحرّقُ منكَ قلوبَ العداة غيظاً ، وانتَ ضحوكٌ قطوبُ(٤
وأجهلُ ذا الناسِ مُستنهِضٌ دُعاءً الى سمعِ من لا يجيب

---

(١) الوجيب : الخفقان .
(٢) المستمر : المغرور .
(٣) الحجون : جبل بمكة .
(٤) القطوب : العبوس .

زعانفُ يستصرخون العلى وما استنَبَ العزُ إلاَ نجيب(١

وطال مُقامُك في منزلٍ تطلّعُ من جانبيه الحروب

بضربٍ كما اشترطته السيوف وطعنٍ كما اقترحته الكعوب(٢

ونجلٍ تغلغلَ فيها الطعا

نُ : وانشقّ عنها النجيع الصبيب(٣

وصحبة كل غلام عليه من سمةِ العزّ حُسنٌ وطيبُ

إذا خضب الرمح أوْما به كأنّ السنان بَنانٌ خضيبُ

وقنّعك كلّ بعيد النياط كأنّ الجواد به مُستريب

وارضاً اذا ما اجتلاها الهجير طلّقها من يديه الضريبُ(٤

وما زال منك على النائبات مقامٌ عظيم ويوم عصيبُ

فيومٌ حسامُك فيه الخطيبُ ويومٌ لسانُك فيه الخطيبُ

طلبت لنفسك فاطلُب لنا من العزّ إنّ المحامي طَلوبُ

وان كنت تأنفُ من حُبّه فانّ العلاء إلينا حبيب

---

(١) الزعانف : الاوباش .

(٢) الكعوب : اي كعوب الرماح .

(٣) النجل : جمع نجلاء وهي الطعنة الواسعة الجرح . النجيع : الدم

(٤) اجتلاها : من اجتلاء العروس ، اخذها بحلوة . الهجير : شدة الحر . الضريب : الثلج

وما نحنُ أنت ، وكلٌ إلى ... دُعاءِ العلى طَرِبٌ مستجيبُ
ونحن ، فسامٍ إلينا الشباب ... وأنتَ ، فسامٍ إليك المشيب
على أنّه انت عينُ الزمان ... وعيشٌ بلا ناظرٍ لا يطيب
ولولاك ما لذّ طعمُ الفخار ... ولا راق بُرْدُ العلاءِ القشيب
أترضى لمجدك أن لا يكون ... لنا من عطاء المعالي نصيب؟
فلا يُقعدنّك كيدُ الحسود ... وامضِ فكلٌ مرامٍ قريب
وحُثّ الطلابَ فانّا نجدّ ... وأمضِ الامورَ فانّا ننوب ١
ولِمْ لا يُضيفُ العلى من له
غديرٌ معينٌ ، ومرعى خصيب؟٢

لحيّاكَ ، منّي عند اللقاء ... خلقٌ عجيبٌ وخُلقٌ أديب
وخلّفتني غرسَ مُستثمرٍ ... فطالَ وأورقَ ذاك القضيب
ذخرتُ لك الغررَ السائراتِ ... يُعبّرُ عنها الفؤادُ الكئيب
تصونُ مناقبكَ الشاردا ... تِ ، أن تتخطّى اليها العيوب
إذا نشرتها شفاهُ الرواةِ ... راقكَ منها النظامُ العجيب
وإني لارجوكَ في النائبات ... إذا جاءني الآملُ المستثيب ٣

(١) ننوب : اي ننوب عنك .
(٢) غدير معين : اي غدير ماؤه جار .
(٣) المستثيب : طالب الثواب اي الجزاء .

قادر .. وحليم

لغير العلى مني القلى والتجنب .

ولولا العلى ما كنت في الحب ارغب

اذا الله لم يعذرك فيما ترومه فما الناس الا عاذل او معذب (١

ملكت بحلمي فرصة ما استرقها

من الدهر ، مفتول الذراعين أغلب (٢

فان تك سنتي ما تطاول بأعها

فلي من وراء المجد قاب مدرب

فحسبي أني في الاعادي مبغض

واني الى غر المعالي محبب

وللحلم أوقات ، وللجهل مثلها ولكن أوقاتي الى الحلم اقرب

يصول علي الجاهلون وأعتلي

ويعجم في القائلون وأعرب (٣

بدون احتمالي غصة ، ويزيدهم

لواعج ضغن انني لست اغضب

---

(١) يعذرك : يتركك

(٢) استرقها : ملكها

(٣) يعجم : يبهم القول .

وأعرض عن كأس النديم كأنها
وميض غمام، غائر المزن، خلب
وقور، فلا الالحان تأسر عزمتي
ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها
ولا أنطق العوراء، والقلب مغضب (١
تحلم عن كر القوارص شيمتي
كأن معيد الذم بالمدح مطنب (٢
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى
إذا نال مني العاضه المتوثب (٣
ولست براض ان تمس عزائمي
فضالات ما يعطي الزمان ويسلب

(١) العوراء : الكلمة القبيحة .
(٢) تحلم : تتكلف الحلم . القوارص من الكلام : التي تنغص وتؤلم .
(٣) الحصاة : الرزانة . العاضه : الكاذب الذي يجيء بالزور والبهتان . المتوثب : المعتدي

عندما قبض على والد الشريف ، وسيق به الى عضد الدولة ، ثم جاء الى قلعة فارس ، قال له الوزير الطاهر بن عبد الله ساخرا ، شامتاً : كم تدل علينا بالعظام النخرة ! فبلغ ذلك الرضي فقارعه بقوله ، قال من قصيدة يرد عليه بها ، وسنه يومئذ فوق العشرة بقليل :

ينالُ الفتى من دهرِه قدرَ نفسه
وتأتي على قدرِ الرجال المكايدُ

فدىً لك يا مجدَ المعالي وبأسها
فعالُ جبانٍ شجّعته الحقائدُ

عُزِلتَ ولكن ما عُزِلتَ عن الندى
وجودُك في جيد العلى لك شاهد

بوجهك ماءُ العز في العزل ذائبٌ
ووجه الذي وُليَ من الماء جامد

فلا يفرحِ الاعداءُ ، فالعزل معرِضٌ
اذا راح عنه صادرٌ جاء وارد

وما كنتَ الا السيفَ يمضي ذُبابه
ولا ينصر العلياء من لا يجالد (١

---

١) ذبابه : حده

تقضي فقضى حق الضرائب في الوغى
وأثنت عليه ، حين رُدّ ، المغامد (١

فأعطوا عنانَ الضمر غيرك اذ رأوا
بعينك تستولي عليها القوائد

وما كنتَ يوماً في الزمان بمسلمٍ
عُرى المالِ ان ضجت اليك المواعد

ولا كنتَ ترضى ان تصيح ببلدة
اذا قيلَ عضوٌ من زمانكَ فاسدُ

أيا غدوةً ساءَ الحسين صباحُها
وسرَّ العِدى فيها الزمان المعاند (٢

لحقتِ عندي أن كلَّ صبيحة
مجاجةُ سُمٍّ ، والليالي أساود (٣

يعرفك الاخوانُ كل بنفسه
وخيرٌ أخٍ من عرّفتك الشدائد

---

(١) تقي السيف : سل من غمده.
(٢) الحسين والد الشريف
(٣) المجاجة : ما يلقي من الفم . الاساود : الحيات .

وطاغٍ يعير البغيَ غربَ لسانه

وليس له عن جانب الدين ذائد(١

شننتَ عليه الحق حتى رددته

صموتاً ، وفي انيابه القولُ عاضد

يُدِلُّ بغير الله عضداً وناصراً

وناصرُك الرحمنُ ، والمجد عاضدُ

يُعير رب الخير بالي عظامه

ألا نزهت تلك العظامُ البوائد

ولو كان بين الفاطميين رفرفت

عليه العوالي والظُّبا والسواعد !

---

(١) الغرب : الحد

كرم الشباب

صرف القادر بالله الشريف عن نقابة الطالبيين عندما جمع هذه القصيدة :

ما مُقامي على الهوانِ ، وعندي ... مقولٌ صارمٌ ، وأنفٌ حميُّ
وإباءٌ يُحلّقُ بي عن الضيمِ ... كما راغ طائرٌ وحشيُّ (١
أيُّ عُذرٍ له الى المجدِ ، ان ذلّ ... غُلامٌ في غمده المشرفيُّ ؟
أيلبسُ الذُّلَّ في ديار الاعادي ... ومصرُ الخليفةُ العلويُّ
مَن أبوه أبي ، ومولاه مولايَ ... اذا ضامني البعيدُ القصيُّ (٢
لفَّ عرقي بعرقِهِ سيدُ الناس ... جميعاً محمدٌ ، وعليُّ
إنْ ذُلّي بذلك الجوِّ عزٌّ ... وأُولمي بذلك النقعِ ريُّ (٣
قد يذلُّ العزيزُ ما لم يُشمّر ... لانطلاقٍ ، وقد يُضامُ الابيُّ
ان شرّاً عليَّ إسراعُ عزمي ... في طلابِ العُلى ، وحظّي بطيءُ
أرتضي بالأذى ، ولم يقفِ العزمُ ... قصوراً ، ولم تعزّ المطيُّ
تاركاً أسرتي رُجوعاً الى حيثُ ... عذيري قدٌ ، ودعيّ وبيُّ (٤
كالذي يخبطُ الظلامَ ، وقد ... أقمرَ من خلفهِ النهارُ المضيءُ

---

(١) راغ : نفر
(٢) ابوه : اي جده الرسول . مولاه : اي الامام علي .
(٣) الاوام : حر العطش
(٤) القد : السوط . الوبي : الكثير الوباء

خصام الاخوين

وقعت بين الاخ واخيه الفرقة وحشة ؛
فتعاتبا وقتاً، فقال الشاعر يشكو ويعاتب الاخاء

أتاني ، ومعطُولٌ من النأي بيننا
قوارص تنبو بالجفونِ عن الغمضِ
ومولىً ودّى قلبي بلذعةِ ميسمٍ
من الكلمِ العوراء ، مضّاً على مضّ
فعذراً لاعدائي ، اذا كان اقربي
يُشذّبُ من عودي ويعرقُ من نحضي
اذا ما رمى عِرضي القريبُ بسهمه
عذرتُ بعيدَ القومِ إنما رمى عرضي
ألم يأتِه اني تفرّدتُ ، بعده
رَوابيَ شمّاءٍ جاشَ لها نهضي!
وأني جعلتُ الانفَ ، من كل حاسدٍ
قبالي، وخدّي كلَّ مضطغنٍ أرضي
وكم من مقامٍ ، دون مجدكَ ، قمتُه
على زلقٍ بين النوائب، او دحضِ

وقارعتُ من أعياك قبل قراعه
فدامجني بعد التشاذُرِ والبغْضِ (١

لقد امست الارحامُ منا على شفاً
فأخلقْ بمُشفٍ، لا يُعلّلُ، ان يَقضي

رأيتُ مُخيلاتِ العُقوق مُليحةً ،
فلاتجعلن برقَ الاذى صادقَ الوَمضِ (٢

ولا تُشمتَنْ مَن وَدّ لو اننا معاً
شَجيجانِ، تُلطينا الجنادلُ بالأرض (٣

إذا كنتُ أغضي ، والقوارعِ جمّةٌ
فَتلكَ أولى أن يُذمّ وان يُغضي (٤

على غُصَصٍ لو كنّ في البدرِ لم يُنرِ
وفي العودِ لم يُورِقْ، وفي السهمِ لم يمضِ

رَزِئْتُك حيّاً بالقطيعةِ والقِلى
وبعضُ الرزايا قبلَ يوم الفقى المقْضي

---

(١) دامجني : واقني .
(٢) مخيلات : السحب المنبئة بالمطر .
(٣) شجيجان : مكسور الرأسين . تلطينا : تتقانا .
(٤) القوارع : قوارص الكلام .

أناديكَ فارجع من قريبٍ ، فإنني
إذا ضاق بي ذرعي ، مضيتُ كما تمضي

* * *

تهضني من لا يكون لغيره
من الناس ، إطراقي على الهون أو غضي

أفوّق نبلَ القول بيني وبينه
فوثاني ، من قبل ترعي بها ، عرضي

وأرجع لم أولغ لساني في دمي
ولم أدم أعضائي بنهشي ولا عضّي(١

إذا اضطرمت ما بين جنبيّ غضبةٌ
وكاد فمي يمضي من القول ما يُمضي

شفعتُ على نفسي بنفسي فكفكفت
من الغيظ واستعطفتُ بعضي على بعضي

---

(١) اولغ لسانه : ادخله في الدم ليشرب منه .

دمعة الاخلاص

اجتاز الشريف بقبر ابي اسحق الصابي ، وهو بالجنينة من نهر كرخايا بغداد ، في الشهر الذي مات فيه ، فبكى دمعة حارة على ذلك القبر ، وهذا يدل على اخلاص الشريف في صداقته تلك الصداقة التي تغلبت حتى على الموت .

أيعلمُ قبرٌ بالجنينةِ أننا ... أقمنا به نبكي النَّدى والمعاليا؟

عطفنا فحيينا مساعيه ، أنها ... عظامُ المساعي ، لا العظام البواليا(١

مررنا به ، فاستوقفتنا رُسُومه ... كما استوقفَ الروضُ الظباءَ الجوازيا(٢

وما لاحَ ذاكَ الترْبُ حتى تحلَّبتْ ... من الدمعِ أوشالٌ ملأنَ المآقيا(٣

نزلنا اليه عن ظهورِ جيادنا ... نكفكفُ بالايدي الدموعَ الجواريا

ولمَّا تجاهشنا البكاءُ ولم نُطق ... عن الوجدِ إقلاعاً ، عذرنا البواكيا

---

(١) المساعي : اكتساب المعالي .

(٢) الجوازي : الظباء التي تجتزىء بأكل العشب عن الماء .

(٣) الاوشال : المياه القليلة

أقولُ لركبٍ رائحينَ : تعرّجوا
أريكم به فرعاً من المجدِ ذاويا (١
أميلوا عليه عاقرينَ ، فإنّنا
اذا لم نجدْ عقراً ، عقرنا القوافيا (٢
وحطّموا به رَجلَ المكارم والعُلى
وكُبّوا الجفانَ عنده ، والمقاريا (٣
ولو أنصفوا شقّوا عليه ضمائراً
وجزّوا رقاباً بالظُبى لا نواصيا
وقفنا فأرخصنا الدموعَ ، وربما تكون على سومِ الغرام غواليا
ألا أيها القبرُ الذي ضمّ لحدُه
قضيباً ، على هامِ النوائب ، ماضيا (٤
هل ابنُ هلالٍ منذ أودى كعهدنا
هلالاً ، على ضوءِ المطالعِ ، باقيا ؟ (٥

---

(١) تعرجوا : ميلوا واجبسوا المطايا .
(٢) العقر : نحر الابل على قبور الموتى في الجاهلية .
(٣) المقاري : القدور
(٤) قضيباً : سيفاً .
(٥) هلال : والد الميت .

وتلك البنانُ المورِقاتُ من الندى
نواضبُ ماء ، أم بواقٍ كما هيا ؟
فإن يبلُ من ذاك اللسانِ مضاؤه فإنّ به عُضواً من المجدِ باليا
يُجيبُ الدواعي جائداً ومُدافعاً
هُناكَ مُرِمٌّ لا يُجيبُ الدواعيا (١
وما كنتُ آبى طولَ لُبثٍ بقبره
لو انّي اذا استعديتُه ، كان عاديا
صفائحُ تستسقي الدموع روائحاً
على جانبيها ، والغمامَ غواديا (٢
ترى الكلمَ الغُرّانَ من بعد موته
نواثرَ عُمّن رامهُنّ نوائيا (٣
هو الخاضبُ الاقلامَ نالَ بها عُلىً تقاصر عنها الخاضبونَ العواليا
مُعيدُ ضِرابٍ باللسانِ ، لو انه
بيومِ وغىً ، قَلّ الجُرازَ اليمانيا (٤

---

(١) مرم : ساكت .
(٢) الصفائح : الحجارة العراض .
(٣) الغران : جمع الاغر . وهو شريف الكلام وجيده .
(٤) الجراز : السيف .

مَريدُ القوى نالَ المعالي واثباً اذا غيرُه نالَ المعالي حانيا
مضى لم يُثانِ عنه قلبٌ مُشيّعٌ
اذا همَّ ، لم يرجعْ عن الهمِّ ثانيا (١
ولا المستنوهُ بالاكُفِّ الى الحشا
على جزَعٍ ، والمُفرِشوهُ التراقيا
ولا ردَّ في صدرِ المنوّنِ براحةٍ يَرُدُّ بها سُمرَ القنا والمواضيا
خلا بعدكَ الوادي الذي كنتَ أنسَهُ
وأصبحَ تعشوه النوائبُ واديا
أرحنَ عليه ثلةَ الوجدِ ترتعي ضمائرُنا إيلامها والليالِيا (٢
رضيتُ بحكمِ الدهرِ فيكَ ضرورةً
ومَن ذا الذي يغدو ، بأساءَ ، راضيا ؟
وطاوعتُ من رامَ انتزاعكَ من يدي
ولو أجدُ الاعوانَ ، اصبحتُ عاصيا
ولولاكَ ، كانَ الصبرُ منا سجيةً
تُراثاً ، ورِثناهُ الجدودَ الاواليا

---

(١) متبع : شجاع .
(٢) ارماع الابل والغنم : ردها الى المراح . ثلة بالفتح : تطيع الغنم

تطامنتُ كيما يَعبرُ الخطبُ جانبي
فألقى على ظهري ، وجرَّ زِماميا(١

ملأتَ بجاكَ البلادَ مساعياً ويملأ مثواكَ البلادَ مناعيا
كما عمَّ عالي ذكرِكَ الخلقَ كلَّه كذاكَ أقمتَ العالمين نواعيا
رثيتُكَ كي اسلوكَ ، فازددتُ لوعةً
لأنَّ المرائي لا تسُدُّ المرازيا(٢

وأعلمُ أنَّ ليس البُكاءُ بنافعٍ
عليكَ ، ولكنني أمني الأمانيا

رثاء الصاحب بن عباد

أكذا المنونُ تقتِّر الأبطالا أكذا الزمانُ يُضعضِعُ الاجبالا
أكذا تُصابُ الأُسْدُ وهي مُدِلَّةٌ
تحمي الشُبولَ وتمنَعُ الأشبالا !(٣
كذا تُقامُ عن الفرائسِ بعدما ملأتْ هماهِمُها الورى أوجالا!
أكذا تُحطُّ الزاهراتُ عن العُلى
من بعدما شأتِ العيونَ منالا !

---

(١) تطامنت : انحنيت . (٢) المرازي : المصائب .
(٣) الاشبال : جمع الشبل ، وهو ولد الاسد .

أكذا تكبّ البُزلُ وهي مصاعبٌ
تطوي البعيدَ ، وتحملُ الاثقالا ! (١
أكذا تغاضُ الزاخراتُ وقد طغت
لجَجا ، وأوردت الظماءَ زُلالا !
يا طالب المعروفِ ، حلّقَ نجمه !
حُطّ الحمولَ ، وعطّل الاجمالا !
وأقمْ على يأس ، فقد ذهب الذي
كان الانام ، على نداه ، عيالا !
من كان يقري الجهلَ علماً ثاقباً والنقصَ فضلاً ، والرجاءَ نوالا
ويُجبّنُ الشجعانَ دون لقائه
يوم الوغى ، ويُشجع السؤالا
خلعَ الرَدى ذاك الرداءَ نفاسةً
عنّا ، وقاسَ ذلك السربالا! (٢
خبرٌ تمخّض بالاحبّة ذكره
قبل اليقين ، وأسلمَ البلبالا

(١) البزل : الابل التي اتت الثامنة . المصاعب : الفحول التي صعب تذليلها
(٢) نفاسة : اي ضنا به لانه يعدنا اهلا له .

حتى اذا جلّى الظنونَ يقينُه

صدّع القلوبَ ،واسقط الأحمالا !(١

الشكُّ أبردُ في الحشا في مثله يا ليت شكّي دام فيه وطالا !

جبلٌ تسنّمت البلادُ هضابَه حتى اذا ملأ الأقالمَ زالا!

يا طودُ ، كيف،وأنت عادي الدُرّى

ألقى بجانبك الردى زلزالا ! (٢

ان قطّع الآمالَ منك ، فانه من بعد يومك قطّع الآمالا

ما كنتَ أوّلَ كوكبٍ ترك الدنا

وسما الى نظرائه ، فتعالى !

أنفًا من الدنيا بتتَ حبالها

ونزعت عنك قميصها الأسمالا (٣

لا رُزءَ أعظم من مُصابك ، انه

وصلَ الدموعَ وقطّع الاوصالا !

يا آمرَ الأقدار، كيف أطعتَها اوَما وقاكَ جلالُك الآجالا؟

---

(١) الأحمال : اي الاجنة ، جمع جنين .

(٢) العادي : القديم .

(٣) بتت : قطعت .

كيفَ اغتَفلتَ ، فقاجأتك بغرّة
اولَيس كنت المخلط المزيالا ؟

وهذه القصيدة تتمة لها

مدح الطائع

من قصيدة في مدح الطائع لله سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) :

لله ثمّ لك المحلُّ الأعظمُ والبك ينتسب العلاءُ الأقدم
ولك التراثُ من النبيّ محمد
والبيتُ ، والحجرُ العظيمُ ، وزمزمُ
تمضي الملوكُ ، وأنت خلودٌ ثابت
ينجابُ عنك مُتوّجٌ ومُعمَّمُ
ماذاكَ إلاّ أنّ غربَك منهمُ
أمضى ، وانّ علوّ مجدِك أعظمُ (١
ان الخلافة ، مذ نهضتَ بعبئها
هدأ الضميرُ بها ، ونام النُوّمُ
لله أيُّ مقامِ دينٍ قُمتَه والأمرُ من دونِ القضيّةِ مُبهمُ

(١) القرب : الحد .

فكأنّما كنتَ النبيَّ مُناجزاً بالقولِ ، أو بلسانه تتكلمُ
أيّام طلقها المُطيعُ ، وأوحشت
مذ زال عن ذا الغابِ ذاكَ الضَيغَمُ (١
فمضى ، وأعقبَ بعده مُتيقّظاً
سَجلاه يُؤسى في الرجالِ ،وأنعمُ (٢
كالغيثِ ، يخلفه الربيعُ ، وبعضُهم
كالنارِ ، يَخلفُها الرمادُ المُظلِمُ
لا تهتدي نُوَبُ الزمانِ لدولة
اللهُ فيها ، والنَبيُّ ، وانتمُ
شرفاً بني العباس مُدَّ رواقه وعُلى تُساندها القَنا والانجم
في فتيةٍ ركبوا العُلى من هاشمٍ
يرمُونَ أقطار العِدى كما رُمُوا
بحري الحياء الغضُّ في قَسَماتهم
في حينَ يجري في أكفّهم الدمُ (٣

---

(١) المطيع : اي الخليفة المطيع لله .
(٢) سجلاه : اي عطيته .
(٣) قسماتهم : وجوههم .

وإذا غضبتَ ، فأنتَ أنت شجاعة
تُوفي على غضب الردى ، وتُمِمُّ !
بخمائلِ الملك الجليلِ مقلَّدٌ وبخاتمِ النبأ العظيمِ مُختَّمُ
وعظمتَ قدراً ان يروقك مَغنَمٌ
أو ان يُصرَّ على بنالك درهمُ
هي راحةٌ ما تستفيق من الندى
أبدَ الزمان ، وبدرةٌ لا تُختمُ (١
ملكٌ تلاعبُ بالهوى عزماته بُعداً به عما يقول اللُّوَّمُ
عالٍ على نظرِ الزمان مُبرَّأٌ مما يَمُنُّ به الزمانُ ويَتلِمُ
يبنا يُضيءُ على الظلام ، فينجلي
حتى يُغيرُ على الضياء فيظلمُ
النفع والاضرار فعلُ لسانه
ليراش عافٍ ، أو يُضعضعَ مُجرِمُ (٢
ويروحُ عنه وليه وعدوُّه هذا يزيد غنىً ، وهذا يُعدِمُ

---

(١) البدرة : كيس من المال .
(٢) يراش : ينال خيراً . العافي : طالب المعروف .

فعلى المغارب مطلع متبلج
وعلى المجانب عارض متجهم
في كل يوم خالع متأخر
يردى ، وجد غالب متقدم (١

وفتوح أمصار تروح وتغتدي عفواً اليك ، وغيرها يتجشم
لولاك لم يأك متلها ما يرتقى علواً ، ولم يأك متلها ما يغنم

مدح القادر

من قصيدة مدح بها الخليفة القادر سنة ٤٣٨ هـ

أمن الحدوج سرنهن الا نيق
والركب يطفو في السراب ويغرق ؟ (٢
يقطعن أعراض العقيق ، فشئم بجدو ركائبه الغرام ، ومعرق
أبقوا أسيراً بعدهم ، لا يفتدي مما يجن وضالباً لا يلحق (٣
يهفو الولوع به ، فيطرف طرفه
ويزيد جولان الدموع فيطرق

---

(٢) الخالع : الخارج من طاعة سلطانه . يردى : يهلك . الجد : الحظ .
(١) الحدوج : الهوادج .
(٣) يجن : يخفي في قلبه .

ووراءَ ذاكَ الخِدرِ عارضُ مُزنةٍ
لا ناقعٌ ظمأً ، ولا مُتألِّقُ (١

ومُحجَّبٌ ، فاذا بدا ، من نُورِه
للركبِ مُلتهبُ المطالعِ مُوِرِقُ

خرُّوا على شُعَبِ الرِحالِ وأسندوا
أيدي الطعانِ الى قلوبٍ تخفُقُ

هل عهدُنا بعد التفرُّقِ راجعٌ
او غُصنُنا بعدَ التشأُّبِ مورِقُ؟(٢

شوقٌ اقام وأنتِ غيرُ مُقيمةٍ
والشوقُ بالكلَفِ المُعنَّى أعلقُ

ما كنتُ أحظى بالدُنوِّ فكيفَ بي
واليومَ نحنُ مُغرَّبٌ ومُشرِّقُ ؟

* *

ومُطلَّحينَ لهم بكلِّ ثنيةٍ
مُلقىً وِسادَتَه الثرى والمِرفَقُ

---

(١) العارض : السحاب . المزنة : المطر .
(٢) التشأب : اخضرار على الميت

مدحه الملك شرف الدولة

من قصيدة يمدح الملك شرف الدولة بن عضد الدولة البويهي ، عند دخوله بغداد سنة ٣٧٦هـ (٩٨٦م) بعد انتصاره على اخيه صمصام الدولة ، ويشكره على اطلاق ابيه من القلعة :

أحظى الملوك ، من الأيام والدُّوَلِ
من لا ينادِمُ غير البيضِ والأَسَلِ
وأشرفُ الناس مشغولٌ بهمّتِه
مُدَفَّعٌ بين أطراف القنا الذُّبُلِ
تطغى على قُضُبِ الأبطال نخوتُه
وقائمُ السيفِ مَندوبٌ الى القُلَلِ (١

* *

إيه لقد أسرَ الدُّنيا ، بنَجدتِه
أبو الفوارسِ ، والاقدام للبطل
ماضٍ على الهَولِ ، طلاّعٌ بغُرّتِه
على الحوادثِ ، مِقدامٌ على الأَجَلِ

(١) القضب : السيوف . القلل : اعالي الرؤوس .

هنّئتَ، يا ملكَ الملاكِ، مَنزِلةً
ردّتْ عليكَ بهاءَ العصرِ الأوّلِ

دعاكَ ربُّ المعالي زينَ ملّتِه
وملّةٌ، أنتَ فيها، أعظمُ المللِ!

صدّمتَ بغدادَ والأيّامُ غافلةٌ
كالسيلِ يأنفُ أن يأتي على مَهَلِ

بكلِّ أبلجَ معروفٍ بطلعتِه
اذا تناكرَ ليلُ الحادثِ الجللِ

يا قائدَ الخيلِ، إن كانَ السنانُ فما
فانٍ رمحكَ مشتاقٌ الى القُبَلِ

وكم مددتَ على الأقرانِ من رَهَجٍ
في ليلةٍ تغدرُ الألحاظُ بالمُقَلِ (١

ومُستغيرينَ، ما زالت قلوبُهم
تُبدِّدُ الرأيَ بينَ الريثِ والعجلِ

حتى أخذتَ عليهم حتفَ أنفسِهم
فأظلموا بسُروقِ العارضِ الهطلِ

---

(١) الرهج: الغبار.

راموا مقامك ، فازورت عيونهم
ما كل لحظ الى الآماق من قبل (١

لله زهرة ملك قام حامدها وليس يعلم ان الشمس في الحمل
لا تأسفن من الدنيا على سلف
فآخر الشهد فيها أعذب العسل
ولا تبال بفعل ، ان همت به
وثو رمي بك بين العذر والعذل
لا تعشين الى أمر تعاب به فقلما تفطن الايام بالزلل
لله ، أي فتى أمست لبانته
رذية بين ايدي العيس والسبل (٢
لا يفسد الحب رأيا كان أصلحه
اذا الفتى طرد الآراء بالنزل
رآك أشرف ممدوح يمتدح
وخير من شرعت فيه يد الأمل

---

(١) الآماق : مجاري الدمع
(٢) اللبانة الحاجة .

فجاء نحوك لا يلوي على أحد
إنّ المقيمَ عن الهيجاءِ في شُغُلِ

وليس يأتلف الاحسانُ في ملكٍ حتى يؤلّفَ بين القول والعملِ

فما أمَلُّ مديحاً ، أنت سامعُه
وعاشقُ العزّ لا يؤتى من الملَلِ

ما عُذرُ مثلي في نقصٍ وقولته
أبي الوصيُّ ، وجدّي خاتمُ الرُّسُلِ

هذا ابي ، والذي أرجو النجاحَ به
أدعوهُ منكَ طليقَ الهمِّ والوَجَلِ

لولاكَ ما انفسحت في العيشِ همّتُهُ
ولا أقرّ عيونَ الخيلِ والحَوَلِ (١

(١) الحول : النعم والعبيد والاماء

غزل وحب الحجازيات

ليالي منى

مَن مُعيدٌ لي أيا ... مي بجزعِ السمُراتِ (١
وليالي بجمعٍ ... ومنىً والجمراتِ (٢
وظباءٌ حاليات ... كظباءٍ عاطلاتِ
رائحات في جلابيـ ... ـبِ الدُجى مُختمراتِ (٣
راميات بالعيون ... مُجلِ قبل الحَصَياتِ
أيعقرِ القلبِ راحت ... لم لعقرِ البدناتِ ؟ (٤
كيف اودعتُ فؤادي ... أعيُنًا غيرَ ثقاتِ !
أيها القانصُ ، ما أحـ ... ـسنتَ صيدَ الظبياتِ
فأنَاكَ السربُ ، وما زُرْ ... تَ غميرَ الحسراتِ
يا وُقوفًا ما وَقفنا ... في ظلالِ السلماتِ (٥

---

(١) الجزع : منعطف الوادي . السمرات : شجر الطلح ،
(٢) جمع المزدلفة ، موضع بين عرفات ومنى . منى : موضع بمكة . الجمرات : الحجارة التي يرمي بها الحجاج بالبيت .
(٣) مختمرات : لابسات الخمار ، والخمار ما تلبسه المرأة على رأسها بغية الستر
(٤) البدنات : جمع بدنة بالتحريك ، وهي الابل والبقر
(٥) السلمات : نوع من الشجر مفردها سلمة

موقفاً يجمع فتيا ن الهوى والفتيات
نتشاكى ما عنانا بكلام العبرات
نظر يشغل منا كل عين بقذاة
كم نأى بالنفس عنا من غزال ومهاة
آه من جيد الى الدا ر كثير اللفتات !
وغرام غير ماض بلقاء غير آت
فسقى بطن منى والـ خيف صوب الغاديات (١
وزمانا نائم العذ ال مأمون الوشاة
في ليال كاللآلي بالغواني مقمرات
غرست عندي غرس الـ شوق ممرور الجناة (٢
أين راقٍ لغرامي وطبيب لشكاتي ؟ (٣

لوعة الفراق

يا قلب جدد كمدا فموعد البين غدا
لم أر فرقاً ، بعدهم بين الفراق والردى

---

(١) الخيف : غرة بيضاء في الجبل الاسود الذي خلف اي قيس بمكة : وبها سمي مسجد الخيف .

(٢) : ممرور الجناة : اي مر الجنى

(٣) الراقي : راقه . اي صنع له تعويذة تشبه امراض الحب والهوى

يا زَفرةً هيّجها حادٍ من الغورِ حدا (١
أغنى زفيرُ العاشقينَ عيسَه عن الحدا
أدعي الحُمولَ ناظراً وألزمُ القلبَ يدا (٢
وأطردُ الطرفَ على آثارِهم ما انطردا
مذ أوقدُوا بأضلُعي جمرَ الغضا ، ما خمدا (٣
ومذ أذابوا ماءَ عيني بالأسى ، ما جمدا
يا هلْ أرى ، من حاجةٍ حقفَ النقا والجُمُدا (٤
وحيثُ سالَ الرملُ عن جرعائه ، وانعقدا (٥
وهل أعيدُ ناظراً يتبعُ سرباً مُنجِدا (٦
يمشينَ هزّاتِ القنا مالَ وما تقصّدا
هل ناشدٌ ينشدُ لي ذاكَ الغزالَ الأغيدا
ما ضلّ عني ، إنما ضلّ بقلبي كمدا (٧

---

(١) الغور : اسم لعدة مواضع .
(٢) الحمول : الهوادج
(٣) الغضا : شجر ، خشبه صلب ، يبقى مدة طويلة كي يصير رمادا
(٤) الحقف : المعوج من الرمل . النقا : الكثيبة من الرمل . الجمد : جبل بنجد .
(٥) الجرعاء : عقبة فيها قيم من الرمل
(٦) منجداً : آتياً نجداً .
(٧) ضل بقلبي : أي أضله

رُهنتهُ قلبي ، ومَن يَرهنْ قلباً أبدا
يا مُنجزاً وعيدَه وماطلاً ما وعدا
أراكَ مني أقربا وإنْ غدوتَ أبعدا
عذّبتَ قلبي عَنَتاً والطَّرفُ، لا القلبُ بَدا(١
رُبَّ ثَنايا بَرَدت لذي جَوىً ما بردا (٢
يا حرَّ قلبٍ مَن سُقي رِضابَهُنَّ الأبردا !
لم يدرِ هل ذاق بها جمرَ غَضاً او بَرَدا؟
يا كَبِدي تجلّداً ! فما أطيق الجَلَدا !
عسى فؤادي يرعوي رُبَّ مُضَلٍّ وُجِدا

غريد وباك

جُرِّي النسيمَ على ماء العناقيدِ
وعلّلي بالأماني كلَّ مَعْمودِ (٣
يا نَفحةَ هزّتِ الأحشاءَ شائقةً
وذكّرت نفحاتِ الخُرّدِ الغيدِ !

---

(١) عنتا : خطأ .
(٢) الجوى : الحرقة وشدة الوجد .
(٣) المعمود : الذي هده العشق

يضمها الليل في أثناء غيهبه
والقطر يلمس أطراف الجلاميد
كأنها عن طريق المزن طائشة
لحظ تردده أجفان مزؤود (١)
ليت الأحبة أغرين الرياح بنا
وإن تأين على شحط ونبعيد
وليتهن : على يأس اللقاء لنا
علمن بالوعد سير الضمر القود
أبيت والليل مبثوث حبائله
والوجد يقنص مني كل مجلود
شوقا اليك ، وإشفاقا عليك ، ولي
دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به
إن الغريب قريب غير مودود
يا طائر البان ، ما غربت عن سكن
يوما ، ولا كنت عن مأوى بمطرود

(١) المزن : المطر . المزؤود : المذعور

وأنت في ظلّ أفنانٍ مُهدّلة
تحنو عليك بعنوان العناقيد (١
ملأت عُشّك طعماً غير مختلس
بلا رقيب وورداً غير تصريد (٢
تبكي، وما لكَ من إلف فُجعتَ به
ولا لُويتَ، على بُعد، بموعود (٣
ظُلمتَ، ما أنتَ من همّي ولا كمدي
إنّ العليلَ لقلبٌ عادهُ عِيدي (٤
انا الذي إن بكى وجداً، فحُقّ له
كم بين باكٍ من البلوى، وغريد!

حديث المضاجع

وقفتُ ببَعِ العامريّةِ وقفةً
فعزّ اشتياقي، والدموعُ خواضع (٥

---

(١) الافنان: الاغصان.
(٢) التصريد الستي دون الري
(٣) لويت: اي ماطلت
(٤) عاده: اتاه. العيد: ما يكتاب الانسان من هم او مرض او حزن.
(٥) عز: اي قوي.

وكم ليلةٍ بتنا على غير ريبةٍ
عليْنا عيونٌ للنهى ومسامعُ (١
نفضُّ حديثاً عن ختامِ مودّةٍ
معاقلها أحشاؤنا والأضالعُ (٢
يكاد غُرابُ الليل، عند حديثنا
يطيرُ ارتياحاً، وهو في الوَكْرِ واقعُ
خلَونا فكانت عفّةٌ لا تعفّفٌ
وقد رُفعت في الحيِّ عنّا الموانعُ
سألوا مضجعي عني وعنها، فإننا
رضينا بأن يُخبِرنَ عنّا المضاجعُ

عاثر الدموع

وإذا ما سُئلتَ عني ، فقل :

نضْوُ هوىً ما أظنُّه اليومَ باقِ(١

ضاعَ قلبي فانشدهُ لي بينَ جمعِ

ومنى عند بعضِ تلك الحداقِ (٢

وابكِ عني ، فطالما كنتَ ، من قبلُ

أُعيرُ الدموعَ للمشتاقِ

نشوان

أسقني ، فاليومُ نشوانُ والرُبى صادٍ وريّانُ

كَمَلَت باللهوِ وافيةٌ لكَ نابات وعيدانُ

حارَ وفدُ الريحِ فالتَطَمَت منه أوراقٌ وأغصانُ

كلُّ فرعٍ مالَ جانبه فكأنَّ الأصلَ سكرانُ

وكأنَّ النُصنَ ، مُكتسياً من بياضِ الطَلِّ ، عُريانُ

كلَّما قبَّلتُ زهرتَه خلتُ أنَّ القطرَ غيرانُ

ومقيلٍ بينَ أخبيةٍ قلتُه ، والحيُّ قد بانوا (٣

---

(١) النضو : المهزول .

(٢) الحداق : الاحداق .

(٣) المقيل : نومة نصف النهار . الاخبية : جمع خباء .

في أصيحاب ، مفارشهم ثُمَّ ، أنقاءٌ وكثبانُ (١
عسكرت فيها السحاب كما حطّ بالبيداء ركبانُ
فارتشمنا ريق سارية حيثُ الارض غدرانُ (٢
فاسقني ، والوصلُ يأتلفني إنّ يومَ البين قرحانُ
فهوةٌ ما زالَ يقلق من مجتناها الملكُ والبانُ
غيرُ سمعي للملامِ ، إذا صاحَ ساجي الصوتِ مرنانُ (٣
ربَّ بدرٍ بتُّ ألثمُهُ صاحياً ، والبدرُ نشوانُ
قدتُ خيلَ اللثمِ أصرفها حيثُ ذاكَ الخدُّ ميدانُ
لي غديرٌ من مقبّلِه ومن الصدغينِ بُستانُ (٤
في قميصِ الليلِ عفّتهُ مَن ظنَّ أنَّ الوصلَ كتمانُ
كيفَ لا تبلى غلائلهُ وهو بدرٌ ، وهي كتّانُ!
ونَدامَى كالنجومِ سطو بالمنى ، والدهرُ جذلانُ
خطروا ، والخمرُ تنفضهم وذيولُ القومِ أردانُ
كم تخلّت من ضمائرهم ثُمَّ ألبابٌ واذهانُ

---

(١) الانقاء : جمع النقا ، وهو القطعة المحدودبة من الرمل .
(٢) السارية الغمامة
(٣) الساجي : الساكن .
(٤) القبل : الثغر .

كلُّ عقلٍ ضاع من يقظ فهو في الكاسات حيران
انما ضلّت عقولهم حيث يُعيين وجدان
فاختاس طعم الزمان بها انما الايام أقران (١

سيف العفة

تُضاجعني الحسناء ، والسيف دونها
ضجيعان لي والعضبُ ادناهما مني
إذا دنت البيضاء مني لحاجة
أبى الابيضُ الماضي وماطلها عني
وان نام لي في الجفن إنسانُ ناظرٍ
تيقّظ عني ناظرٌ لي في الجفن (٢
أغرتُ فتاةَ الحيّ مما ألفته
أغلغلُه دونَ الشعارِ من الضنّ ٣
وقالت : هَبوه ليلةَ الخوفِ ضمّه
فما عذرُه في ضمّه ليلةَ الأمنِ ؟

(١) الامران : النظائر
(٢) الجفن الثاني : غمد السيف .
(٣) الضن : اي من الحرص عليه

عذري من الصحراء

يَقَرُّ بعيني ان أرى لك منزلاً
بنَعمانَ يزكو نَبتُه ويَطيبُ
وأرضاه بنُوّارِ الأقاحي صقيلةً
تَرَدَّدُ فيها شَمأَلٌ وجَنوبُ
وأيُّ حبيبٍ غَيَّبَ النأيُ شخصَه
وحالَ زمانٌ دونه وخُطوبُ
تطاولَ الأعلامُ بيني وبينه
وأصبحَ نأيُ الدارِ ، وهو قريبُ ١
الكِ اللهُ من مَطولةِ القلبِ بالهوى
قتيلةِ شوقٍ ، والحبيبُ غريبُ ٢
أقِلُّ سلامي ، إن رأيتُكَ ، خيفةً
وأعرِضُ كيما لا يقالَ : مُريبُ
وأطرِقُ ، والعينانِ يُومِضُ لحظُها
إليكِ ، وما بين الضُلوعِ وجِيبُ ٣

---

(١) الاعلام : الجبال .
(٢) مطولة : مهدورة .
(٣) يومض لحظها : ارجع الضمير الى احدى العينين . الوجيب : الخفقان .

يعونون : مشغوف الفؤاد مُروَّعٌ
ومشغوفةٌ تدعو به فيجيب
وما علموا أنّا إلى غير ريبة
بقاءَ الليالي ، تغتدي وتؤوب
عفافيَ ، من دون التقية ، زاجرٌ
وصونك ، من دون الرقيب ، رقيب (١
عشقتُ وما بي ، يعلمُ اللهُ ، حاجةٌ
سوى نظري ، والعاشقون ضروب
ومالي ، يا لَيلاءُ : بالشعرِ طائلٌ
سوى أنّ أشعاري عليك نسيب
أحبّك حباً لو جزيتِ ببعضه
أطاعك مني قائدٌ وجنيب
وفي القلبِ داءٌ في يديك دواؤه
إلا ربَّ داءٍ لا يراه طبيب !
سرى لكِ من أوطانه كلُّ عارضٍ
تضاحك فيه البرق وهو قطوب (٢

(١) التقية : الخوف والحذر . (٢) العارض السحاب المعترض

ولا زال خفّاقُ النسيم مُرفرِفاً
عليكِ، وأنواءُ الغمامِ تصوبُ (١

لقاء لن يعود

وقف الهوى بي عندها ... وسرت بقلبي مُقلتاها
بَرَدت عليَّ، كأنما ... ظلُّ الغمامةِ عارضاها (٢
شمسٌ أقبّل جيدها ... يومَ النوى، وأجِلُّ فاها
وأذودُ قلباً ظامئاً ... لو قيلَ: وِردكَ، ما عداها!
ولو استطاعَ، لقد جرى ... مَجرى الوشاحِ على حشاها
يا يومَ مُفترقِ الرفاقِ ... تُرى تعودُ لملتقاها؟
قالت: سيَعْرُقُكَ الخيالُ ... من العقيقِ، على نواها (٣
نعِدي بطيفكِ مُقبلاً ... إن غبتِ، تطمعُ في كراها
انّى شربتُ من الهوى ... حمراءَ، صرّفَ سافياها (٤

(١) الانواء: اي الامطار
(٢) الظل: المطر الخفيف. العارضان: صفحتا الخدين
(٣) العقيق: الوادي، واسم لعدة مواضع بالمدينة.
(٤) حمراء: اي خمرة تجرى الحمراء فهي شهرة مذكرة

يا بَرْحةً بالقاعِ لم يُبْذَلْ بغيرِ دمي ثراها
ممنوعةً ، لا ظلُّها يدنو إليَّ ، ولا جَناها
أكذا تذوبُ عليكمُ نفسي ، وما بانَتْ مُناها
أين الوجوه أُحبُّها وأودُّ لو أنّي فداها ؟
أمسي لها مُتَقَدِّماً في الغائدينَ ، ولا أراها
واهاً ! ولولا أن يلومَ اللائمونَ ، لقلت : آهـا !

التحرق على الشباب

قال لي عند مُلتقى الرَّكب عمرو :

قُوِّمَ العُودُ بعدنا فانصاتا (١

أين ذاكَ الصِّبا ، وأين التَّصابي ؟

سبقا الطالبَ المُجِدَّ وفاتا

من قضى عُقْبَةَ الثلاثين يغدو

راجعاً يطلُبُ الصِّبا ؟ هيهاتا ! (٢

لم تَزَلْ ، والمشيبُ غير قريبٍ

ناعياً للشبابِ حتى مـاتا

---

(١) انصات الشيء : استوت قامته .

(٢) العقبة : النوبة .

كنت تبكي الأحياء ، فاستكثر اليوم
من الدمع ، واندب الأمواتا

شعوره نحو والدته

من قصيدة ينفجع فيها على والدته

أبكيكِ ، لو نفع الغليل بُكائي
وأقولُ ، لو ذهب المقالُ بدائي (١
وأعوذُ بالصبر الجميل تعزّياً لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تُكاثرني الدموعُ ، وتارةً آوي إلى أكرُومتي وحيائي
كم عبرة موّهتُها بأناملي وستَرتُها ، متجمّلاً ببرائي (٢
أبدي التجلّدَ للعدو ولو درى بتململي ، لقد اشتفى أعدائي
ما كنتُ أذخرُ في فداكِ رغيبةً
لو كان يرجع ميّتٌ بفداءِ (٣
لو كان يُدفعُ ذا الحِمامُ بقوةٍ
لتكدّست عُصَبٌ وراءَ لوائي
بمُدَرَّعين على القراعِ تفيّأوا ظلَّ الرماحِ لكلِّ يوم لقاءِ

(١) نقع : أروي وشفى .
(٢) متجملا : متكلفاً الصبر الجميل
(٣) الرغيبة : العطاء الكثير .

قومٌ اذا مَرِهوا بأغباب السُّرى كحلوا العيون بأثمد الظلماء (١

يمشون في حلق الدُّروع كأنهم
صُمُ الجلامد في غدير الماء

ببُروق أدراع ، ورعد صوارم
وغمام قسطلة وَوبل دماء (٢

فارقتُ فيك تماسكي وتجملي ونسيتُ فيك تعزُّزي وإبائي

وصنعت ما تَلم الوفاءُ صنيعه
مما عراني من جوى البُرحاء

كم زفرة ضعفت ، فصارت أنَّةً
أتممتُها بتنفُّس الصُعداء

لهفان أَنزُو في حبائل كُربة ملكت عليَّ جلادتي وغنائي (٣

وجرى الزمانُ ، على عوائد كيده
في قلبِ آمالي وعكسِ رجائي

قد كنتُ آملُ ان أكون لك الفدى
مما ألمَّ ، فكنتِ انتِ فدائي

---

(١) الاثمد : حجر الكحل .
(٢) القسطلة : غبار الحرب (٣) البناء . الاضطلاع بالامور .

وتفرّقُ البُعَداءِ ، بعد مودّة
صعبٌ ، فكيف تفرّقُ القُرباء

كربلا !

من قصيدة قالها في ذكرى مقتل الحسين ، وما أصاب آله وأصحابه في كربلا :

كربٌ بلا! لازلتِ كرباً وبلا! ما لقيَ عندكِ آلُ المصطفى؟
كم على تُربكِ ، لمّا صُرّعوا من دمٍ سالَ ، ومن دمعٍ جرى!
كم حصانِ الذيلِ يُروي دمعُها خدَّها ، عند قتيلٍ بالظما (١
تمسحُ الترب ، على إعجالها عن طُلى نحرٍ رميلٍ بالدما (٢
وضيوفٍ لفلاةٍ قفرةٍ نزلوا فيها ، على غير قِرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا بحدّ السيف على وِرد الردى
تكسفُ الشمسُ شموساً منهمُ لا تُدانيها ضياءً وسنى
وتنوشُ الوحشُ من أجسادهم
أرجلَ السبقِ ، وأيمانَ الندى (٣
ووجوهاً كالمصابيحِ ، فمن قمرٍ غابَ ، ومن نجمٍ هوى

(١) الظما : العطش .
(٢) الطلى : جمع طلية وطلاة ، وهي أصل العنق .
(٣) تنوش : تتناول .

غيرتهن الليالي ، وغدا جائر الحكم عليهن ، البلى

يا رسولَ اللهِ ، لو عاينتهم وهمُ ما بين قتل وسبا :

من رَبيضٍ يمنعُ الظلَّ ، ومن

عاطشٍ يُسقَى أنابيبَ القنا (١

ومَسوقٍ عاثرٍ يُسعى به خلفَ محمولٍ على غيرِ وطا

مُتعَبٍ ، يشكو أذى السيرِ على

نَقَبِ المنسمِ ، مجزولِ المطا (٢

لرأت عيناكَ منهم منظراً للحشا شجواً ، وللعين قذى

ليس هذا لرسولِ اللهِ يا أمةَ الطغيانِ والبغيِ جزا

غارسٌ ، لم يألُ في الغرسِ لهم فأذاقوا أهلَه مُرَّ الجنى

جزروا ، جزرَ الأضاحي ، أكلُه ثم ساقوا أهله سوقَ الاما

مُعجَلاتٍ لا يُوارِينَ ، ضُحى

سُنَنَ الأوجهِ ، أو بيضَ الطُّلى

---

(١) الربيض : القطيع القليل من الغنم .

(٢) النقب : البعير اذا حفي ، المنسم : خف البعير . المجزول : البعير في ظهره دبرة ، اي قرحة .

هاتفات برسول الله في

بُهَرِ السَّعْيِ ، وعَثَرَاتِ الخُطَى(١

يومَ لا كسرُ حجابٍ مانعٌ بذْلَةَ العينِ ،ولا ظلٌّ خبا(٢

أدركَ الكفرُ بهم ثاراته وأديلَ الغيُّ منهم فاشتفى

يا فتيلاً ! قوّضَ الدهرُ به عَمَدَ الدينِ وأعلامَ الهُدَى!

قتلوه بعد علمٍ منهمُ أنه خامسُ أصحابِ الكسا(٣

وصريعاً عالجَ الموتَ بلا شدَّ لحيين ، ولا مدَّ رِدَا

غسّلوه بدمِ الطعنِ ، وما كفّنوه غيرَ بوغاءِ الثرى(٤

مُرهقاً يدعو ، ولا غوثَ له بأبٍ برٍّ ، وجدٍّ مصطفى !

وبأمٍّ رفعَ اللهُ لها علماً ما بين نسوانِ الورى

أيُّ جدٍّ وأبٍ يدعوهما ؟: جدّ ، يا جدّ ! أغثني !يا أبا!

يا رسولَ اللهِ ، يا فاطمةُ يا أميرَ المؤمنينَ المرتضى

---

(١) البهر : جمع البهرة : وهي هنا وسط الظهر .

(٢) بذلة العين: امتهان النفس ، وقلة صونها. والبذلة في الاصل ، مالا يصان من الثياب.

(٣) اصحاب الكساء : النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين خامسهم لانه كان آخر من التف بالكساء معهم . قيل لهم ذلك لاجتماعهم بالكساء اليماني عند فاطمة ، وقول النبي حين ذاك : هؤلاء عترتي واهل بيتي .

(٤) البوغاء : التربة الرخوة .

كيف لم يستعجل الله لهم
بانقلاب الارض، أو رجم السما؟(١

* *

حملوا رأساً يصلّون على ... جدّه الأكرم طوعاً وإبا
يتهادى بينهم، لم ينقضوا ... عهم الهام، ولا حلّوا الحبى
ميّتٌ تبكي له فاطمةٌ ... وأبوها، وعليّ ذو العلى
لو رسولُ الله حيّاً بعده ... قعد اليوم عليه للعزا
يا جبالَ المجد عزّاً وعلى ... وبدورَ الأرض نوراً وسنا!
جعل الله الذي نابكم ... سبب الوجد، طويلاً، والبكا
لا أرى حزنكم ينسى، ولا ... رزءكم يبلى، وان طال المدى
قد مضى الدهر، وعفّى بعدكم ... لا الجوى باخ، ولا الدمع رقا(٢

●

(١) رجم السما: اي ترجمهم السماء بشهبها
(٢) باخ: سكن رقأ الدمع: انقطع جريانه

راحلٌ انت

من قصيدة قالها في عاشوراء سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٨)

راحلٌ أنتَ ، والليالي تزُولُ ومُضِرٌّ بكَ البقاءُ الطويلُ
لا شُجاعٌ يبقى فيعتنِقُ البِيضَ
ولا آملٌ ولا مأمولُ
غايةُ الناسِ في الزمانِ فَناءٌ وكذا غايةُ الفصُولِ الذُبولُ
انما المرءُ للمنيّةِ مَخبوءٌ وللطعنِ تستجِمُّ الخيُولُ (١
من مَقيلٍ بينَ الضلوعِ ، الى طُولِ
عَناءٍ ، وفي التُرابِ مَقيلُ (٢
فهو كالغيمِ ألّمتهُ جَنُوبٌ يومَ دجنٍ ، ومزّقتهُ قَبولُ (٣
عادةٌ للزمانِ ، في كلِّ يومٍ يتناءى خِلٌّ ، وتُبكَى طلول
والليالي عونٌ عليكَ مع البينِ كما ساعدَ الذوابلَ طُولُ (٤
ربما وافقَ الفتى من زمانٍ فرحٌ ، غيرُهُ به مَتبولُ (٥

---

(١) تستجم : تستريح .
(٢) مقيل بين الضلوع : مقيل النفس في الجسم .
(٣) القبول : ريح الصبا تأتي من الشرق .
(٤) الذوابل : الرماح .
(٥) متبول : مبتلى ، مذهوب بعقله .

هي دنيا ، ان واصلت ذا ، جفت
هذا مُلالاً ، كأنها عُطبُولُ (١
كل ثاكل ، يُبكى عليه ، وإن طال بقاءُ ، والتاكلُ المثكولُ
والأمانيُّ حسرةٌ وعناءٌ للذي ظنَّ أنها تعليل
ما يُبالى الحِمامُ أينَ ترقّى بعد ما غالت ابنَ فاطمَ غُولُ (٢
أيُّ يوم أدمى المدامعَ فيه حادثٌ راثمٌ وخطبٌ جليلُ؟
يومُ عاشوراءَ الذي لا أعانَ الصَّحبُ فيه ، ولا أجارَ القبيلُ (٣
يا ابنَ بنتِ الرسولِ ، ضيّعتَ العهدَ رجالٌ ، والحافظونَ قليل
ما أطاعوا النبيَّ فيك ، وقد مالت بأرماحهم اليكَ الذحُولُ (٤
وأحالوا على المقاديرِ في حربكَ لو أنَّ عُذرَهم مقبولُ

---

(١) العطبول : المرأة الفتية الجميلة .
(٢) الغول : المهلكة والداهية .
(٣) القبيل : الجماعة
(٤) الذحول : جمع ذحل ، وهو الثأر او طلب مكافأة بجناية ، او المعاوة والحقد .

واستقالوا من بعد ما أجلبوا فيها، ألا آن ايها المستقيل ؟!(١

إن أمرأ قنعت ، من دونه ، السيف

لمن حازه لمرعى وبيل (٢

يا حساماً ، فلت مضاربه الهام

وقد فله الحسام الصقيل !

يا جواداً ، أدمى الجياد من الطعن

وولى ونحره مبلول !

حجل الخيل من دماء الأعادي

يوم يبدو طعن ، وتحتى حجول (٣

يوم طاحت أيدي السوابق في النقع

وفاض الوغى ، وغاض الصهيل

أتراني ألذ ماء ، ولما

يرو ، من مهجة الامام ، الغليل ؟!

أم تراني أعير وجهي صوناً

وعلى وجهه تجول الخيول ؟!

---

(١) احلبوا : تجمعوا من كل وجه للحرب .

(٢) قنعت بالسيف : غطي رأسك به ، اي ضرب به .

(٣) حجل : خضب . الحجول : البياض في توائم القرس .

خطأ وصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٢٣	سوى	إلا
١٧	١٣	يدلو	يدلي
١٩	١	ما . ما	بما . بما
٢١	٦	ذلك السن المبكر	ذلك السن المبكرة
٢٢	١	يبضع	بيضعة
٢٣	٨–١٧	رأينا من انها ، به	رأينا انها - بها
٢٦	٢٠	رجلا	رجل
٢٨	٨	اعدائه	اعداؤه
٣٦	٨	الاخشيدين	الاخشيدون
٣٨	١٤	ابا العشائر	أبي العشائر
٤٣	١٤ - ٢٠	كبرياؤه ، شاعراً	كبرياؤه ، شاعر
٤٧	٤ - ٧	ابوفراس ،ابو العشائر ،وراءه ،ابي فراس ،ابي العشائر ،ورائه	
٥٦	٤ - ٥	ينجو - امرائها	ينج - امرؤها
٥٧	١١	اشهر ثلاث	اشهراً ثلاثة
١١٠	١٠	العددية	العديدة
١١١	٦ – ١١	اثر ، خطوط	اثراً ، خطوطاً
١١٢	٨	مظهراً	مظهر
١١٢	١٧	تشويهاً ، فظيعاً ، كريهاً ،بغضياً بتشويه ، فظيع ، كريه ،بغيض .	
١١٥	١٠ - ٢١	عصر - الفضاضة	عصره - الفظاظة
١١٦	١٢	مناهجنا	منهاجنا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٠	٥ - ٧	الحيا ، شأنا هاماً	الحياة ، شأن هام
١٢١	٣	اتفاقاً	اتفاق
١٢٣	٢١	مسعاً آخراً	مسعى آخر
١٢٥	٢، ٥، ١٨	لكنه، ادباؤنا، امثله	لكن ، ادباءها ، الأمثلة
١٢٧	١٧	متعب	متعباً
١٢٨	١٣	الاخيرة	الاخير
١٣٠	٨	الى سلطة	السلطة
١٣١	٨	فيما	ما
١٣٦	٣٠-١٠	المعري ، وليس	كان المعري ، وليسوا
١٤١	١٠	الذي	الذين
١٤٣	١٢	سوى	إلا
١٤٨	٢٢	اطلاعاً واسعاً	إطلاع واسع
١٤٩	١٥	نثراً، اثراً، طريفاً، خالداً	نثر ، اثر ، طريف ، خالد
٢٣٣	٢	ام يمدح	ام انه يمدح
٢٣٦	٦-١٥	ابنائه ، ابو	ابناءه ، ابي
٢٣٩	١٦	منذ	من
٢٤٨	٥	رأياً	رأي
٢٥٧	١٢	يسجن، من العطرا	يسجن ، من العطر
٢٥٩	٤	ليغني	وليغن
٢٦٣	٣	ابتلي	ابتلى

فهرس

صفحة	
٢	مقدمة
	المتنبي
١١	دراسة
	مختارات شعرية
٥٩	المدح
٧٧	الهجاء
٨٢	الرثاء
٩٥	الفخر
١٠٤	الحكم والامثال
	المعري
١٠٧	دراسة
١٥٠	رسالة الغفران
١٩٦	منتخبات متفرقة
٢١٢	الفساد
٢٢٢	السعادة
	الشريف الرضي
	دراسة
٢٧١	**منتخبات شعرية**